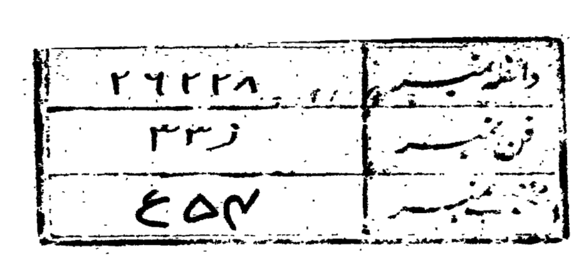


تاريخ الاسلام السياسى

نشأة الدولة الإسلامية

فتح جزيرة العرب

حروب الإسلام والإمبراطورية الفارسية

تأليف

أمين سعيد

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

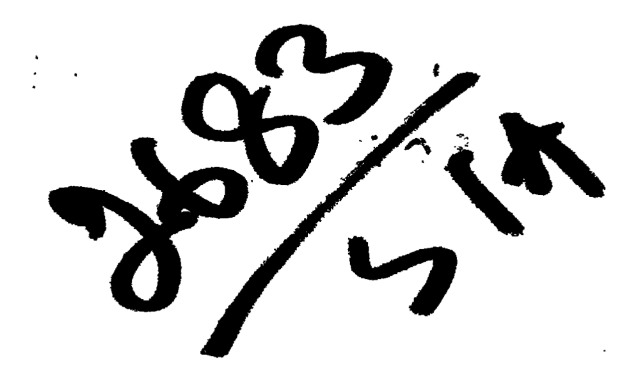
للمؤلف

(١) الثورة العربية الكبرى ٣ مجلدات

(٢) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

(٣) ايام بغداد

هـذا الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد النبي العربي ، وعلى آله وأصحابه والتابعين واخوانه من الانبياء والمرسلين ، ولا حول الا بالله منه نستمد العون ، وبه نستعين

لما صدر كتاب الثورة العربية الكبرى في شهر رجب سنة ١٣٥٣ ، وقد لقي ولله الحمد اقبالا زائدا ، اقترح علي بعض اهل الفضل ان اضع تاريخ الاسلام السياسي ، وقالوا ما دمت قد وفقت في تأريخ هذا العهد الصغير من عهود العرب ، فيجب ان تعنى بتدوين تاريخهم الاكبر ، فتتصل حلقاته ، ويرتبط ماضيه بحاضره ، فقد انقضت السنون على اشراق فجر النهضة العلمية الجديدة ولم يشمر عربي مسلم لتدوين اخبار ثورة امته على الروم والفرس ، وتسجيل اخبار نهضتها ـ وقد ادهشت العقول وحيرت الافهام ـ على منوال يتفق مع ذوق العصر الحاضر ومع ما بلغه فن التاريخ من تقدم وارتقاء

وكاتبت اخواني الادباء في الشام والعراق والحجاز واليمن ـ وقد عودوني المساعدة والتأييد ـ اسألهم رأيهم فكتبوا مشجعين ومنشطين وقالوا امض في سبيلك فنشد ازرك ، ونأخذ بضبعك ، واستعن بالله وتوكل عليه ، فحسن النية والرغبة الصادقة في الخدمة العامة هما لك خير شفيع وكفيل

والواقع ان وضع كتاب يتناول الناحية السياسية وحدها من تاريخ الاسلام ويعنى بسرد اخبارها ، ويجمع مستنداتها ووقائعها ، ويرافق الاسلام في تحوله وتطوره من ابتداء ظهور دولته حتى يوم الناس هذا ، ويبحث العوامل والاعتبارات الاجتماعية والعنصرية والسياسية التي ساعدت على نموه وانتشاره ، ويعللها تعليلا مقبولا معقولا ، مما لم يسبق اليه حتى الآن ؛ ويشعر جمهور المتأدبين والناشئين بشدة الحاجة اليه فهنالك حلقات مفقودة من هذا التاريخ ، وهنالك حوادث يكتنفها الغموض والابهام ، ولم يصب تاريخ امة من الامم الحية في هذا الوجود بما اصيب به تاريخنا ، ولولا ما كتبه الاسلاف رحمهم الله في القرون الاولى لضاع بعض معالمه ، ولغم علينا معرفة غير قليل من حوادثه

ولقد نهجت في وضع هذا الكتاب منهجا لم يألفه المسلمون في كتابة تاريخهم

فسردت حوادثه على المنوال الذى يسير عليه المؤرخون المعاصرون فى سرد الحوادث ، واجتنبت المبالغات فلدينا ولله الحمد تاريخ مملوء بالمآثر ، مزدان بالمحامد ، لا تنفد كنوزه ، ولا تبلى جدة مفاخره

ومما شجعنى على الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة انى طفت معظم الاقطار التى كانت مجلى للحوادث الخطيرة فى تاريخنا العربى العظيم فقد مشيت الشام من جنوبيه الى شماليه ومن غربيه الى شرقيه ووردت دجلة والفرات والنيل وزمزم واليرموك ، واجتزت جبال طوروس والثغور والدروب ووطأت جبال حمرين (الحدود الفاصلة بين العراق وفارس) وجبت صحارى الشام وسيناء والحجاز ووعيت جغرافية هذه الاقطار ووقفت فى الجابية كما وقفت على اطلال القادسية وفحل وبصرى وقيسارية وبيت المقدس وحمص وحلب وانطاكية وطرسوس واطنة وقونية والقسطنطينية وقد سرت اليها برا من دمشق ومشيت اليها على الطريق التى مشى عليها جيش الامويين كما مشيت على الطريق التى مشى عليها عمرو بن العاص من قيسارية الى وادى النيل وطفت فى انحاء هذا الوادى المبارك ، ولا ريب ان التجوال فى هذه الاقطار ، وبين هذه الامصار يساعد على فهم كثير من حوادث التاريخ الاسلامى ، فيسيغها القارىء ويتذوقها حينما يصف معالمها وصف خبير وما راء كمن سمعا

واعتمدت على الخريطة فى وصف الحوادث العسكرية لتقريبها من الافهام فوضعت لكل حادثة من الحوادث الكبرى خريطة خاصة وفى هذا الجزء تسع خرائط هذا بيان عنها :

١ ـ خريطة للحجاز حين ظهور الاسلام ، وتساعد على تكوين فكرة عن حالة هذا القطر فى ذلك العهد

٢ ـ خريطة تحدد اماكن اليهود فى شمالى الحجاز ويستعان بها على معرفة الجهات التى كانوا ينزلونها

٣ ـ خريطة معركة بدر الكبرى وقد مكنت للاسلام فى الحجاز وساعدت على انتشاره

٤ ـ خريطة معركة احد

٥ ــ خريطة معركة الخندق

٦ ــ خريطة معركة خيبر

٧ ــ خريطة تبين حدود الدولة الاسلامية حين وفاة مؤسسها الاعظم

٨ ــ خريطة معركة القادسية

٩ ــ خريطة الفتح العربى فى العراق وايران ويستعان بها على متابعة حركات الجيش العربى فى زحفه على العراق وايران

تلك هى الخرائط التى يضمها هذا الكتاب بين دفتيه وسنوالى وضعها فى كل كتاب يصدر ان شاء الله طبقاً للحاجة

واتبعنا هذه الخرائط برسوم شمسية لبعض الاماكن التاريخية فاثبتنا رسما لمدينة مكة المكرمة ، مهد الاسلام ، ومطلع شمسه ، وفى وسطها الكعبة المشرفة كما اثبتنا رسما للمدينة المنورة اول عاصمة للاسلام ، وفى وسطها الروضة النبوية المطهرة . مع رسم مسجد قبا وهو اول مسجد اسس فى الاسلام ، ورسم لجبل احد وفيه مسجده وقد انشىء لتخليد ذكرى شهداء تلك المعركة الكبرى ، مع مسجد الحديبية وقد اقيم فى المكان الذى جرت فيه بيعة الرضوان تخليدا لذكرى تلك الحادثة الخطيرة ، ونشرنا ايضا رسم جامع صنعاء الكبير مع رسم البقية الباقية من طاق كسرى (ايوانه) فى المداين شمالى بغداد

ووصفنا الاماكن والديار التى مر بها الغزاة فى حروبهم والمنازل التى نزلوها وحققنا كثيرا من اسماء المدن والاماكن القديمة ، ووضعنا الى جانب اسم كل مدينة او اقليم ابدل اسمه القديم ، الاسم الجديد ، وحددنا المسافات بقدر الامكان بين المدن والاقاليم واعتمدنا فى سرد الحوادث واثباتها على اقوال ثقات المؤرخين الاقدمين وعلى روايات بعض افاضل المستشرقين وعلى مباحث الاساتذة المجددين ، والجهابذة العسكريين وغيرهم من الذين عكفوا على نشر دراسات خاصة عن حوادث معينة فى التاريخ الاسلامى ، آخذين بالاوثق والاقرب الى العقل والمنطق ، ومبتعدين عن المبالغات والروايات الضعيفة فتاريخ العرب السياسى والعسكرى من اجمع التواريخ

للحوادث الجسام ، وقد فعل العرب فى الميدانين العسكرى والسياسى فى خلال نهضتهم الاولى من الافعال مالم تسبقهم اليه الامم التى تقدمتهم ، ولم تلحقهم فيه الامم التى جاءت بعدهم . ولما انصرفوا بعد ذلك الى الميدان العلمى فاقوا الأقران و بزوا الانداد وانشأوا حضارة كانت خير حضارة عرفها التاريخ حتى عهدهم

وقبل القاء القلم نعود فنكرر اننا راعينا ذوق العصر الحاضر ، ومصطلحاته الكتابية فى وصف الحوادث واثباتها ، وان كتابنا هو خاص بالناحية السياسية دون سواها من تاريخ الاسلام . اما الناحية الدينية فقد وفاها اعلام الاسلام حقها فالفوا المطولات فى فضائله ومزاياه واتوا بما ليس وراءه زيادة لمستزيد فجزاهم الله عن العلم والدين خيرا ورضى الله عنهم وارضاهم ، و وفقنا للاهتداء بهديهم وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، عليه توكلت واليه انيب

امين سعيد

مَصَادِرُ الكتابِ

الكتب التاريخية القديمة

البخارى
سيرة ابن هشام
السيرة الحلبية
تاريخ ابن جرير الطبرى
« ابن كثير
« الواقدى
« ابن خلدون

الكتب الاوربية

دائرة المعارف البريطانية
Encyclopidia Britanica
تاريخ التواريخ
Historian's History Of the World
حياة محمد لدرمنجم
La vie de Mahamet Par Dermenghem
الشاهنامة الفارسية للفردوسي ـ نشرها عبد الوهاب عزام

الكتب التاريخية الحديثة

تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى
أشهر مشاهير الاسلام لرفيق العظم
خالد بن الوليد لعمر رضا كحاله
حروب الردة لطه الهاشمى
مرآة الحرمين لابراهيم رفعت
الرحلة الحجازية للبيب البتانونى
قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة
تاريخ ملوك الحيرة لظريف الاعظمى
محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد رضا
موجز تاريخ المدن العراقية لعبد الرزاق الحسنى

نشأة الدولة الإسلامية

. القبيلة الأخرى ؛ وما كانت حالة سكان المدن تفضل ، من هذه الناحية ، حالة البداة فقد انقسموا الى افخاذ وقبائل ، تدير كل منها ناحية خاصة من مدينته ، وتحصن فيها وضم اليها أنصاره وحلفاءه

وحالة مكة حين ظهور الاسلام تؤيد ما نقوله فقد كان الأمويون من أبناء عبد شمس ، ينزلون البطحاء ، وهي الجزء المنبسط حول الكعبة ، وبقربهم الأغنياء من بني مخزوم . أما الهاشميون فكانوا ينزلون شعب بنى هاشم (شعب على بعدذلك) وكان فيه قبة أقيمت حول المكان الذى ولد فيه النبي محمد وقدهدمها الوهابيون حين دخولهم مكة فاتحين سنة ١٩٢٥ وينزل بنو نوفل وبنو أسد وبنو عبد الدار وبنو عدى وبنو تيم فى الأحياء الأخرى ، ولكل قبيل حي يحتضن أبناءه وحلفاءه اما الأخلاط [١] فكانوا ينزلون الأحياء البعيدة المنتشرة فى سفح الجبل ، ومثلهم « الأحلاف » أيضا فكانوا يقيمون بقربهم.

ولم تك هنالك صلات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية بين مكة والمدينة ، بل بين مكة والطائف ، فكل منها مستقل الاستقلال التام الناجز فى ادارة شؤونه الداخلية ، والخارجية ، والحربية ، يعتمد أبناؤه على سواعدهم فى الدفاع عنها اذا هاجمهم مهاجم أو أغار عليهم مغير .

ويمتاز المكيون عن جيرانهم من سكان المدينة والطائف بميزتين :

الاولى انهم انشأوا جيشا أهليا خاصا سموه « الأحابيش » كان رجاله مزيجا من عناصر ضاقت بها سبل العيش فى بلادها فلجأت الى مكة فجندتها قريش فى جيشها ، وقادة هذا الجيش من العرب[٢] ويشبه نظامه كثيرا نظام الفرق الأجنبية (Légions Etrangeres) فى الجيش الفرنسوى فجندها خليط من أمشاج شتى وضباطها

---

(١) يطلقون كلمة « الاخلاط » على اللاجئين الى مكة من غير العرب

أما الاحلاف فهم من ابناء القبائل الذين طردتهم قبائلهم أو فروا لجرائم اقترفوها واستجاروا بقريش فأجارتهم

(٢) كان قائد الأحابيش يوم « أحد » الحليس بن زيادة أحد بنى الحرث بن عبد مناة

من الفرنسويين ، و يوزعها الفرنسيون فى الممالك والأقطار ويعتمـدون عليها فى حروبهم الاستعمارية

وبديهى أن المكيين ما كانوا يجعلون كل اعتمادهم على « الأحابيش » بل كانوا يتنادون الى الحرب والكفاح عند الحاجة معتمدين على أنفسهم فى الدفاع عن مدينتهم ، يؤيد ذلك موقفهم يوم بدر و يوم أحد و يوم الخندق ، فقد اصطلوها بأنفسهم ولم يعولوا على الأحابيش ، وما كانت مهمتهم فى الغالب تزيد عن مهمة الشرط (البوليس) فى هذه الأيام ، أى حفظ الأمن الداخلى وتوطيد النظام فلا يعبث به عابث وغنى عن البيان أنه لولا اشتغال المكيين بالتجارة ، وكانت لمكة تجارة نامية فى ذلك العهـد ، وكان فيها تجار أذكياء نشيطون ، يحمـلون اليها المتاجر والسلع من الشام والعراق واليمن و يبيعونها فى المواسم ، مما أدى الى اثراء بعض بيوتاتها لما استطاعت أن تقوم بنفقات « الأحابيش » وما كانوا فى الغالب يقـلون عن مئات ؛ ولا تجـبى الضرائب عادة الا من الشعوب القادرة على دفعها ، ولولا التجارة وما كانت تدره على المكيين من أرباح لما استطاعوا دفع شيء ولكانت حالتهم لاتختلف عن حالة اهل المدينة والطائف

والميزة الثانية لمكة على بلاد الحجاز الأخرى هي أنه كان لها شبه «جمهورية » يسودها الأشراف وكبار ابناء الأسر العريقة فى المجـد ، ومع مايشوب نظام هـذه « الجمهورية » من شوائب فقـد كانت الدولة الوحيـدة للعرب فى الحجاز ، قبل الاسلام

وكان مبدأ توزيع السلطات (القوى) محترما فيها ، فقد اقتسمت عائلات مكة المناصب الكبرى بالتساوى، فاختص الهاشميون بالسقاية و بنو عبد الدار بالسدانة والحجابة واللواء والندوة ولبنى سهم جباية الاموال ولبنى عدى السفارة ولبنى مخزوم القبة ولبنى امية العقاب ولبنى تيم الديات ولبنى نوفل الرفادة

وكان « النظام الداخلى » لدار الندوة يقضى بعـدم قبول من لم يبلغ الأربعين فى عضويتها من غير قريش ، ويسمح لمن لم يبلغ هذا السن من القرشيين بدخولها

بشرط أن يكون امتاز بميزة ، وكانت تتألف عادة من الشيوخ الطاعنين فى السن ومن كبار التجار ، والشعراء

وكان ممثلو الأفخاذ من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقا لمقام افخاذهم ، وكانوا لايبرمون أمرا الا بعد بحثه وتمحيصه فى برلمانهم الأهلى (دار الندوة) وكانت قراراتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع

وكان لدار الندوة ــ وهى فى الأصل دار قصى ، جد الهاشميين والأمويين، ويقال انها أول دار بنتها قريش فى مكة ــ باب يتصل بالكعبة ، أى انها كانت بمثابة جزء متمم لها، وقد عفت آثارها الآن، وبحث كاتب هذه السطور خلال زيارتيه لمكة فى سنتى ١٩٢٨ و ١٩٣٠ عن مكانها فلم يوفق الى معرفة شيء عنها

وشهد صاحب الرسالة ﷺ بعض اجتماعات دار الندوة وهو صغير ، وكان يجلس فى حجر جده عبد المطلب ، وكانت اليه رئاستها . وتوفى هذا وهو صغير فكفله عمه ابو طالب . فلما بشر بالنبوة وقام يدعو بدعوته، وينشر رسالته ، ويعمل لاخراج قومه من الظلمات الى النور ، وهدايتهم الى السبيل الأقوم ، تألبت عليه قريش فمنعه منها ، وحماه من كيدها ، وكان له ردءا وعونا

٢

معنى الدعوة الإسلامية

الدعوة الاسلامية ، فى اصلها دعوة دينية خالصة ، غايتها ارشاد البشر الى الله ، واخراجهم من الظلمات الى النور ، ورسالة علوية سماوية . اختص الله بها نبيه ورسوله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكى القرشى ، ارسله الى الناس كافة ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ لانقاذهم من الهمجية والجهالة ، لا لتأسيس الدول وانشاء الممالك ، ولا للفتح والاستعمار

والباحث فى سيرة المبعوث الأعظم من بدء بعثته حتى يوم هجرته ، وبينهما ١٣ سنة ــ فقد بعث وسنه ٤٠ سنة وهاجر وسنه ٥٣ سنة ــ يتبين انها مرت فى أدوار شتى واجتازت مراحل متعددة ، فقد كانت فى ابتداء أمرها قاصرة على الوعظ والارشاد واكتساب الأنصار عن طريق الاقناع والموعظة الحسنة ، وقد آمن به فى الدور الاول ويصح أن يسمى «الدور البيتى أو المنزلى» زوجته السيدة خديجة ، وهى أول من آمن به من البشر واهتدى بهديه ، ثم تلاها على بن ابى طالب ربيبه وهو أول فتى دخل فى الاسلام ثم زيد بن حارثة عتيقه وهو أول رجل دخل فى الاسلام ثم أبو بكر الصديق وأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابى وقاص وطلحة بن عبيد الله . وانتقلت الدعوة من هذا الدور وكانت فيه ضيقة الدائرة محدودة النطاق ، وقد استمر ثلاث سنوات الى دور أعم وأوسع ونعنى به « دور الأهل والعشيرة » فقد أمره الوحى بأن يدعو عشيرته الأقربين فأرسل فدعا آل عبد المطلب الى مأدبة أدبها لهم فحضرها ٤٠ منهم خطبهم فى ختامها خطبة

مؤثرة استمالة لهـم ، فهزأ به بعضهم وسكت آخرون [١] وانتهت المأدبة من دون نجاح يذكر، فلم يضعف ذلك من همته ولم يحمله على التراجع والتباطؤ

وتلا هذا الدور دور ثالث هو «دور الجهر بالدعوة» فقد صعد ذات صباح، وذلك فى السنة السادسة من سنى الدعوة على الصفا (بجوار الكعبة) وقال بصوت جهورى :

« أصبح الصباح فهبوا يابنى فهر ، يابنى عـدى، يابنى مخزوم ، بالبطون قريش فأقبلوا عليه، فقال لهم أرأيتم لو أخبرتكم أن خيـلا بالوادى يكمنون لـكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا نعم، ماجربنا عليك كذبا.قال فانى نذير لـكم بين يدى عذاب شديد

« يابنى عبد المطلب، يابنى عبد مناف، يابنى زهرة حتى عدد الانفاذ من قريش : ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وانى لا أملك لـكم من الدنيا منفعة ولا من

صيبا الا أن تقولوا لاإله الا الله »

فقال له عمه أبو لهب « تبا لك سائر اليوم الهذا جمعتنا »

وقاومت قريش الدعوة الاسلامية وكافحتها ، فلم يعبأ بها ، ولم يحفل بمقاومتها ، وكان ينشر دعوته،فى كل ناد ، ويخرج للناس فى المواسم والأعياد ، يدعوهم «لدين التوحيـد والايمان بالله » ففشا أمره وذاع ذكره ، وكثر اتباعـه كثرة أخافت قريشا فآذته واضطهدت أصحابه فلم يزدهم ذلك الا ايمـانا وتمسكا بدينهم وعقيـدتهم فهاجر بعضـهم الى الحبشة فارين بدينهم وايمانهم وأقام ذوو العصبية منهـم فى مكة لهـم من عصبيتهم درع متين وحصن حصين

ويبتدىء الدور الرابع باسلام حمزة وعمر بن الخطاب فى السنة الثامنة للبعثة وهما من أبطال قريش وصناديدها فقد عز الاسلام بدخولهما فيه

---

(١) هـذا نص الخطبة « يابنى عبـد المطلب : ان الرائد لا يكذب أهـله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتـكم ، ولو غررت الناس جميعا ماغررتـكم . والله الذى لااله الا هو ، انى لرسول الله اليـكم خاصة والى النـاس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بمـا تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا انها لجنة أبدا ولنار أبدا

٧

وفى هـذه السنة صلى المسلمون للمرة الأولى فى الكعبة جهـرة وكانوا يقيمون صلاتهم من قبل فى الخفاء فأقلق ذلك قريشا وأزعجها ، وأخافها وأرهبها ، فضربت أخماسا فى أسداس ودرست الوسائل والسبل التى تتوصـل بها الى اضعاف شأن الاسلام والقضاء عليه بعـد ما عجزت عن استمالة صاحب الدعوة وقد بذلت له أنواع المغريات لصرفه عن الأمر الذى جاء به ، فلم يغن ذلك عنها شيئا .

المقاطعتان الاقتصادية والاجتماعية

والمقاطعتان الاجتماعية والاقتصادية هما آخر سلاح تسلحت به قريش فى نضالها وكانت تظن انهـا تبلغ به مناها وتتخلص من صاحبها ، وبيان ذلك ان صـناديدها وكبارها اجتمعوا فى دار الندوة وتعاهدوا على مقاطعة بنى هاشم وعدم معاملتهم والاتجار معهم ومصاهرتهم مالم يسلموهم محمدا ويكفوهم أمره ، ورأى بنو هاشم أن تخليهم عن رجلهم يلحق بهم سبـة وعارا ، وكان معظمهم لايزال على دين الجاهليـة فأحاطوا به وتحصنوا فى شعب بنى هاشم واعتزلوا قريشا واعتزلتهم لا يعاملونها ولا تعاملهم ولا يتصلون بها ولا تتصل بهم الا فى الأشهر الحرم فقد كانوا يخرجون فى خلالها الى مكة ويشتركون فى المواسم التى تقام ، ثم يعودون بعـدها الى معتصمهم فى الشعب وظلوا على ذلك سنتين وقيل ثلاثا فحير قريشا ثباتهم وصـبرهم وقوة عزيمتهم ، فأعادت النظر فى أمرهم وقررت بعد طول المناقشة والبحث ــ وقد اشترك فى الاجتماعات التى عقدت لدرس هذه القضية معظم صناديدها وأقطابها ــ الغاء « المقاطعة » ورفع « الحرمان » . فرجعوا الى منازلهم فى مكة وعادوا الى ما كانوا عليه من التعامل ، بيد أن هذا لم يحل دون اضطهاد المسلمين، والتشديد عليهم افرادا وجماعات، والتذرع بجميع الوسائل لحملهم على الردة ، ومنع انتشار الاسلام ونموه

التجاء النبي الى الطائف

وتوفى أبو طالب فى السنة العـاشرة للهجرة وكان حامى الرسول وكافله، وناصره ومعينه ، فازدادت قريش له جفاء فأخـذ يبحث عن ذى عصبية يحميه و يكف عنه أذى السفهاء فقصـد لذلك الطائف يوم ٢٧ شوال من السـنة العاشرة لابعثة للهجرة ومعه مولاه زيد بن حارثة ، لاجئا الى ثقيف

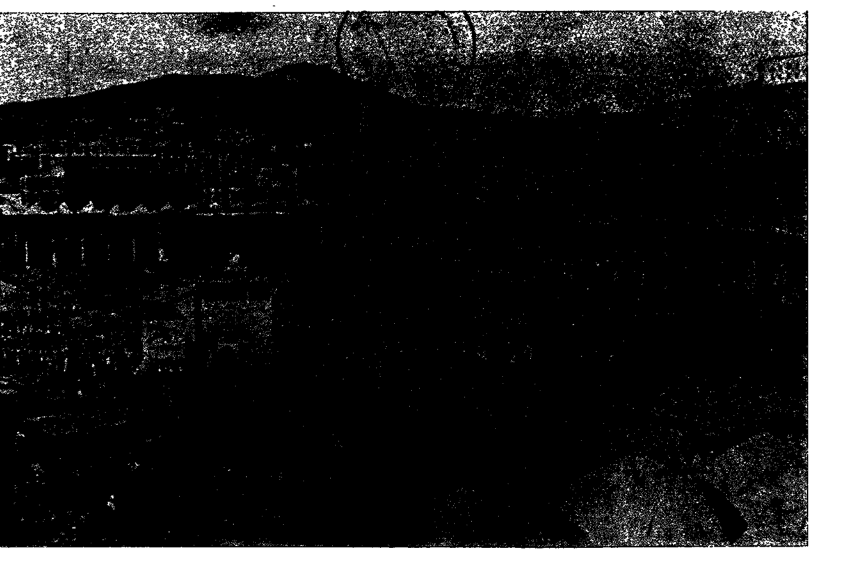
وقابل جماعة من أشرافهم فدعاهم الى الله فردوه وأغروا سفاءهم وعبيدهم به ، يسبونه و يصيحون عليه حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء دعا بالدعاء الآتى :

« اللهم اليك اشـكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس

« اللهم ياأرحم الراحمـين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تـكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أو الى عدو ملـكته أمرى؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولـكن عافيتك هى أوسع

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل بى سخطك، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك »

وقضى فى رحلته الى الطائف عشرة أيام ، ثم عاد ولم تقض حاجته ، ولم يجـد الذى يأوى الى كنفه ، ولما بلغ نخـلة (مكان بين مكة والطائف و يبعد عن الاولى نحو ٣٥ كيلو مترا وهو الى شرقها ولا يزال قائما) أقام فيها وأرسل الى المطعم بن عدى يسأله ان يجيره حتى يبلغ رسالات ربه ، فأجاره ، فدخل مكة فى حماه آمنا مطمئنا ؛ وفى بحثه عن حام له بعد وفاة عمه وزعيم أسرته فيـه ما فيه من الدلالة على عظم شأن العصبية عندهم ، وتأثيرها فى مجتمعهم الجاهلى . وقد كان لعصبيته القوية دخل كبير فى نجاح دعوته ، و بلوغ مابلغه



مكة المكرمة وفى داخلها الكعبة

حضوره فى المواسم

واستمر بعد رجوعه من الطائف فى نشر دعوته ، وكان يحضر المواسم ويجتمع بالقبائل ويعرض عليها نفسه ، ويدعوها الى الدخول فى دين الله ، فكان خبره يزداد شيوعا ، واسمه يزداد ذيوعا

اتصاله بالاوس والخزرج

واتصل فى موسم السنة العاشرة بنفر من الاوس والخزرج اليثربيين جاءوا من طيبة لزيارة الكعبة ، وكان عرب الحجاز يحجون اليها ، فدعاهم الى الاسلام فأسلموا [1] وانقلبوا الى قومهم فأخبروهم خبره ، ففشا الاسلام فى المدينة ، وجاء فى العام التالى اثنا عشر يثربيا : ١٠ من الاوس واثنان من الخزرج فاجتمعوا به عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الاولى [2]

وأرسل معهم حين منصرفهم الى المدينة مصعب بن عمير من أصحابه يقرؤهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، فانتشر الاسلام فى المدينة ، وراج سوقه ، وكثر أتباعه ومعتنقوه

وأقبل فى السنة الثالثة وفد كبير من اليثربيين بلغت عدته ٧٢ شخصا منهم ٧٠ رجلا وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة فواعدوا النبى سرا واجتمعوا به بعد منتصف الليل عند العقبة وهى على يسار القاصد

---

(١) هذه اسماء النفر وهم ستة : أبو امامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وعامر بن عبد حارثة ، وقطبة بن عامر ، وجابر عبد الله بن رباب

(٢) هذا نص صيغة البيعة : « نبايعك يارسول الله على ان لانشرك بالله شيئا ، ولانسرق ، ولا نزنى ، ولانقتل أولادنا ، ولانأتى ببرهان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك فى معروف »

من منى الى مكة ، فجاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، و بدأ العباس الكلام فقال لهم :

«يامعشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم فى عز ومنعة ، وانه قد أبى الا الانقطاع اليكم ، فان كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتموه اليه ومانعوه فأنتم وذلك وان كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة »

ثم تلا النبى بعض آى القرآن ورغب فى الاسلام وقال لهم انى أطلب منكم أن تمنعونى ماتمنعون عنه نساءكم وأبناءكم. وتكلم البراء بن معرور فأخذ بيده وقال : والذى بعثك بالحق لنمنعنك عما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحرب

وتكلم أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الاشهل فقال يارسول الله ان بيننا و بين الناس حبالا وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان أظهرك الله عز وجل أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول ﷺ وقال بل الدم الدم ، الهدم ، الهدم ، أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم

ثم اختار منهم ١٢ نقيبا يكونون على قومهم ٩ من الخزرج و ٣ من الاوس وهذه أسماؤهم :

سعد بن عبادة ، واسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن خيثمة. والمنذر ابن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ، والبراء بن معرور ، وأبو الهيثم بن التيهان ، واسيد ابن حضير وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك

وهذا نص صيغة بيعة العقبة الثانية

« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون عنه نساءكم وأولادكم »

٣

الاوس والخزرج

فى دخول الأوس والخزرج فى الاسلام ، و بيعة العقبة الثانية ، فاتحة تحول خطير الشأن فى سير الاسلام ولاغرو فقد لقى النبى بعد طول جهاده ونضاله ، مدة ثلاث عشرة سنة ، قبيلة عربية قوية متحضرة ، قبلت أن تنزله فى أرضها وتحميه وتدافع عنه كما تدافع عن نسائها وأبنائها ، وهما أثمن ما عند العرب ، وتبذل كل شىء فى سبيل تأييده ونصرته .

ولقد تبين مما قدمناه أن العلاقات بين النبى واليثر بيين سارت فى مجراها الطبيعى العادى، فكان فى المرحلة الأولى (السنة العاشرة) لقاء فى الموسم، فتعارف بينه و بين ستة منهم انتهى بدخولهم فى الاسلام وعودتهم الى مدينتهم ونشرهم الدين فى ربوعها ، ثم قدوم ١٢ منهم فى العام التالى واجتماعهم اليه ، وارساله معهم مصعب بن عمير ، يعلمهم القرآن ، و يفقههم فى دينهم ، وقد أنتج ارساله أفضل النتائج فقد كان لاخلاصه فى دينه ، وحبه لنبيه، وتفانيه فى نصرته ، تأثير كبير فى نفوس زعماء الأوس والخزرج فأسلموا على يده فارتفع شأن الاسلام بهم وفشا فى ديارهم ، و بدلا من الاثنى عشر الذين جاءوا فى السنة الثانية ، جاء منهم ٧٢ فى السنة الثالثة فاجتمعوا اليه سرا كما قدمنا وشهد اجتماعهم عمه العباس ، و بايعوه على غير ما بايعه اخوانهم فى السنة الماضية ، وما ذلك الا لأن الموقف فى مكة كان قد تبدل تبدلا أدرك النبى معه صعوبة الاقامة فيها فعول على الهجرة الى المدينة ، وكانت أخبار فشو الدين فيها تصله من مندوبه ، فيقيم بين أنصاره وأتباعه حيث يكون فى مأمن ومنعة

ففكرة الهجرة الى المدينة ، لم ترتجل ارتجالا ، وانما بعثت عليها الحوادث وفى

بمقدمتها شدة ضغط المكيين عليه وعلى أتباعه من الوجهة السلبية ، ودخول الأوس والخزرج فى الاسلام وهم سادة المدينة وأصحاب الرأى فيها من الوجهة الايجابية ، ومعنى ذلك انه أصبح فى مقدور المسلمين أن يلجأوا اليها فينزلوا عند اخوانهم و يقيموا معززين مكرمين ، يعبدون ربهم ، ويجاهرون بعقيدتهم ، من دون أن يخشوا اضطهادا وتعذيبا ولا يخفى أن بعضهم كان مهاجرا فى الحبشة عند النجاشى

ولما اختمرت هذه الفكرة فى رأسه ﷺ فاتح اليثربيين بها حينما جاءوه فى السنة الثالثة ، فقبلوها بدون تردد بعدما اشترطوا عليه أن لا يدعهم وشأنهم ، ويرحل عنهم اذا فتح الله له ، فقبل شرطهم ، وهكذا تمت البيعة وعين عليهم النقباء و بعد مانظمهم ورتب أمورهم عادوا الى مدينتهم وأخذوا يتأهبون للعمل العظيم ، الذى اعدوه لأنفسهم ، أو أعدته الأقدار لهم ، وعاد هو الى مكة آمنا مطمئنا لانه لقى بين قبائل العرب من ترضى بأن تبذل دمها فى سبيله وتحميه وتدافع عنه ، وقد كان ذلك فوزا عظيما له لايستهان به وخصوصا متى ذكرنا ما لقيه من اعراض قومه وجفائهم . وما لقيه فى رحلته الى الطائف من مقاومة شديدة واعراض جميع القبائل عنه خلال دعوته فى ثلاث عشرة سنة

أصل الاوس والخزرج

والأوس والخزرج قبيلتان مشهورتان فى شمالى الحجاز وأصلهما من قبائل قحطان التى هاجرت على أثر حادث سيل العرم المشهور وينزلون يثرب وهى على ٤٥٠ كيلو مترا من مكة الى الشمال ، و١٣٠٣ كيلو مترات من دمشق الى الجنوب ونحو ألف كيلو متر من بغداد شرقا وتعد عاصمة شمالى الحجاز

وأوس وخزرج اخوان والدهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء ابن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ووالدتهما قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاعة

وبطون الأوس تنتسب لمالك بن الاوس وولده :

خطة بن جشم بن مالك وثعلبة ولوذان وعوف وهم بنو عمرو بن عوف بن مالك ومن بنى عوف حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد ، ومن زيد عبيد وضبيعة وأمية ، ومن كلفة جحجبا. ومن مالك بن الاوس الحارث وكعب ابنا الخزرج ابن عمرو بن مالك

ومن كعب بنو ظفر ، ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم . ومن جشم بنو عبد الاشهل

ومن مالك بن الاوس بنو سعد و بنو عامر ابنا مرة بن مالك و بنو سعد الجعادرة ومن بنى عامر عطية وأمية و وائل بنو زيد بن قيس بن عامر . ومنه أيضا اسلم و واقف ابنا امرىء القيس بن مالك

وبطون الخزرج خمسة : كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث

فمن الأول : بنو ساعدة بن كعب

ومن الثانى : بنو النجار وهم تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة : بنو مالك ، وبنو عدى ، و بنو مازن ، و بنو دينار . ومن مالك مبدول واسمه عامر وغانم وعمرو، ومن هذا عدى ومعاوية

ومن الثالث : بنو سالم والقواقل وهما عوف بن عمرو بن عوف . والقواقل ثعلبة وصرخة بنو قوقل بن عوف . ومن سالم بن عوف بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم و بنو سالم بن عوف

ومن الرابع : بنو غضب بن جشم و يزيد بن جشم . ومن الأول بنو بياضة ، و بنو زريق و بنو عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، ومن يزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد

ومن الخامس : بنو خدرة و بنو حرام بن عوف بن الحارث بن الخزرج

عدد نفوس الاوس والخزرج

تلك هي بطون الاوس والخزرج ، وكانت تنزل في نفس المدينة وفي ضاحيتها وتعمل في الزراعة ولها نخيل وكروم وبيوت ومساكن أي انها مستقرة متحضرة ، بعكس بعض قبائل الحجاز الاخرى . اما عددها فالمرجح انه كان يتفاوت بين الفين وخمسمائة وثلاثة آلاف، يخرجون نحو ألف مقاتل وقد ابلوا أحسن بلاء في نصرة الاسلام ونشره وتأييده

٤

قريش تأتمر بالنبي وتقرر اغتياله

لم يخف على قريش ، وما كانت تجهل مابين النبي ﷺ والاوس والخزرج من صلات ، أمر العقبة الثانية والاتفاق الذى عقد فيها ، ولم يبق خبر انتشار الاسلام فى المدينة وفشوه بين طبقاتها سرا من الاسرار ، فمصعب بن عمير مندوب النبي ﷺ ينزلها و يعلم أبناءها الدين والقرآن و يصلى بهم ، و يعمل على ازالة مابينهم من ضغائن واحقاد.

وأدركت قريش ان صبرها على النبي كاد يوصلها الى النتيجة التى طالما تخوف منها بعض غلاتها ، وهى فشو أمره بين القبائل وانتشار صيته ،ونجاح قضيته ، فعزمت على القيام بأمر حاسم ، يحل مشكلته ، وينجز أمره ، وذلك باغتياله والتخلص منه ، فتدفن دعوته فى قبره ، وتلحد فى كفنه ، فيتناساها الناس وتدخل فى خبر كان

ولكن كيف السبيل الى اغتياله ؟ وما هى طرقه واساليبه ؟ وما يكون موقف بنى هاشم ، وهم ذوو عصبية ونجدة واولو بأس وقوة ازاء هذا الحادث ؟ وهلا يؤدى الاقدام عليه الى اضرام نار حرب اهلية فى بطن مكة لاتبقى ولا تذر فتصطدم القبائل بالقبائل وتقع الواقعة بين بنى الاعمام وهو مايحذره العقلاء ويعملون على اجتنابه واتقائه ! ودار بحث طويل بين دعاة هذه الفكرة وأنصارها حول تنفيذها ، ويقال انهم عقدوا اجتماعا سريا خاصا فى دار الندوة ، لم يدع اليه أحد من بنى هاشم ، وكانوا رغم بقاء أكثرهم على دين الجاهلية ، يؤيدون صاحبهم وينصرونه ، عملا بمبدأ العصبية ، واعتقادا منهم أن فى فوزه اعلاء لشأنهم ، وتعزيزا لمكانتهم ، وقد لانبالغ اذا قلنا ان النضال بين الهاشميين والامويين فى زمن البعثة كان محليا

أكثر منه دينيا ، فقد أدرك الامويون من الساعة الاولى لن فوز محمد ﷺ يؤدى الى انتزاع السيطرة منهم على الوادى ، ويرفع شأن الهاشميين ويرجح كفتهم، وكانوا دون الأمويين وجاهة وغنى وان كانوا اكثر منهم عددا

وقد جاء سير الحوادث فى النهاية مؤيدا لهذا الرأى فقضى فتح مكة بعد ذلك على كل ما كان للأمويين وحلفائهم من بنى مخزوم من نفوذ ومقام وصاروا تبعا لبنى هاشم ، ولم يرتفع رأسهم الا بعد خلافة عثمان الأموى ، أى بعد انقضاء نحو ربع قرن على فتح مكة .

واستقر قرار المؤتمرين على انتداب اثنى عشر شابا يمثلون بطون مكة وافخاذها يجتمعون فى ليلة معينة على باب داره ويرابطون حتى الصباح فيأخذونه بسيوفهم المسلولة حين خروجه فيضيع دمه بين القبائل فلا يعرف الهاشميون من يطالبونه به فيرضون بالدية لانه لاقبل لهم بمحاربة مكة طلبا بثأره

نعم : هـذا ماأجمع المؤرخون على أن رجال قريش اتفقوا عليه حينما عجزوا عن إخماد الحركة الاسلامية ، وعن اطفاء نورها ، وعن استمالة صاحبها ، وصرف الناس عنه ، وهى تدل على منتهى العجز والجبن ، ولم يخف عليه مايدبرونه له فى الخفاء وما يكيدونه له من مكائد ،ولعله عرف أيضا تاريخ الليلة التى استعدوا لتنفيذ خطتهم فى صبحها ، فغادر منزله متنكرا ، الى منزل أبى بكر ، ولكى يربح الوقت الكافى للتغيب أوعز الى ابن عمه وربيبه على بن ابى طالب بأن ينام فى فراشه ، ويتدثر بدثاره الأخضر ، تضليلا للمؤتمرين وصرفا لهم عن مطاردته واللحاق به ، فلا يأخذون عليه الطرق والسارب قبل أن يبلغ مأمنا يأمن به

وجاز عليهم الأمر حينما بصروا بعلى وهو نائم فى مكانه ، فقضوا الليل فى انتظاره ، ولما طلع النهار وخرج عليهم أسقط فى أيديهم ، وعرفوا أنهم خسروا الصفقة وأضاعوا الوقت ، فلم يثبط ذلك من عزائمهم فأرسلوا من يطلبه ويبحث عنه وأذاعوا فى القبائل أنهم يدفعون جعلا كبيرا لمن يأتيهم به ، وكان قد احتاط لمثل هذا

الأمر فلجأ الى غار ثور فأقام ثلاثة أيام بلياليها . ولما هدأت الضجة وعرف أنهم كفوا عن مطاردته غادر الغار الى يثرب ومعه صاحبه أبو بكر الصديق وقد لجأ الى بيته فى الليلة التى ائتمر به المشركون فيها ، ثم لجأ معه الى الغار ، وقصدا المدينة يوم الخميس أول شهر ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة للبعثة (٢٨ يونيو سنة ٦٢٢ م) فدخلها بين مظاهر الحفاوة والتكريم

٥

الهجرة

عكف النبي ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية على تنظيم الحركة تنظيما جديدا ، فأصدر أوامر سرية الى أصحابه بأن يلحقوا بالمدينة وبأن يتكتموا فى خروجهم فقصدوها تحت اشرافه وملاحظته جماعات ووحدانا ، وكان أول من بلغها فى هذا الدور ابو سلمة بن عبد الاسد وعامر بن ربيعة وعبدالله بن جحش ، ثم تتابع وصول المهاجرين من بعدهم حتى لم يبق بمكة حينما غادرها فى شهر ربيع الاول ــ أى بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوما ــ سوى ابى بكر وقد جاء معه ، وعلى بن أبى طالب وقد لحق به ومعه الفواطم وام أيمن وولدها وبعض ضعفاء المؤمنين . ومعنى ذلك أن عملية الهجرة استغرقت شهرين وبضعة أيام ، لم يتخلف عنها احد من اصحاب الايمان

ولم نقف فى كتب السير المختلفة على احصاء دقيق لعدد المهاجرين الذين غادروا مكة الى المدينة فى تلك الفترة ، ويلوح لنا أن عددهم ماكان يزيد على المئة يؤيد ذلك ماروى فى الأسانيد الصحيحة وهو أن الجمعة ادركته فى بنى سالم بن عوف ، فى طريقه من قبا الى المدينة فصلاها فى المسجد الذى ببطن الوادى بمن معه من المسلمين وهى أول جمعة صلاها بالمدينة وكان معه مئة من أصحابه ، ولا بد أن يكون بينهم عدد غير قليل من الأنصار الذين جاءوا لاستقباله وصحبوه فى سيره الى المدينة

وفضلا عن ذلك فان ابن هشام لم يورد أسماء أكثر من ٦٠ صحابيا قال انهم هاجروا الى المدينة حينما صدر اليهم الأمر بالهجرة ، وكذلك فان عدد الذين آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار من المهاجرين لم يزد على خمسة وعشرين صحابيا

واذا أضفنا الى هذا العدد ، عدد المهاجرين المكيين الذين كانوا فى الحبشة — وكان عددهم يوم هجرتهم ١٠١ مهاجرا منهم ٨٣ رجلا و ١١ امرأة قريشية و ٧ غير قريشيات ، وقد مات بعضهم فى الحبشة وتخلف آخرون فى مكة ، ولم يصل منهم الى المدينة بعد استقرار المسلمين فيها سوى ٤١ منهم ٣٣ رجلا و ٨ من النساء — عرفنا أن مجموع عدد المهاجرين الاول ما كان يزيد عن مئة وخمسين بين نساء ورجال وأطفال وشيوخ ويقال فى رواية أخرى انهم كانوا أكثر من ذلك وقد انضم هؤلاء الى الاوس والخزرج « الأنصار » ومن هؤلاء وهؤلاء تألفت نواة الأمة الاسلامية ، وبفضل اخلاصهم وتضحياتهم فاز الاسلام وانتشر الدين وعلت كلمة الله

٦
فى طريق المدينة

يلوح لنا أن مؤامرة قريش ، لم تزد على أن عجلت فى سفر النبى ﷺ من مكة الى المدينة ، وقدمت موعده ، فجميع الدلائل تدل على انه كان معتزما الهجرة الى يثرب مقررا لها

ولا ريب ان فى هجرة جميع من كان فى مكة من المسلمين الى المدينة، فى خلال الفترة الممتدة بين النصف الثانى من شهر ذى الحجة وبين النصف الثانى من شهر صفر ، على أثر العقبة الثانية ـ وقدقصدوا المدينة بأمره وسافروا تحت اشرافه ـ مايثبت اعتزامه اللحاق بهم ليكون على رأسهم . هذا فضلا عن انه لم يكن فى مكة يوم خروجه منهم سوى ابى بكر الصديق وكان قد أعد معدات الرحلة ، وأقام ينتظر الرسول ليكون فى صحبته . وقد سافرا فعلا بعد ذلك ، وعلى بن أبى طالب وقد لحق به على الأثر ، يضاف الى هذا أنه عاهد اليثربيين فى منى على ان يلحق بهم وينزل بينهم ، وأن يحموه ويدافعوا عنه

وعجل فى الرحيل حينما عرف أن القوم يأتمرون به ، وينوون اغتياله ، فقصد منزل أبى بكر متخفيا وفى غير الميعاد الذى اعتاد أن يزوره فيه ، فأيقظه من نومه ، وأبلغه أنه أذن له بالهجرة ، فقصدا غار ثور فلجآ اليه ، وكان ذلك مساء يوم الخميس أول ربيع الأول كما رواه المحققون وهو اليوم الذى اعتزمت فيه قريش تنفيذ مؤامرتها . ولولا ذلك لما اضطر الى التخفى وزيارة ابى بكر فى غير موعد الزيارة وطلبه اليه أن يخلى منزله ثم التجائهما الى الغار ، وتكليفه على بن ابى طالب أن يرد الامانات الى أهلها

رواية البخارى لحديث الهجرة

ونحن نثبت هنا رواية صحيح البخارى منقولة عن السيدة عائشة بنت ابى بكر الصديق وهى تؤيد ما قلناه واستنتجناه قالت :

« فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة[١] قال قائل لأبى بكر هـذا رسول الله جاء متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ماجاءبه فى هـذه الساعة الا أمر . قالت عائشة : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال لأبى بكر أخرج من عندك (مما يدل على شدة الحذر) فقال أبو بكر انماهم أهلك

« قال فقـد أذن لى فى الخروج (الهجرة) قال أبو بكر الصحبة بأبى أنت يارسول‌الله . قال نعم . قال فخذ احدى راحلتى هاتين . قال بالثمن

«قالت عائشة وجهزناهما أحث جهاز (أى أسرعه) وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت اسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فم الجراب فسميت ذات النطاقين . ثم لحق رسول الله وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال

الطريق الذى سلكاه

وغادر الرسول ﷺ وصديقه الغار حينما شعرا أن الضجة التى قامت حول تغيبهما سكنت وانه لاخوف عليهما ولا خطر ، وصحبهما دليل ماهر هو عبد الله بن اريقط من بنى الديل ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر (أى خادمه أو تابعه)

---

(١) أى ابان اشتدادها وكان ذلك فى أواخر شهر يونيو . ومكة تـكون شديدة الحرارة فى مثل هذا الشهر وخصوصا عند الظهيرة ولا تقل درجة الحرارة فيها عن الأربعين فى ميزان سنتغراد

وسلك الدليل بالركب طريق الساحل (ساحل البحر الأحمر) وبين مكة والدينة أربع طرق يسلكها المسافرون وهى :

١ ــ الطريق السلطانى

٢ ــ الطريق الفرعى

٣ ــ الغاير

٤ ــ الشرقى

والمسافة بين المدينتين نحو ٤٥٠ كيلو مترا فى الطريق السلطانى على انها فى طريق الغاير أقصر ، ويسمونه الطريق المدنى لان أهل المدينة يستسهلونه فى حججهم لقربه فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسيرون فيه قوافل قوافل ، ولهم منازل ينزلون فيها

ويلوح لنا أن الدليل اتجه بهم الى عسفان وهى على مرحلتين من مكة ثم قصد القضيمة فرابغ ومنها اتجه الى المدينة رأسا فوصل يوم الاثنين ١٢ ربيع الاول الى قبا (وهى قرية خصبة بها حدائق على خمسة كيلو مترات من جنوبى المدينة الغربى) فنزل ضيفا على كلثوم بن الهرم شيخ بنى عمرو بن عوف (الاوس) وكان قد أسلم قبل وصوله وأقام عنده أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس

أول مسجد فى الاسلام

وفى قبا أسس مسجدها المعروف وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الاول فى القرن الثانى عشر للهجرة ، وفى وسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته ﷺ ولا يزال قائما تؤدى فيه الصلاة وهو الذى أسس على التقوى من أول يوم

اول جمعة فى الاسلام

وغادر النبى ﷺ قبا ضحى يوم الجمعة ١٦ ربيع الاول الى المدينة فأدركته صلاتها فى بنى سالم بن عوف (آبار على فى الوقت الحاضر) فصلى بالذين كانوا معه

وهى أول جمعة صلاها فى المدينة وخطب الخطبة الآتية فسن بذلك خطبة الجمعة قال:

« الحمد لله أحمده واستعينه ، واستغفره واستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لاإله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل ،وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمن ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل

« ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، وفرط وضل ضلالا بعيدا

« أوصيكم بتقوى الله فانه خير ماأوصى به المسلم المسلم، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ماحذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وان تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ماتبغون من أمر الآخرة

« ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لاينوى بذلك الا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ماقدم وما كان من سوى ذلك يود لوأن بينه وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد

«ولقد صدق قوله، وأنجز وعده ، لاخلف لذلك فانه يقول عز وجل﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية فان من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وان تقوى الله يوقى مقته ويوقى سخطه . وان تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة

« خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين

« فاحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا فى الله حق جهاده

هو اجتباكم وسماكم المسلمين ؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة ولا قوة الا بالله

« فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ؛ فانه من يصلح بينه و بين الله يكفه الله مابينه و بين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، و يملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة الا بالله العظيم »

دخول المدينة

واستأنف السير الى المدينــة فدخلها بعد الظهر دخول الفاتح الظافر واستقبله أهلها استقبالا لاعهد له بمثله فمشى رجالها بين يديه وقد تقلدوا السيوف وهزوا الرماح وأنشدت فتياتها نشيد الاستقبال المشهور :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

و واصل الموكب سيره فى داخل المدينة ، وكان لايمر بدار من دور الأنصار الا قالوا له هلم يارسول الله الى العدد والعدة والمنعة و يعترضون ناقته ، فيقول خلوا سبيلها فانها مأمورة ، حتى بلغت موضع مسجده الحالى ، فبركت فنزل عنها واشترى المكان و بنى مسجده واستقر فيه



مسجد قبا (اول مسجد اسس فى الاسلام)

٧

بيان الدولة الجديدة

تبدل موقف النبي ﷺ بعد وصوله الى المدينة تبدلا ظاهرا وتغيرت حالته تغيرا مشهودا ، فبعد أن كان فى مكة خائفا مضطهدا لا يجسر على الظهور فى المجتمعات العامة ولا يستطيع التجول فى الأسواق ، بله الصلاة فى الكعبة من دون أن يستهدف لاعتداء ، أصبح هنا مطاع الكلمة ، مهاب الجانب ، كما أصبح الرئيس والزعيم الطبيعى لأصحابه وأنصاره سواء منهم الذين جاءوه من مكة وقد ضحوا كل شىء فى سبيله ، وسواء منهم أبناء المدينة وقد اعتزوا بنزوله بينهم ، و بايعوه على السمع والطاعة واسلسوا له القياد والعنان

وعكف فى خلال الأسابيع الاولى على درس الحالة العامة وعلى التعرف الى الأشخاص والجماعات توطئة للعمل الذى لابد من عمله فى المرحلة الجديدة ، فحال المسلمين هنا غير حالهم هناك ، وموقفهم فى المدينة غير موقفهم فى مكة

وأول ماشرع فيه بعد نزوله المدينة انشاؤه مسجده ، فقد ابتاع أرضا لسهل وسهيل وهما غلامان من بنى النجار ثم باشر البناء

وكان ينقل الطوب (اللبن) على عاتقه . وكان طول المسجد مئة ذراع وجعل قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخرته وهو فى جهة القبلة الى اليوم ، وباب عاتكة و يسمى اليوم باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه وهو باب آل عثمان اليوم

وكان سقف المسجد جريدا وعمده من خشب النخل ، وكانوا يوقدون القش عند صلاة الصبح والعشاء والمغرب فى أول الأمر ثم أسرجوا المصابيح

وأنشأ الى جانب المسجد غرفا خاصة لسكناه وسكنى أهل بيته ، وجعل بينه

و بين المسجد بابا (باب آل عثمان اليوم) وكان يدخل و يخرج منه

واتخذ المسجد مقرا له ، ومركزا لأعماله فكان يصلى فيه و يستقبل الزوار ، و يفصل فى الشؤون ، كما كان المسجد ناديا عاما للمسلمين يجتمعون فيه ، و يقضون فيه معظم أوقاتهم ، و يؤدون صلواتهم ، ولايفارقونه إلا لضرورة ، و بالاجمال فقد كان موئلا لهم ومثابة

و بعد ماتم بناء المسجد واستقر فيه ، وارتاح باله من جهة السكن ومن جهة قريش ، بدأ عمله السياسى فى المدينة بكتابة الصحيفة الآتية فكانت فى نظرنا أول عمل سياسي للدولة الجديدة ، وقد انشئت يوم نزوله المدينة ، وتوليه قيادة أصحابه وزعامتهم من الوجهة العملية ، وان لم تنشأ من الوجهة النظرية

وهذا نص الصحيفة او البيان :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش و يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس

المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

---

(١) الربعة والرباعة الحالة التى جاء الاسلام وهم عليها

و بنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

وان المؤمنين لايتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وان سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم ، وان كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضا وان المؤمنين يبىء (يمنع و يكف) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وانه من اغتبط مؤمنا (١) قتلا عن بينة فانه قود به الى أن يرضى ولى المقتول وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه . وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وانه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد

---

(١) قتله من غير شىء يوجب قتله

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنـين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لايوتغ(١) الا نفسه وأهل بيته، وان ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحرث مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود بنى ساعدة ، مثـل ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الاوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثـل ماليهود بنى عوف الا من ظـلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته

وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وان لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف وان البر دون الاثم ، وان موالى ثعلبة كانفسهم وان بطانة يهود كانفسهم وانه لايخرج منهم أحد الا باذن محمد وانه لاينحجز على ثار جرح وانه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم وان الله على أبر هذا

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهـم ، وان بينهـم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم وانه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة

وان الجار كالنفس غيرمضار ولا آثم وانه لاتجار حرمة الا باذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله

وان الله على أتقى مافى هـذه الصحيفة وأبره وانه لاتجار قريش ولامن نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم

---

(١) لايهلك

وان ليهود الاوس مواليهم وانفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من اهل هذه الصحيفة وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه وان الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم وان من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله »

هذا هو نص الصحيفة كما نقلها الينا المؤرخون وهى تنطوى على كثير من المبادىء والقواعد الجديدة والتعابير والاصطلاحات التى لم تكن معروفة بين المسلمين من قبل فقد وصفت المسلمين بأنهم :

١ ـ أمة واحدة من دون الناس

٢ ـ اقرت المهاجرين على حالهم كما أقرت الأنصار على حالهم وأراضيهم فلا تبديل ولا تغيير

٣ ـ نظمت العلاقات بين المسلمين أنفسهم وحددتها وقالت انهم متضامنون متكافلون « لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله »

٤ ـ قررت أن يكون مرد كل أمر يختلف فيه الى الرسول ليفصل فيه باعتباره صاحب السلطة العليا

٥ ـ حددت العلاقات بين البطون اليهودية و بطون العرب النازلة بينهم وقالت ان اليهود ينفقون مع المؤمنين واعترفت بأنهم أمة لهم دينهم وللمسلمين دينهم ، كما أنشأت بينهم مودة وتحالفا

٦ ـ نصت على اشتراك المسلمين واليهود فى الدفاع عن يثرب اذا هاجمها مهاجم وعلى أن لاينفرد فريق من الفريقين بعقد صلح اذا دعى اليه

٧ ـ جعلت المدينة دار أمان للفريقين فمن خرج منها فهو آمن ومن قعد فيها فهو آمن الا من ظلم وأثم

تلك هى بعض المبادىء التى انطوت عليها « الصحيفة » وهى تشبه من وجوه كثيرة البيانات Proclamations التى يصدرها القواد العسكريون بعد الفتح ، أو

برامج الحكومات Déclaration حين تأليفها فهو يحتفظ بـ « الستاتوكو » أى الحالة التى كانت قائمة فى المدينة من دون أن يدخل عليها أى تغيير أو تبديل و ينظم العلاقات بين المسلمين أنفسهم فينشىء بينهم تعاونا وثيقا واخاء وطيدا كما ينظم العلاقات بينهم و بين جيرانهم اليهود و ينشىء بينهم حلفا و يقضى باشتراكهم فى الدفاع عن المدينة اذا هاجمها مهاجم و بان تكون دار أمن لهما و يضع أحكاما تشريعية أخرى تتعلق بالنظام الاجتماعى الجديد وهو من مميزات الاسلام

اتحاد الاوس والخزرج

وقد كان من النتائج العاجلة لنزوله المدينة تآخى الاوس والخزرج من أبنائها وتناسيهم ما كان بينهم من عداوة وأحقاد فأصبحوا اخوانا على سرر متقابلين ، يتنافسون فى اكتساب مرضاة سيد المرسلين، و يعملون باخلاص مع اخوانهم المهاجرين من قريش على رفعة شأن الدين. ولا يخفى أن العداوة اشتدت قبل الهجرة بين هاتين القبيلتين حتى كادا يفنيان فأزال الاسلام ذلك كله وقضى عليه

الاخاء بين المهاجرين والانصار

وكذلك آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك بعد وصوله الى المدينة بخمسة أشهر لتذهب عنهم وحشة الغربة ، وليؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة و يشد بعضهم أزر بعض ، وكانوا يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام (وقد بطل ذلك بعد معركة بدر) ، وكانت المؤاخاة على الحق والمؤاساة فزادت علاقاتهما قوة واحكاما من جهة كما وطدت صلات الاخوة والمودة بين الاوس والخزرج من جهة أخرى ، وهكذا توحدت القوى الثلاث واندمج بعضها فى بعض وانصهرت فى بوتقة الاسلام فصارت كتلة قوية متماسكة تشعر بشعور واحد ،وتعمل لغاية واحدة ، وترمى الى مقصد واحد وهو نشر كلمة التوحيد واعلاء شأن الدين

٨

اليهود فى شمالى الحجاز

ما كاد النبى ﷺ يستقر فى المدينة ، ويدرس حالتها عن كثب حتى أدرك أنه أمام قوة يهودية كبيرة ، لاتقل عن قوة قريش عدوته فى مكة

ولا يخفى ان اليهود كانوا إبان البعثة النبوية قوة كبيرة فى شمالى الحجاز تعادل قوة قريش فى جنوبيه ومعنى ذلك أن الحجاز كان مقسوما بينهما قسمة طبيعية ، فنفوذ قريش يشمل جنوبى الحجاز من المدينة حتى الطائف ، ونفوذ اليهود يشمل شماليه ، وكان يمتد من المدينة حتى تيماء وهى واقعة فى أقصى حدود الحجاز الشمالية أى حتى حدود سورية فى مسافة لاتقل عن ٤٥٠ كيلو مترا تقريبا ، ولولا الزعامة الدينية التى كانت تتمتع قريش بها بين العرب وما كان لها من مقام أدبى ودينى فى نظرهم لحراستها البيت الذى يقدسونه ويحجون اليه ، وقيامها على خدمته وسدانته لقلنا ان نفوذ اليهود كان أكبر لانهم أكثر ثروة وغنى وأوفر سلاحا ولان بلدانهم كانت حصينة ، وكانوا يسيطرون سيطرة فعلية على اقتصاديات شمالى الحجاز ، وكانت زراعته أيضا فى أيديهم ، وما كان الاوس والخزرج فى المدينة سوى أجراء لهم ، يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالاجرة

وكان اليهود فى شمالى الحجاز ينزلون المناطق الآتية :

١ — منطقة المدينة

وقد كان يهود بنى قينقاع يقيمون فى داخلها ، وكانت قبائل بنى عوف وبنى النجار وبقية البطون التى وردت اسماؤها فى الصحيفة ، تقيم حولها بين قبائل الاوس

والخزرج وتنزل فى نفس المناطق الزراعية التى كانت تعنى بها ، ولولا ذلك لما خصهم بالذكر

بنو قريظة وكانو ينزلون فى ضاحيتها من جهة الجنوب الشرقى فى مهزورا
بنو النضير » » » » » الغرب فى بطحان

٢ — منطقة خيبر

وكانت خيبر أعظم مراكز اليهودية فى الشمال بعد المدينة وهى فى مركز متوسط تقريبا بين المدينة وتيماء وكان يهودها أشدهم قوة وأكثرهم ثراء، وهى فى شمالى المدينة أيضا وتبعد عنها نحو ١٥٠ كيلو مترا وفى هذه المنطقة أيضا وادى القرى ، وكان واحة كبيرة لليهود فى الشمال أيضا

وفيها أيضا فدك وهى منتصف الطريق بين خيبر وتيماء

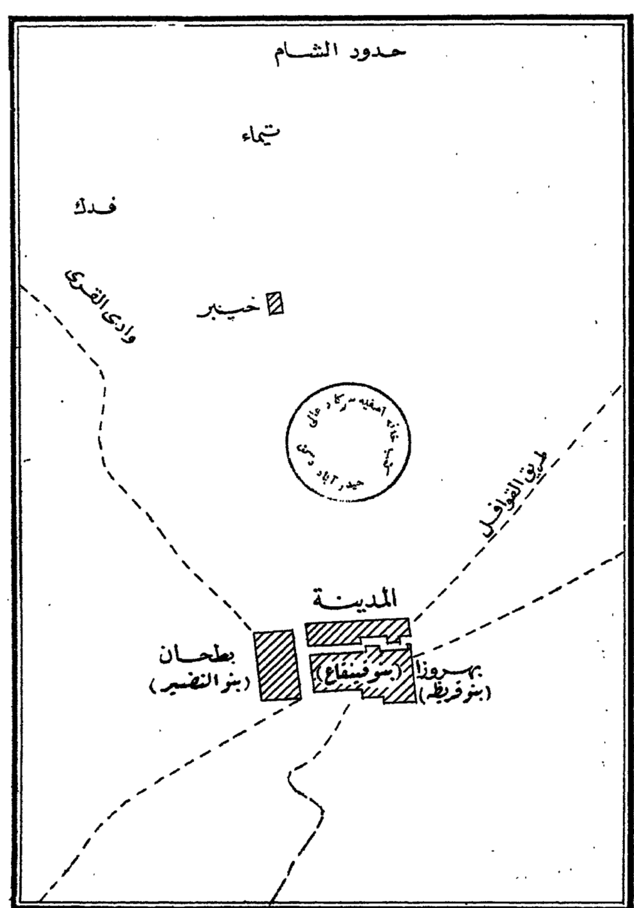
٣ — منطقة تيماء

وهى كما قلنا فى أقصى حدود الحجاز الشمالية وعلى الحدود السورية وهى أقلها شأنا .

تلك هى المناطق التى كان ينزلها اليهود فى شمالى الحجاز، ومع اننا لا نملك احصاء حقيقيا لعدد نفوسهم ، الا ان الذى نرجحه اعتمادا على أخبارهم المنثورة فى بطون التواريخ العربية انهم كانوا يبلغون نحو عشرة آلاف نسمة هذا بيانهم

البطون النازلة بين الأوس والخزرج حول المدينة	٦٠٠
بنو قينقاع	١٤٠٠
بنو النضير	١٥٠٠
بنو قريظة	١٥٠٠
خيبر	٣٠٠٠

مراكز اليهود في بلاد الحجاز



وادى القرى	٥٠٠
فدك	٥٠٠
تيماء	٥٠٠

ولقد اعتمدنا فى وضع هـذا الرقم التقديرى على ما استنتجناه من معلومات مبعثرة جمعناها من بطون الكتب العربية

قدرنا البطون النازلة بين الاوس والخزرج بـ٦٠٠ شخص باعتبار أن عدد كل بطن من بطون اليهود التسع وهى بنو عوف و بنو النجار و بنو الحرث و بنو ساعدة وجشم والأوس وثعلبة وجفنة والشطنة وقد ورد اسمها فى الصحيفة (انظر ص ٢٨) سبعين شخصا بين ذكور واناث وأطفال وشيوخ وهو أقل رقم يوضع

وقدرنا عدد بنى قينقاع بألف وأربعمائة اعتمادا على رواية المؤرخين الاسلاميين فقد ذكروا أن عدد الذين أطلق سراحهم من رجالهم بتوسط عبد الله بن أبى ٤٠٠ حاسر و ٣٠٠ دراع أى ٧٠٠ محارب فاذا أضفنا اليهم مثل هذا العدد من النساء والاطفال ولايقلون عن ٧٠٠ بلغ المجموع ١٤٠٠ وهو الرقم الذى وضعناه

واستندنا فى تقدير بنى النضير على ما رواه المؤرخون الاسلاميون وهو انهم حملوا أمتعتهم على ٦٠٠ جمل . فلو فرضنا أن كل عائلة منهم حملت أمتعتها على جملين لكان عدد عائلاتهم ٣٠٠ ولو فرضنا أن عدد كل عائلة خمسة أشخاص وهو تقدير متوسط لبلغ المجموع ١٥٠٠

واستندنا فى تقدير بنى قريظة على ماذكره المؤرخون من عدد الذين قتلوا منهم فى المدينة بعد استسلامهم وحكم سعد عليهم فقد قدرهم بعضهم بستمائة و رفعهم آخرون الى ٧٠٠ وزادهم غيرهم الى تسعمائة فأخذنا العدد الوسط وهو ٧٥٠ وأضفنا اليه مثله وهو عدد النساء والأطفال فبلغ المجموع ١٥٠٠ وهو الرقم الذى وضعناه

واستندنا فى تقدير خيبر على الاعتبارات الآتية :

١ ـ ما كان معروفا عن كثرة عدد أهلها و وفرة ثروتهم واتساع نطاق نفوذهم ولا يتسع لضعيف نفوذ

٢ ـ تعدد حصونهم وكثرتها فقد كان لهم سبعة حصون هى : ناعم والقموص والشق والنطاة والسلام والوطيح والكتيبة . ولم يكن لبنى قينقاع سوى حصن واحد ومثلهم قريظة والنضير

٣ ـ كثرة عدد الجيش الاسلامى الذى زحف لقتالهم فقد أجمع الرواة على أنه بلغ ١٨٠٠ مقاتل مع أن القوى التى زحفت على حصون اليهود الأخرى ما كانت تبلغ ربع هذا العدد

٤ ـ تجمع ٥٠٠ مقاتل منهم فى حصن واحد هو حصن القموص دع القوى التى كانت فى الحصون الأخرى

٥ ـ ثباتهم فى قتال المسلمين الذين امتازوا بالشجاعة والبطولة وامتداد القتال مدة ٢٠ يوما

ويلوح لنا أن تقدير سكان خيبر بثلاثة آلاف هو أقل مايمكن بعد البيانات التى أوردناها باعتبار أن عدد رجالهم الذين نازلوا المسلمين ١٥٠٠ وهو أقل مايخطر بالبال ولا يدخل فى ذلك النساء والذرارى

وقدرنا عدد سكان وادى القرى بخمسمائة وهو فى نظرنا أقل من الواقع لأنه كان يتألف من قرى عامرة . ولا نظن أن عدد سكان القرية الواحدة يقل عن المائة .

وتقيدنا بمثل هذا الاعتبار فى وضع رقم سكان فدك وتيماء. وبالاجمال فقد وضعنا الحد الادنى وان كنا نرجح بعد الذى أوردناه ان عددهم كان بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا

كيف وصل اليهود الى الحجاز

وبين الباحثين خلاف فى كيفية وصول اليهود الى شمال الحجاز والمرجح انهم قدموا من فلسطين ، بطريق البلقاء ومعان أو وادى موسى هربا من ظلم الروم وبطشهم فقد مزقوهم شر ممزق سنة ٦٤ ميلادية. واجلوهم عن فلسطين فقصد هذه الديار بعض قبائلهم وعكفت على الزراعة والتجارة فأثرت ونمت واكتسبت نفوذا عظيما ، لم يلبث أن اصطدم به الاسلام ووقف ازاءه وجها لوجه

٩

بين المسلمين واليهود

حرص النبي فى الأشهر الأولى لوصوله الى المدينة ، على التقرب من اليهود ، وسعي لانشاء علاقات ود معهم ، و وصل حبله بحبلهم ، لأنه لم يكن من مصلحته بوجه من الوجوه أن يخوض فى نزاع معهم ، وهم على ماوصفناه من القوة والمنعة ، وقريش لاتزال وراء المسلمين تطاردهم، وتعمل للقضاء عليهم ، ومعنى ذلك انهم كانوافى ابتداء نزولهم المدينة ، بين قوتين قويتين :

١ ــ قوة الجنوب وقد آذنتهم بعداء شديد واضطرتهم لمغادرة أوطانهم، والجلاء عن ديارهم ، ولا تزال تترقب الفرص للفتك بهم ومحو أثرهم

٢ ــ قوة الشمال ، ولا يزال موقفها منهم مبهما ، ولا يزال مايضمره رجالها لهم فى عالم الغيب

وكان أول مافعله النبي ﷺ بعد استقراره فى المدينة كتابته الصحيفة التى كتب ، وقد حدد فيها العلاقات بين المسلمين واليهود تحديدا صريحا فاعترف بهم «أمة مستقلة» وقال ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم ، كما نص على اشتراكهم فى الدفاع عن المدينة اذا هاجمها مهاجم ، وعلى عدم عقد صلح منفرد ، واذا اضطروا الى عقده فيكون ذلك بالاتفاق ، والقصد من ذلك ايجاد صلة وشيجة بين الفريقين فيتعاونون على صيانة مدينتهم والدفاع عنها ، والحيلولة دون تسرب الشقاق اليها .

ومن تحصيل الحاصل القول ان مصلحة المسلمين فى ذلك الدور كانت تقضى عليهم بانشاء علاقات ود وثيقة مع جيرانهم الجدد ، فلايفتحون ميدان نضال فى موطنهم الجديد ، وهم لم يلجأوا اليه الا تخلصا من أهل مكة وأملا بأن يجدوا فى دارهجرتهم أمنا وسلاما ، فيؤدوا فرائضهم الدينية بحرية وأمان و يعيشوا مع جيرانهم فى صفو وسلام

ولم تحقق الحوادث أمنيتهم ، ولم تنلهم الأيام بغيتهم ، فانهم مالبثوا ان وجدوا أنفسهم أمام حملة شديدة يحملها عليهم اليهود سداها الطعن فى دينهم ، ولحمتها تسفيه عقائدهم

ولم يقف اليهود عند هذا الحد بل كان بعض رجالهم يأتى الى النبى ﷺ و يسأله أسئلة يبغى منها اظهاره بمظهر العاجز الضعيف كما كانوا يحاولون القاء الشقاق بين المهاجرين والأنصار من جهة و بين الاوس والخزرج من جهة أخرى، وقد كادوا يصيبون نجاحا من هذه الناحية لولا توسط النبى ﷺ بالذات ، فقد خرج يوما الى الفريقين وكانوا على وشك الاقتتال ــ فيمن كان معه من الصحابة ــ وقال لهم :

« يا معشر المسلمين الله . الله . اتقوا الله . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعدأن هداكم الله الى الاسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » فكف الفريقان على الفور ، وعرفوا انها من كيد اليهود فبكوا وعانق الرجال الرجال ثم انصرفوا معه . وقد نزلت فى هذه الحادثة آية

﴿ يا أَهْلَ الكِتَابِ [1] لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾

وهناك آيات كثيرة فى القرآن نزلت فى اليهود خلال هذا الدور : دور المناقشات والمجادلات اللفظية ، وقد انتهى بالحرب و بطرد اليهود من منطقة المدينة أولا ثم من منطقة خيبر وتغلب المسلمين عليهم وانتزاع أراضيهم وديارهم مما سنفصله تفصيلا فى موضعه

تأثير العوامل الاقتصادية فى هذا النزاع

ومع كل ما كتبه المؤرخون الاسلاميون فى صدد هذا النزاع ومع كل ماأوردوه من الأسباب والعلل فاننا لا نشك فى أن للعوامل الاقتصادية القام الأول فى مناوأة اليهود للاسلام وسعيهم للقضاء عليه ، فقد زاحم المهاجرون المكيون ــ و بينهم عدد غير قليل من التجار الأذكياء النشيطين كعبدالرحمن بن عوف وأبى بكر الصديق ــ

(١) المراد بهم هنا اليهود

اليهود فى سوق المدينة ، ونافسوهم فيه ، وكادوا ينتزعون منهم السيادة الاقتصادية ، فلم يطق هؤلاء صبرا فعكفوا على الكيد للاسلام ومقاومته سرا ، أملا فى التخلص من المنافسة التجارية ، فيخلو لهم الجو ويعودون الى بسط سلطانهم الاقتصادى على البلاد كما كان أولا .

لقد كان الميدان التجارى والاقتصادى فى المدينة خاليا من منافس قبل أن يفد اليها المهاجرون من قريش ، ولا يقل القرشيون خبرة فى الشؤون الاقتصادية والتجارية والاحاطة بأسرارها عن اليهود، فقد توارثوها عن اباأئهم الأولين وتعول قريش فى كسب قوتها على التجارة، يعرف ذلك الذين درسوا تاريخها ، بعكس الاوس والخزرج وعربان شمالى الحجاز فقد كانوا أجراء لليهود يعملون لهم ويبيعونهم حاصلاتهم ويشترون منهم حاجاتهم ولوازمهم ، مما أدى الى غنى هؤلاء وفقرهم وتحكمهم فيهم

ولم تقف همة بعض المهاجرين المكيين عند حد تعاطى التجارة بل انشأوا لهم سوقا تجارية خاصة بهم الى جانب سوق بنى قينقاع (سوق المدينة الأكبر) فأقلق ذلك اليهود وأزعجهم ، وبلغ من شدة اعتماد التجار القرشيين على أنفسهم قول عبد الرحمن بن عوف لاخيه سعد بن الربيع الأنصارى حينما ساله عن المساعدة التى يقترح عليه أن يسديها اليه « دلنى على السوق » وقد جنى عبد الرحمن أرباحا كثيرة من اشتغاله بالتجارة

فمنافسة المهاجرين المكيين التجارية ليهود المدينة ـ وقد كان النضال فى المرحلة الأولى ، بين المسلمين واليهود قاصرا على يهود المدينة وحدهم أى بنى قينقاع ـ وارتفاع رأس العرب من سكان يثرب بعد وفود النبى ﷺ والمهاجرة من قريش اليهم ، ومحاولتهم انتزاع السيادة المحلية منهم ، وكانوا أصحاب الشأن وذوى الكلمة النافذة فى تصريف شؤون البلد ، كل ذلك ولد سوء تفاهم مالبث أن تحول الى نزاع فخصام فحرب فجلاء

١٠
قريش

لم ينس المهاجرون مكة ، ولم ينسوا عهـدها وأيامها ، ولم ينسوا منازلهم وديار عزهم ، ولم ينسوا المعاملة السيئة التى عاملتهم بها قريش ، وكيف ينسونها ووجودهم بديار الغربة يذكرهم بقريش على الدوام، فيتحدثون بها ويكثرون من الكلام عنها

ويؤخذ مما لدينا من أقوال المؤرخين الاسلاميين أن قريشا اكتفت فى هذه المرحلة ، بمصادرة ممتلكات المهاجرين وأموالهم مكتفية بالعقاب المالى وحـده ، وقانعة بخروجهم من بلادها ومغادرتهم أراضيها ، ولعل هـذا كان فى نظرها كافيا لان يكفل لها الاستقرار ، ويحول دون اتساع نطاق الانقسامات المحلية ، والتحزبات الداخلية ، فقد زلزل ظهور الاسلام وحـدتها الاجتماعية ، وانشأ حزازات بين أسرها ولاسيما بين الهاشميين والأمويين ، وقد كان هؤلاء ينظرون الى الدعوة الاسلامية من الوجهة العائلية المحلية فقط ، ولئن استماتوا فى مقاومتها وبذلوا أقصى الجهد للتغلب عليها، فما ذلك الا لما تبادر الى ذهنهم وهو أن فى فوزها فوزا للهاشميين وقضاء على سلطتهم ونفوذهم ولن يرضوا بالتنازل عنهما

واقترح بعض أقطاب الصحابة على النبى ﷺ بعد مااستقروا فى المدينة ، كما اقترح عليه بعضهم حينما كانوا فى مكة ، أن يأذنوا قريشا بالحرب، ويقاتلوها ويجزوها شرا بشر ، فرد عليهم هنا كما رد عليهم هنالك ،داعيا الى التريث والانتظار وقال لهم انه لم يؤذن له بالقتال وانه يجب عليهم أن يتدرعوا بالصبر ويعالجوا الامور بالحكمة ريثما يأتى الوقت

وتجـددت الدعوة الى قتال قريش فى صفوف المكيين المهاجرين بعـد

ماارتاحوا واطمأنوا ، وكانوا يتمنون أن لو أبيح لهم قتالها فيشفون صدورهم مما تجد عليها ، وصبرهم النبي ﷺ أيضا ودعاهم الى السكينة والانتظار

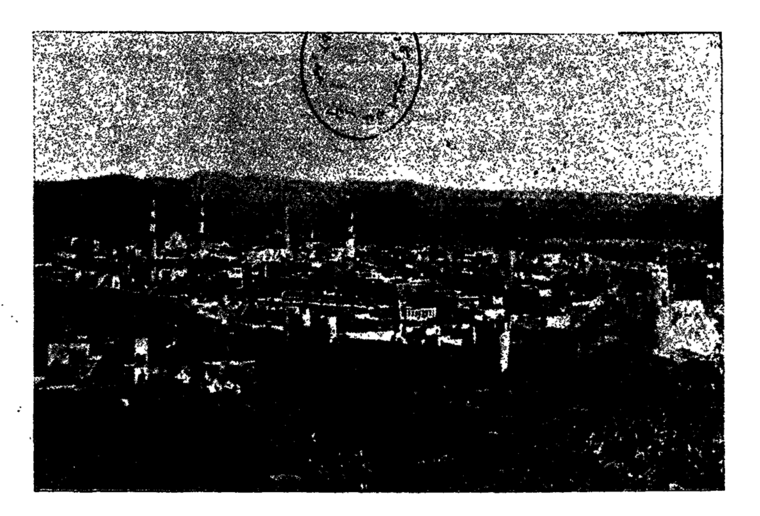
والواقع أن النسبة بين قوى المسلمين المادية وبين قوى قريش فى تلك المرحلة كانت مفقودة ، فما كان عدد المهاجرين والأنصار من سكان المدينة يزيد على الثلاثة آلاف يخرجون ألف مقاتل على أكبر تقدير ، أما قوة قريش فما كانت تقل عن خمسة آلاف مقاتل باعتبار أن سكان مكة يومئذ عشرة آلاف نفس ، ولئن خرجت قريش يوم بدر بألف لملاقاة المسلمين فماذلك الا لانها كانت تستصغر شأنهم، أمايوم أحد أى بعد ذلك بسنة فقد جاءتهم حتى المدينة بثلاثة آلاف مقاتل من رجالها ، وليس هذا كل ما كانت تستطيع اخراجه ، والعشرة آلاف الذين جاءت بهم يوم الخندق ليسوا كلهم من رجالها فقد انضم اليهم عدد من الاحلاف لايزيد فى تقديرنا على ثلاثة آلاف ، ويجب أن لاننسى أن هنالك قبائل كانت مرتبطة معها برابطة التحالف وهى كنانة وقبائل تهامة ، تأتمر بأمرها وتنقاد اليها

ولقد رأينا الرسول ﷺ فى هذه المرحلة يحالف اليهود ويتفق معهم على الدفاع عن المدينة فى حالة الاعتداء عليها . ومعنى ذلك أن أنظاره اتجهت يومئذ الى اعداد معدات الدفاع دون الهجوم ، ولعله كان يخشى هجوم قريش عليه وسيرها لقتاله ، ولولا ذلك لما كان فى حاجة الى محالفة اليهود ووضع ماوضعه من شروط

ولو سيرت قريش القوى فى تلك الايام لمطاردة المسلمين فى المدينة واخراجهم منها لأزعجتهم وحالت دون نموهم على الأقل ، ومنعت غزوهم لها فى عقر دارها بعد ذلك ، بيد أن اختلاف كلمة زعمائها بشأنهم جعلها تكتفى منهم بالخروج ، بل تعد خروجهم فوزا ونجاحا لها ،وترى فيه نجاة من كارثة عظمى كانت تهددها : كارثة الثورة الداخلية

ولا نشك فى أنه كان لقعودها عن مطاردة المسلمين واغفالها أمرهم وتركهم

وشأنهم يحالفون ويتفقون ، ويعقدون المعاهدات مع اليهود ، ويعززون مركزهم في داخل المدينة ـ أثر كبير في التحول الذي طرأ على حالتهم فعكفوا ـ بعد ما أمنوا جانبها واطمأنوا من ناحيتها كما أمنوا جانب جيرانهم اليهود واطمأنوا من ناحيتهم أيضا ـ على تهيئة خطط جديدة تحقق أمانيهم ، وتعلي كلمتهم ، وتضمن لهم التغلب على قريش والانتقام منها ، ولقد كان الجهاد احدى مظاهر السياسة الجديدة والركن الأساسي الذي قامت عليه ، وفازت بفضله



المدينة المنورة وفى داخلها المسجد النبوى

١١
النضال بين المسلمين وقريش
سرايا المسلمين وبعوثهم العسكرية

---

١ — سرية حمزة

فى الشهر السابع من وصول النبي الى المدينة، أى فى شهر رمضان، غادر حمزة بن عبد المطلب (عم النبي) المدينة على رأس ٣٠ مهاجرا ، للقاء عير (قافلة) لقريش ، واغتنامها اذا أمكن ، وذلك قبل أن يؤذن للمسلمين بالقتال

وعادة السطو على القوافل من العادات الشائعة فى جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده ، ويعدها البداة من الرزق الحلال السائغ ، وقد كان القريشيون يعتمدون فى الدفاع عن قوافلهم فى غدوها الى الشام ورواحها ، على حرس خاص يعدونه لها يرحل معها وينزل معها ويتولى رجاله حراستها بالمناوبة الليل بطوله فاذا أصبح الصباح وأزمعت الرحيل تقدمها بعض رجاله وقد تقلدوا السلاح ليكونوا بمثابة طليعة لها أو حرس أمامى ، وتأخر فريق آخر منه وراءها فلا تهاجم من الوراء . وكانت قوة الحرس خاضعة لرئيس القافلة وقائدها العام ومن عادتهم أن يجعلوا لكل قافلة رئيسا ، صونا للوحدة . وكان عدد الحرس المسلح يكثر ويقل فى القافلة تبعا لعدد جمالها وما تحمله من بضائع

وبديهى أن المسلمين كانوا يبغون من تسيير سريتهم تلك التحرش بقريش والانتقام منها وسلبها مالها ، فيستعينون به فى ديار غربتهم وقد لقوا الأمرين فى أول عهدهم

وكان رجال القافلة القريشيون محتاطين على عادتهم كل الاحتياط، والمفهوم من كثرة عدد رجال القافلة ، انها كانت كبيرة جدا ، وربما كانت القافلة السنوية الكبرى فقد رووا ان عدد رجالها كان ٣٠٠ وانها كانت بقيادة أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى وكنيته أبو الحكم وهو زعيم بنى مخزوم) أحد زعماء قريش وأعدى أعداء المسلمين

ولا بد لنا من القول ان المسلمين لم يخرجوا من المدينة الا بعدما جاءتهم الأخبار المفصلة عن القافلة وعن عدد رجالها وعما تحمله ، وقد كان بينهم عدد غير قليل اشتغل بالقوافل وشرق وغرب وانجد واتهم، أى انهم كانوا مستعدين للكفاح والنضال استعداد المكيين له

والتقى الجمعان على ساحل البحر الأحمر قرب العيص فى ديار جهينة وهى فى منطقة المدينة من ناحية ينبع ، واصطفا وكاد القتال ينشب بينهما لولا توسط مجدى بن عمرو الجهنى من شيوخ جهينة فقد حال دون اشتباك الفريقين فعاد كل منهما الى بلده ولم يجرد حسام ولا ريب أن ماجرى فى العيص (مكان معروف مشهور يبعد عن المدينة نحو ٤٠ كيلو مترا) كان انذارا لقريش بظهور المسلمين فى الميدان وكونهم ينوون منازلتها وقتالها

٢ — سرية عبيدة بن الحارث

وما كادت سرية حمزة تعود حتى أصدر النبى ﷺ أمرا باعداد سرية أخرى غادرت المدينة فى شهر شوال أى بعد شهر من خروج السرية الأولى ، وقادها عبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، فسلكت الطريق الذى سلكته الأولى أى انها سارت الى الغرب فوصلت رابغ (ميناء معروف مشهور بين جدة وينبع ويقع على طريق القوافل بين مكة والمدينة ويبعد عن الاولى نحو ٢٠٠ كيلومترا) وكانت مهمتها شبيهة بمهمة تلك أى الغارة على قافلة قريش واستياقها اذا أمكن

وكانت القافلة المكية فى هذه المرة بقيادة ابى سفيان بن حرب الأموى، وكان عدد

رجالها مائتين فالتقى الفريقان على ماء يقال له احياء فى بطن رابغ . واكتفيا بالتراشق بالنبال عن بعد وكان سعد بن أبى وقاص بين رجال هذه الحملة وكان سهمه أول سهم رمى فى الاسلام

٣ — سرية سعد بن ابى وقاص

وفى شهر ذى القعدة أى فى الشهر التالى لعودة السرية الثانية ، جهز سرية ثالثة بقيادة سعد بن ابى وقاص . وكان عدد رجالها عشرين فقط وأمرهم بأن يقصدوا الخرار (واد يصب فى الجحفة) فيعترضوا قافلة لقريش ينتظر أن تمر من هنالك ، وأمرهم بالا يجاوزوا الخرار فساروا اليها ووصلوا بعد مرور القافلة بيوم فعادوا الى المدينة سالمين

فهذه السرايا الثلاث وقد وجهها فى ثلاثة أشهر ولما يمض على اقامته فى المدينة سوى بضعة اشهر ، لمضايقة قريش فى متاجرها ، وازعاجها فى تنقلاتها ، تركت أثرا فى نفوس المكيين الذين بدأوا يهتمون بأمر « الجماعة » الجديدة التى ظهرت فى الشمال على طريق الشام ، حيث يتاجرون ويربحون ، ولئن لم يقع بينهم وبينها قتال الا أن ماجرى كان من قبيل المقدمات او المظاهرات « العسكرية » وتتقدم عادة اعلان الحرب بين الدول فى هذه الأيام

٤ — غزوة الابواء [١]

وفى شهر صفر أى بعد عودة السرية الثالثة بشهرين خرج النبى نفسه على رأس ستين مهاجرا قاصدا « ودان » وهى قرية فى شمالى المدينة ، تقع قرب الابواء ، والابواء احدى محطات سكة حديد الحجاز وبينها وبين المدينة ٢٨ كيلو مترا ويسمون هذه

---

(١) اصطلح المؤرخون الاسلاميون عل اطلاق لقب سرية على كل قوة عسكرية يسيرها النبى ﷺ بقيادة أحد رجاله أما القوة التى يقودها بنفسه فهى « غزوة »

الغزوة غزوة الابواء أيضا وهى أول مرة يقود النبي فيها جيشا كما هى أول مرة يغادر فيها المدينة لغرض عسكرى

والغاية من هذه الغزوة هى نفس الغاية من ارسال السرايا الثلاث ، أى ازعاج قريش فى طريقها من الشام الى مكة . واذا كان هنالك فرق فهو فى اختيار المكان للقاء القافلة فقد كانوا فى المرات الثلاث يقصدون منطقة الساحل أما الآن فيخرجون باتجاه الشمال لاباتجاه الغرب

ولئن فاتت القافلة الحملة واخفقت فى ادراكها والحصول عليها فقد أصابت فوزا سياسيا وعسكريا لايستهان به ، يدل على شدة يقظة الرسول ﷺ وبعد نظره وعلى انه كان يتبع قاعدة التدرج الطبيعى فى اعماله

أول محالفة مع قبيلة فى الشمال

أثبت المؤرخون ان النبي ﷺ اتصل وهو فى ودان بمخشى ابن عمرو الضمرى ، سيد بنى ضمرة ، وهى قبيلة كانت تنزل هنالك ولم يبق لها أثر فى الوقت الحاضر ، وعقد معه عقدا تعهد فيه المسلمون بالدفاع عن بنى ضمرة اذا هوجموا و بالا يقاتلوهم وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء ، بشرط أن لايحاربوا فى دين الله، مابل بحر صوفة وان النبي اذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله »

المحالفة الثالثة

ومعاهدة الابواء او ودان هى ثالث محالفة عسكرية يعقدها النبى ﷺ فى خلال ١٤ شهرا وقد تدرج فيها تدرجا يستوقف النظر

فنى المعاهدة الاولى وقد عقدها مع الاوس والخزرج فى منى (العقبة الثانيــة) اشترط عليهم الدفاع عنــه وحمايته (كما يحمون نساءهم وابناءهم) وكان المفهوم تلويحا أن هــذه الحماية تشمل اصحابه من المهاجرين بالاضافة اليه يؤيد ذلك انه لم يكد يعقدها حتى أوعز اليهم بالسفر الى المدينة فقصدوها ارسالا ثم لحق بهم ونزل بينهم

والمعاهدة الثانية ـ معاهدة المدينــة أو الصحيفة وقد عقدها مع يهودها النازلين هنالك وقامت على مبدأ التعاون فى الدفاع عن المدينــة نفسها اذا هاجمها مهاجم وعدم عقد صلح منفرد

أما معاهدة ودان فهى محالفة عسكرية بالمعنى المفهوم من التحالف العسكرى فى اصطلاح عصرنا وقد نصت على تعهد كل فريق بالدفاع عن الفريق الآخر فى حالة الدفاع والهجوم فقالت ان على بنى ضمرة أن يجيبوا النبى اذا دعاهم لنصر وان لهم النصر من المسلمين على من رامهم بسوء ، ولم ينص على هــذا المبدأ فى المعاهدتين السالفتين . وبذلك يكون بنو ضمرة أول قبيلة حجازية مالت الى المسلمين وحالفتهم من دون أن تدخل فى الدين الجديد ، وعلى كل فانها فوز سياسى وعسكرى للمسلمين لايستهان به بالنسبة لحالتهم فى تلك الايام

٥ — غزوة بواط

وتجهز فى شهر ربيع الاول (أول شهر من السنة الثانية للهجرة) فى مئتين من المهاجرين وخرج الى الساحل يطلب قافلة لقريش ، علم من مصادره الخاصة أنها على وشك المرور من هنالك

وواصل السير بأصحابه حتى وصل الى بواط[1]

(١) جبل لجهينة من ناحية رضوى قرب ينبع وتبعد ينبع عن المدينة ٢٣٠ كيلو مترا الى الغرب

ولا بد لنا من التنبيه الى امرين يستوقفان النظر فى حركات الجيش الاسلامى الجديد :

الاول ـ زيادة عدده زيادة مستمرة فقد كان عدد السرية الاولى التى قادها حمزة ٣٠ محاربا ثم ارتفع الى الستين فى السرية الثانية ثم هبط الى العشرين ثم ارتفع الى الستين فى غزوة الابواء وهاهو يرتفع الى المئتين الآن وهو تقدم يدل على أن القوم كانوا يعملون بدون انقطاع على تنمية جيشهم

الثانى ـ هو عدم انضمام احد من الانصار الى الحملات الخمس التى جهزها المسلمون بعد اقامتهم فى المدينة واقتصارها على المهاجرين المكيين، ويقول المؤرخون الاسلاميون فى تعليل ذلك ان اتفاق منى (العقبة الثانية) لم ينص على اشتراك الانصار فى كل عمل عسكرى يعمل وانما هو عهد قطعوه على انفسهم بالدفاع عن النبي وحمايته والقتال فى سبيله ولما كانت الحملات التى سارت فى تلك الايام لايقصد منها الدفاع عن النفس لم ير الانصار ما يحملهم على الاشتراك فيها فقعدوا عنها وتركوا المكيين وشأنهم مع ابناء عمومتهم واخوانهم على انهم عادوا بعد صدور الاذن بالجهاد الى الاشتراك فى الاعمال العسكرية فشهدوا المشاهد كلها وابلوا احسن بلاء

وفاتت القافلة المسلمين وعادوا الى المدينة ولم يعملوا فى سفرهم عملا ماديا يستحق الذكر، وان كنا نعتقد ان خروجهم سواء اصابوا فائدة مادية ام لم يصيبوا، ما كان يخلو من تأثير ادبى يؤثر فى نفوس اعدائهم وفى نفوس سكان الحجاز كلهم وقد كانوا يرقبون باهتمام عظيم نتائج هذا النضال الدائر بين فريقين من قريش

٦ — غزوة سفوان أو بدر الاولى

وأغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة (طرش) وكان يرعى بالجماء وهو جبل بناحية العقيق الى الجرف (شمالى المدينة) وعادة الغارة على الطرش او السرح من العادات المتبعة فى جزيرة العرب وهى ضرب من ضروب الغزو المباح عندهم ، وتشيع عادة اذا لم تكن بينهم حكومة قوية تضرب على ايديهم

ووصل خبر الغارة الى المدينــة نخرج النبي ﷺ على الفور فى طلب المغيرين على رأس قوة من المهاجرين وواصل السير حتى بلغ وادى سفوان من ناحية بدر ، ولما لم يجدهم عاد الى المدينة من دون أن يحدث له حادث وكان ذلك فى شهر ربيع الأول ايضا أى بعد رجوعه من بواط

٧ ـ غزوة العشيرة

وجاءت الأخبار الى المدينة فى شهر جمادى الأولى وقيل جمادى الآخرة بأن قافلة قريش السنوية الكبرى تتأهب للسير الى الشام قريبا نخرج النبي ﷺ على رأس ١٥٠ وقيل ٢٠٠ من المهاجرين للقائها ومعهم ٣٠ بعيرا وواصل سيره حتى العشيرة على الطريق بين مكة والمدينة فبلغها بعد مرور القافلة

وفعل مافعله فى غزوة الابواء فوادع بنى مدلج من سكان تلك الناحية على ماعاهد عليه حلفاءهم من بنى ضمرة فى الغزوة السابقة ثم عاد الى المدينة بعد ماأقام شهرا كاملا هنا يدرس حالة قريش ويستقصى أخبارها . ولا يخفى أن العشيرة أقرب مكان الى مكة بلغته سرايا المسلمين العسكرية منذ بدأوا بتسييرها

٨ ـــ سرية عبد الله بن جحش الاسدى

وفى شهر رجب جهز قوة من ١٢ مهاجرا وسيرها بقيادة عبد الله بن جحش الاسدى وسلم قائدها كتابا مختوما وأوصاه بأن لا يفضه الا بعد انقضاء يومين على مغادرته المدينــة على أن يكون للذين معه حق الخيــار فأذا شاءوا مضوا معه لتنفيذه واذا شاءوا عادوا الى المدينة مما يدل عـلى أن المهمة التى انتدبوا لها كانت شاقة وصعبة وخطيرة الشأن ولولا ذلك لما كانوا فى حاجة الى « كتاب مختوم » ولما منح رجالها حق الرجوع اذا شاءوا

وفض عبد الله الكتاب فألفاه يتضمن أمرا له ولأصحابه بأن يمضوا حتى ينزلوا نخلة فيرصدوا قريشا و يعرفوا اخبارها . ونخلة هذه على الطريق بين مكة والطائف وقد تقدم وصف مكانها . فلم يترددوا فى الذهاب رغم صعوبة العمل و رغم اضطرارهم لأن يطرقوا ديار قريش و يمروا فى ارضها ، ولا يأمنون كيدها اذا صادفتهم او وقعوا فى ايديها

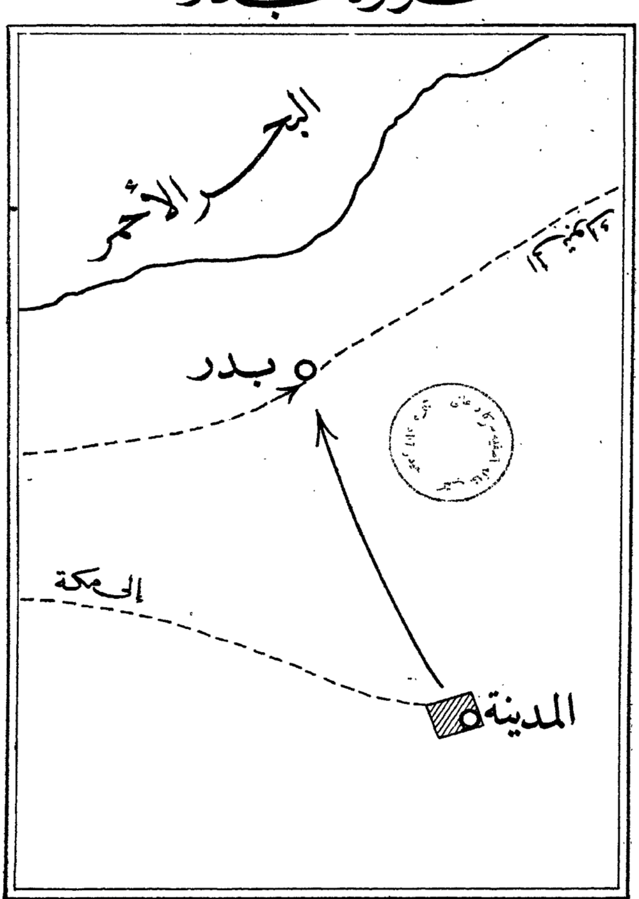
ومرت بهم بعد وصولهم الى نخلة قافلة لقريش تحمل خمرا وادما و زبيبا ، جاءت به من الطائف وفيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان ، فتشاوروا فيما يفعلونه وهل يدعونها تمر وتفلت من ايديهم ام يهاجمونها و يغنمون مافيها ، فاستقر رأيهم على الشق الثانى ، فرمى واقد بن عبد الله التيمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، فكان اول قتيل قتله المسلمون من قريش، وحمل المسلمون على القافلة فأسروا الحكم بن كيسان وعثمان بن المغيرة وفر اخوه نوفل وغنموها فكان اول غنم يغنمونه ايضا من قريش وعادوا بها و بالاسيرين الى المدينة وكانت المعركة فى آخر يوم من أيام رجب اى فى الشهر الذى تمنع العرب فيه القتال

وكبر الأمر على قريش واستعظمته لأنه أول حادث من نوعه ولأنه حدث فى شهر رجب اى فى الوقت الذى اتفق العرب على تحريم القتال فيه ، ووجهت انتقادات شديدة الى المسلمين . وكان النبى ﷺ بنفسه فى مقدمة من أنكر على رجال السرية تصرفهم حينما قدموا عليه وقال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، على أن الأزمة انفرجت بنزول قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ فاقر النبى ﷺ تصرفات عبد الله ومن معه وفدى الاسيرين وأخذ خمس الغنيمة

٩ — غزوة بدر الكبرى

كانت معركة بدر الكبرى ، خاتمة عهد ابتدأ بمظاهرات أو مناوشات عسكرية

غزوة بدر



امتــدت نحو ســتة كاملة وفاتحة عهــد نضال عسكرى حقيقى بين قريش والمسلمين وكان الحجاز ميــدانا له ، وانتهى بفتح هــذا القطر وخضوعه خضوعاً كاملا للــدولة الاسلامية الجديدة

و بيان ما وقع أن اخبارا وصلت الى المدينة ، بقرب رجوع قافــلة قريش من الشام ، وهى القافلة التى خرج المسلمون للقائها فى العشيرة فوصلوا بعد سفرها ، فندب النبى ﷺ اصحابه للخروج وقال لهم « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلــكموها » فخرجوا يوم الاثنين ٨ رمضان وعــددهم ٣١٣ رجلا منهم ٧٠ مهاجرا والباقون من الانصار ، وهى أول مرة يشترك فيهــا هؤلاء مع المهاجرين فى الحملات فقد وقفوا فى أول الأمر على الحياد كما تقدم

ولم يكتم النبى ارتياحه، الى كثرة عدد جيشه حينما عرضه، والى اشتراك الانصار فيه ، ولا يخفى أنه أول مرة يوفق المسلمون فيها الى جمع مثل هذا العدد وهو ليس بقليل بنسبة حالتهم يومئذ

وتخلف فى المدينة ثلاثة من المهاجرين فقط بأمره وهم عثمان بن عفان وقد ظل عند زوجته المريضة ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد وقــد انتدبا ليتجسسا خبر القافلة و يرقبا سيرها.

وكان الجيش الاسلامى يملك ٧٠ بعيرا فقط وفرسين وتولى قيادة ساقة المسلمين قيس بن أبى حفصــة الانصارى . وعقــد النبى ﷺ ثلاث رايات : راية للمهاجرين وكانت مع على بن ابى طالب ورايتين للانصار

وعرف أبو سفيان وكان يرأس قافلة قريش حين دنا من الحجاز ــ وكان يتجسس الاخبار و يسأل الركبان ــ بما يعده له المسلمون ، فارسل رسولا الى مكة وامره أن يأتيها و يستنفر أهلها للدفاع عن قافلتهم فــلا تسقط فى أيدى المسلمين ، فادى هــذا رسالته فقامت مكة وقعدت لهذا النبأ العظيم وتجهز صناديدها للحرب وخرجوا وعدتهم نحو الف مقاتل منهم ٦٠٠ دراع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع و٧٠٠ بعير وسلــكوا طريق بدر للقاء المسلمين وقد وثقوا من قوتهم واطمأنوا الى كثرتهم

وجاءت الاخبار للمسلمين بخروج اهل مكة لقتالهم فاستشار النبى أصحابه فيما يفعل وهل يصمد لقتالهم ؟ أم يرصد القافلة ؟ أم يعود الى المدينة ؟ فخطب خطباء المهاجرين فى الحملة وقالوا له « انا معك . وانك لو سرت الى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه » وخطب سعد بن معاذ باسم الانصار وقال له « قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجـل واحد فسر بنا على بركة الله » فسره ذلك منهم وارتاح اليه وقرر المضى فى تنفيذ الخطة التى رسمها

وشعر أبو سفيان بالخطر حينما اقترب من بدر فغير وجهة سيره و بدلا من أن يسلك طريق القوافل المعتاد، سلك طريق البحر فبلغ مكة آمنا ولم يمسه سوء. فارسل من فوره رسولا الى قريش وكانت تنزل فى ذى الجحفة قرب بدر يبلغها خبر وصوله ويقول «ارجعوا الى بلدكم فقد خرجتم لانقاذ قافلتكم ومتاعكم وقد نجاها الله»

وأصر أبو جهل (وقد ذكر اسمه الحقيقى من قبل) على مواصلة التقدم وورود بدر والنزول فيها مادام قد خرجوا وخالفه الاخنس بن شريق الثقفى وكان حليفا لبنى زهرة فقال لقومه انما خرجتم للدفاع عن اموالكم واصحابكم الذين فى القافلة وما داموا قد نجوا فلا حاجة لكم فى قتال المسلمين، فانفصلوا عن قريش وعادوا الى مكة و واصل الباقون تقدمهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادى بدر خلف العقنقل . وسبقهم المسلمون فنزلوا فى مراكز منيعة واستولوا على آبار الماء وأحسنوا تعبئة قواهم وتنظيمها . ومما يستحق الذكر فى هذا المقام مارواه ابن هشام وخلاصته ان الحباب بن المنذر بن الجموح جاء الى الرسول ﷺ بعد وصول المسلمين الى بدر و بعـد ماعبأهم بذاته طبقا لخطة رسمها وقال له : أرأيت يارسول الله هـذا المنزل ، امنزلا انزلكه الله ليس لنا ان نتقدم ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة . قال فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى ادنى ماء من القوم فانى اعرف غزارة مائه فننزل به ثم نغور ماوراءه من القلب [١] ثم نبنى عليه

---

(١) جمع قليب وهو البئر

حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

ولم يتردد الرسول ﷺ فى الأخذ بهذا الرأى الصائب فنهض وسار وتبعه المسلمون حتى أتى أقرب ماء من المكان الذى نزل المشركون فيه فنزله و بنى حوضا للماء كما أشار الحباب وملأه، ثم قذفوا بالآنية فى البئر وغوروه وأقاموا حامية منهم للدفاع عن الحوض وصد المشركين و وصل المكيون فى الغداة ، وكان المسلمون قد تأهبوا للقائهم وأعدوا عدتهم للكفاح والنضال

وظهرت فى صفوف قريش قبل أن ينشب القتال فكرة تقول بالكف عن الحرب وكان زعيم القائلين بهذا الرأى عتبة بن ربيعة هو من كبار الامويين فقد خطب فى أصحابه ودعاهم الى الرجوع وترك المسلمين وشأنهم وقال لهم « خلوا بين محمد و بين سائر العرب فان أصابوه فذاك الذى أردتم وان كان غير ذلك لايضركم »

وعارض أبو جهل وأنصاره فى الاخذ بهذا الرأى وقاوموه أشد مقاومة ورموا دعاته بالخور والجبن وقال « والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا و بين محمد » فانقاد الناس اليه ، واتبعوا رأيه

و رتب المسلمون صفوفهم وتأهبوا للنضال ، وخرج الاسود المخزومى يقصد الحوض ليرده فضربه حمزة بن عبد المطلب وكان واقفا عنده لحمايته فجرحه فى رجله فعاد الى اقتحامه فقتله فكان اول قتيل فى بدر

و برز عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فأسرع فتية من الانصار للقائهم فقالوا لهم مالنا بكم حاجة انما نريد قومنا فخرج اليهم حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث فبارز عبيدة عتبة وحمزة شيبة وعلى الوليد فقتل على صاحبه ومثله حمزة وانضما الى عبيدة وقد جرح فى المعركة فأجهزوا على عتبة

وغادر النبى ﷺ مقره ، وكان يقيم فى عريش مرتفع بناه له سعد بن معاذ زعيم الانصار ، ومعه أبو بكر لحمايته والدفاع عنه حينما انتهت المبارزة، وجال بين صفوف المسلمين وقال لهم ان دنا القوم منكم فانضحوهم واستبقوا نبالكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم . وأمرهم بأن لايحملوا حتى يأمرهم

ونشبت المعركة على الاثر، وحمل القرشيون على المسلمين فصمدوا لهم وقاتلوهم أصدق قتال وكان رسول الله ﷺ يطوف بين رجاله ويحثهم على الثبات ولم يطل الامر حتى دارت الدائرة على قريش فتضعضعت ثم انهزمت وولت الادبار وفاز المسلمون فوزا عظيما وفقد اعداؤهم فى هذه المعركة عددا غير قليل من اعلامهم ووجوههم فعدا عن الثلاثة الاولين شيبة وابنه وأخيه قتل ابو جهل اعدى اعداء المسلمين وقتل أيضا امية بن خلف الجمحى قالوا وبلغ عدد قتلاهم يومئذ ٧٠ وأسروا منهم وايضا ٧٠ أسيرا وغنموا أسلابهم وأموالهم وهي كثيرة وقتل من المسلمين ثمانية

وكان بين الاسرى العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وأبو العاص بن الربيع صهره وعقيل بن ابى طالب شقيق على وعدد من مشاهير قريش بينهم النضر بن الحارث العبدرى وعقبة بن ابى معيط بن ذكوان بن امية بن عبد شمس وكانا من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وقد حاول الاخير قتله خنقا فى مكة وانقذه أبو بكر من يده فقتلا بامره دون بقية الاسرى وهم فى طريقهم الى المدينة

واستشار النبى ﷺ ابا بكر وعمر وعليا فيما يفعله بالاسرى فأشار الاول باستبقائهم وأخذ الفداء منهم وقال له « اهلك وقومك قد اعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم ، ارى ان تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء فيكون ما اخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله ان يهديهم بك فيكونوا لنا عضدا »

ورأى عمر بن الخطاب قتلهم وطلب ان يمكن من قريب له منهم فيضرب عنقه ويضرب علي عنق اخيه ويضرب حمزة عنق العباس حتى يعلم انه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين . ولم ينقل المؤرخون رأيا لعلى. ورأى عبد الله بن رواحة الأنصارى احراقهم بالنار فى واد كثير الحطب. ورجح المصطفى ﷺ رأى أبى بكر واخذ به وامر بالاسرى فوزعوا فى بيوت المسلمين . وكان ابو وداعة الحارث أول من فدى منهم ، فداه ابنه باربعة آلاف درهم وتتابع بعد ذلك وصول المال وكان الفداء يتفاوت بين ألف والفين وثلاثة وأربعة آلاف درهم طبقا لحالة الاسير المادية والاجتماعية .

و يقدر مادفعته قريش فـداء لأسراها بعشرين ألف درهم وكسور ، وكان من جملة الاساليب التى اتبعها المسلمون فى معاملة الاسرى انهـم كانوا يطلقون سراح كل من يعلم عشرة من اطفال المدينـة القراءة والـكتابة . وقـد أطلق سراح كثيرين منهم بهـذه الوساطة وتعـلم كثيرون من الاطفال على ايديهـم فانتشرت بذلك القراءة والـكتابة بينهم

ودفع العباس بن عبد المطلب وابنا اخيه عقيل ونوفل وحليفه عتبة بن عمرو الفداء فأطلق سراحهم ومثل ذلك دفعت فدية ابى العاص صهر النبى ﷺ وهكذا كانت معركة بدر من أعظم المعارك وأيمنها على المسلمين ، ولئن فاتهم القافلة فان الغنائم وأموال الفداء عوضتهم عنها

واستقبل الجيش الاسلامى حين عودته الى المدينة بالهتاف والاستبشار وفرح المسلمون بانتصارهم وفوزهم، وازدادوا ايماناعلى ايمانهم

فتح الحجاز

الحجاز

معلومات جغرافية عامة

يطلق الحجاز على الاقليم المعروف باسمه فى بلاد العرب ويحده البحر الاحمر غرباء ونجد شرقا اخذا بالتقسيم الجغرافى الجديد الذى يجعل نجدا اقليما مستقلا ، أما فى القديم فكانوا يعتبرونه جزءا منه ، وبلاد الشام شمالا ، وعسير جنوبا ويقطعه من الشمال الى الجنوب جبل السراة ويبلغ طوله من الجنوب الى الشمال نحو ١٥٠٠ كيلو متر وعرضه من الغرب الى الشرق ٣٠٠ كيلو متر . ومن مدنه المشهورة مكة وهى عاصمته من القديم والمدينة المنورة وجدة والطائف وينبع والوجه والعلا وضبا وسكانه من العرب وينقسمون فى الوقت الحاضر الى قسمين : حضريون وهم سكان المدن ويتألفون — ولا سيما سكان المدن الثلاثة الاولى — من امشاج شتى وعناصر مختلفة . وبدو وهم سكان البادية ، وينقسمون الى قبائل وافخاذ ولايزالون على ما كانوا عليه قبل الاسلام

وكان الحجاز بمافيه نجدقطرا مستقلا فى الجاهلية لاسلطان لأجنبي عليه وفيه نشأ الاسلام ومنه خرج المسلمون الاولون الذين اكتسحوا العالم ودوخوا الممالك ولم يخضع فى جميع أدواره التاريخية لسلطة غير اسلامية . ولما دالت دولة الترك العثمانيين فى اثناء الحرب العظمى قامت فيه دولة هاشمية أنشأها الشريف حسين باشا بن على عاشت عشر سنوات (١٩١٦ — ١٩٢٤) وحلت محلها الدولة السعودية القائمة الآن ويقدر سكان الحجاز فى الوقت الحاضر بمليون نسمة منهم ٤٠٠ الف يسكنون المدن والباقى ينزلون البادية

١
صدى انتصار بدر

كان لانتصار المسلمين فى بدر صدى بعيد الغور لافى المدينة ولافى مكة وحدهما بل فى جميع أنحاء الحجاز، فقد طار خبره وتحدث الناس بامره

ويمكن وصف النتائج العاجلة التى انتجها بما يأتى :

١ ـ وطد سلطان المسلمين فى المدينة ومكن لهم فيها وزاد فى هيبتهم ومكانتهم

٢ ـ كان مصدر يمن وبركة لهم فقد خفف عنهم ما تقاضوه من فداء الاسرى وما غنموه من غنائم بعض ما كانوا يجدونه من ضائقة شديدة ، كما شدد عزائمهم وضاعف قواهم المادية ما اخذوه من سلاح وابل وما كانوا يملكون سلاحا كافيا من قبل

٣ ـ ساعدهم على نشر التعليم فى عاصمتهم الجديدة ، فتعلم كثيرون من اطفالهم القراءة والكتابة على يد الاسرى من قريش ، وكان عدد الذين يقرأون ويكتبون فى المدينة قليلا

٤ ـ زادهم وثوقا برسالة رسولهم واعتقادا بصحة نبوته ، ولا سيما بعد ما رسخ فى أذهانهم أنه لم ينصر الا بتأييد السماء ونزول الملائكة لمساعدته واشتراكها فى القتال لتأييده . ومن تؤيده السماء وترضى عنه فهو مؤيد منصور

٥ ـ زاد فى حقد قريش على المسلمين ونقمتها عليهم فانصرفت لاعداد حملة قوية تزحف عليهم للمطالبة بثأرها فاكتتب تجارها واغنياؤها بمبالغ كبيرة لشراء أسلحة وتجنيد جيش كبير، ونذر أبو سفيان على نفسه أن لا يقرب النساء حتى يثأر من المسلمين

٦ ـ انشأ أحقادا واضغانا فى صدور طائفة من اليثربيين ، عرفوا فى التاريخ

الاسلامى بالمنافقين فقد كبر على زعيمهم عبد الله بن ابى مابلغه المسلمون من انتصار و بعد صيت ، فاخذ يكيد لهم و يعمل على مقاومتهم من وراء ستار ، و يقال انه كان يطمع أن ينادى به أميرا على الاوس والخزرج ، فلما قدم النبي ﷺ الى المدينة وانتقلت اليه زعامتها ،خاب أمله .

هذا بعض مايرد على ذهن الباحث وهو يحاول سرد النتائج المادية والادبية العاجلة التى انتجها انتصار المسلمين العظيم فى بدر ، فهو وان لم يك حاسما ولم يقض على قوى قريش ولم يحملها على الخضوع والاستسلام فانه كان فاتحة طيبة للمسلمين الذين ما كانت قواهم المادية لتذكر فى جانب قوات قريش الكبرى ، وما كانت ثروتهم لتذكر فى جانب ثروتها كما ان عدد المحاربين منهم ما كان ليذكر فى جانب عدد المحاربين منها ومن حلفائها

ومما يجعل لهذا النصر أهمية خاصة فى نظر كل من يدرس التاريخ الاسلامى و يماشي حوادثه وقوعه فى زمن كان المسلمون فيه أقلية ضئيلة لاتذكر فى جانب الاكثرية القوية المعتزة بعددها وعددها وثروتها وتجارتها وحسبها ونسبها ، وقد عد هذا الانتصار برهانا ساطعا على تأثير القوى الروحية التى بشر محمد ﷺ بها ودعا الى الايمان بها فلولاها ولولا مساعدتها لما انتصر المسلمون على اعدائهم ولما تغلبوا عليهم

بقى علينا ان نسرد العوامل المادية التى ضمنت للمسلمين فوزهم وانتصارهم فى بدر رغم التباين المشهود فىالقوى والعدد والعدد فنقول:

١ ــ ان فى مقدمة هذه العوامل تعبئة المسلمين تعبئة حسنة فى بدر و يعود الفضل فى ذلك الى الحباب بن المنذر بن الجموح الانصارى وكان عارفا بجغرافية المكان ومواقعه ، ولم يتردد النبي ﷺ فى الاخذ برأيه حينما أشار عليه بترك الاماكن التى نزلوها ، وللتعبئة مقام عظيم فى فن الحرب وتأثير كبير

٢ ــ مكنت التعبئة الجديدة التى أشار بها الحباب المسلمين من السيطرة على آبار

الماء فكانوا يقاتلون والماء موفور لهم ، ممنوع على اعدائهم ، ومتى ذكر القارىء أن معركة بدر قد دارت فى ١٧ رمضان وهو يعادل شهر يوليو من تلك السنة ، ويشتد الحر كثيرا بالحجاز فى هذا الوقت ولا سيما فى صحاريه وترتفع الحرارة الى مافوق الخمسين فى ميزان سنتغراد ، أدرك المزايا العظيمة التى يمتاز بها جيش يملك حاجته من الماء ويمنع عنه خصمه ، واذا قيل لنا ان المكيين معتادون على حر الحجاز وقيظه نقول أنهم غير معتادين على قلة الماء وفقده ، وخصوصا فى وسط الصحراء فى يوم عبوس قمطرير كيومهم فى بدر

٣ ـ ما أجمع عليه الرواة من هبوب زوبعة رملية شديدة فى إبان المعركة زادت فى حراجة موقف قريش وصعوبته ، فقد كان الغبار يملأ وجوههم وانوفهم وعيونهم فلا يكادون يبصرون ما امامهم أى انهم كانوا فى وضع معاكس لهبوب الريح بخلاف وضع المسلمين فكان على أفضل مايرام

٤ ـ فوز المبارزين المسلمين فى أول المعركة على خصومهم وقتلهم اياهم وهم ذوو مكانة رفيعة فى قومهم

٥ ـ وحدة الرأى بين المسلمين والتفافهم حول قائدهم وانقيادهم اليه بعكس المكيين فقد ظهر الخلاف فى صفوفهم قبل المعركة ، ومن يقابل بين خطب الصحابة وكيف أجمع زعماؤهم على القول للنبى ﷺ بانه لو سار الى برك الغماد لساروا معه ولو قاتل الجن والانس لقاتلوا معه ، برجوع الاخنس بن شريق ببنى زهرة من الجحفة (منطقة بدر) ويقدر بعضهم الذين رجعوا معه بمئة ويجعلهم آخرون ٣٠٠ أى نحو ثلث جيش قريش ، وهو عدد لايستهان به ، يرى الفرق كبيرا فقد أبى هؤلاء قتال المسلمين بعد ماعلموا بوصول القافلة سالمة الى مكة يضاف الى ذلك ماحدث بين عتبة بن ربيعة وكان يمثل عددا كبيرا فى الجيش و بين أبى جهل والحاح الاول بالرجوع والانسحاب وعدم قتال المسلمين وقوله حينما قام فيهم خطيبا « والله يامعشر قريش ماتصنعون شيئا حينما تلقون محمدا وأصحابه ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر

اليه و يقول قدقتل ابن عمى أو ابن خالى أو رجلا من عشيرته،فارجعوا وخلوا بين محمد و بين سائر العرب فان أصابه غيركم فذاك الذى أردتم ، وان كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ماتريدون ، ياقوم اعصبوها اليوم برأسى وقولواجبن عتبة وأنتم تعلمون انى لست بأجبنكم » ومعارضة أبى جهل له ، وكان يمثل الفريق المتطرف فى الجيش ويقول بوجوب قتال المسلمين واستئصالهم لئلا تعيرهم العرب، وكانت النتيجة اشتراك عتبة فى المعركة وقتله وابنه واخيه وقتل ابى جهل نفسه فى ذاك اليوم

٦ ــ استهانة قريش بأمر المسلمين واستصغارها لأمرهم واستصحابها الخمور اعتقادا من رجالها بانهم ذاهبون «لنزهة عسكرية» ومما يؤثر عن أبى جهل قوله حينما أرسل اليه أبو سفيان يدعوه للرجوع الى مكة لان القافلة وصلت سليمة « والله لانرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا »

قابل هذا كله بوصف الحالة الأدبية والروحية التى كان عليها المسلمون قبل المعركة واكثار النبى ﷺ من الصلاة والدعاء وقوله « اللهم انى أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد فى الارض » وطوافه بين أصحابه وقوله لهم «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتبسا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » وقوله « سيهزم الجمع و يولون الدبر » ترى الفرق كبيرا جدا بين حالة المسلمين وحالة خصومهم وتسلم بانه لابد من انتصار هؤلاء وفوزهم مهما كثر عدد أعدائهم لانهم كانوا يقاتلون عن عقيدة وايمان بعكس اولئك الذين لم تكن تجمعهم سوى جامعة الانتقام من المسلمين والرغبة فى القضاء عليهم

٧ ــ اعتقاد المسلمين انهم يخوضون معركة يتوقف على انتصارهم فيها فوزهم ونجاحهم وكيد اعدائهم واذلالهم

٨ ــ اعتقاد المسلمين ان الذين يقتلون منهم يذهبون الى الجنة وينزلون أرفع المنازل وأرقاها ، ولم يك ذلك شائعا بين قريش وما كانت تؤمن بالبعث

فهذه الاعتبارات الجوهرية و بعضها مادى و بعضها معنوى أثرت فى سير القتال

ورجحت كفة المسلمين وكانوا يمتازون على اعدائهم بجودة مواقعهم وحسن تعبئتهم وتضامن رجالهم واتحاد كلمتهم والتحام صفوفهم ووفرة الماء لديهم واعتقادهم بأن قتلاهم فى الجنة وقتلى اعدائهم فى النار وصدق عزيمتهم وايمانهم ، علاوة على ما كان المهاجرون المكيون – وهم نخبة جيش بدر وعمدته – يجدونه على قريش وشدة شوقهم الى الانتقام منها لسوء صنيعها معهم فقد اضطهدتهم ثلاث عشرة سنة ولم تدخر وسعا فى تعذيبهم والتنكيل بهم

ولا نشك فى أن انتصار بدر كان من العوامل الكبرى فى توطيد قدم الاسلام ورسوخ قواعده ،وانتشاره فى بادية الحجاز

ويجب أن لا نغفل شأن المعدات الحربية التى غنمها المسلمون فى بدر فقد ساعدتهم على تسليح جيشهم وتوسيع نطاقه توسيعا نسبيا كما أن ماقبضوه باسم فداء الاسرى وقدره عشرون الف درهم ونيف –وهو مبلغ لايستهان به بالنسبة لمن كان فى حالتهم تلك – ساعد على تحسين حالتهم المادية

وبالجملة فقد كان انتصارهم فى ذاك اليوم من اعظم الانتصارات فى تاريخهم العسكرى وهو لايقل خطورة فى نظرنا عن فتح مكة

وكما اعتبرنا يوم دخول النبي ﷺ الى المدينة يوم انشاء الدولة الاسلامية الجديدة فاننا نعتبر يوم بدر فاتحة استيلاء المسلمين على الحجاز ومقدمة له ، فلولاه لما رسخت قواعد دولتهم ولما دان الحجاز وخضع لسلطانهم

٢

الاعمال العسكرية فى شرقى المدينة

ذاق المسلمون لذة النصر فى بدر وفرحوا بما آتاهم الله من فضله ، فنشطوا ووسعوا نطاق اعمالهم العسكرية ، فلم يقيموا فى المدينة ، بعد عودتهم من بدر سوى ستة أيام فقط ، نادى بعدها مناديهم بالتأهب للرحيل فخرجوا فى شهر شوال من السنة الثانية قاصدين بنى سليم .

و بنو سليم هؤلاء ينزلون فى شرقى المدينة الشمالى على طريق نجد وتبعد منازلهم عنها نحو ١٢٠ كيلو مترا و يعدون من القبائل القوية اجمالا وان كنا لانعرف مصدرا نستدل به على عدد نفوسهم، ولا على عدد القوات التى خرج بها النبى ﷺ لقتالهم ولا الاسباب التى بعثت على غزوهم ، فقد رجعنا الى كتب السير والمغازى التى اعتمدنا عليها وهى الواقدى والطبرى وابن هشام وابن كثير فلم نجد فيها مايشفى الغليل وخلاصة ماقالته ـ وهو مكتوب بصيغة واحدة فى الكتب الاربعة مما يدل على وحدة المصدر وعلى ان كل واحد منهم اعتمد على صاحبه، ولم يكلف نفسه مؤنة البحث والاستنتاج مكتفيا باثبات ماأثبته غيره ، هو ان النبى ﷺ لم يقم بالمدينة سوى سبع ليال ثم غزا بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فاقام عليه ثلاث ليال ثم عاد الى المدينة يلق كيدا

نعم هذا ما رواه ابن هشام وغيره من كتاب السيرة النبوية القدماء و زاد عليه بعضهم فقال ان بنى سليم هربوا حينما علموا بخروج المسلمين لقتالهم تاركين نعمهم وعددها ٥٠٠ بعير غنموها وعادوا بها الى المدينة واقتسموها حينما اقتربوا منها

ومما يستوقف النظر فى هذه الغزوة ويهمنا نحن بوجه خاص ان نسجله كونها:

المرة الاولى التى يغزو المسلمون فيها شرقى المدينة فقد اقتصرت اعمالهم العسكرية فى المرحلة الاولى على جنوبيها (بدر) وشمالها (الابواء) وغربها رابغ وقديد . اما فى هذه المرة فقد ولوا وجههم شطر الشرق عاملين على اخضاع قبائله فقصــدوا بنى سليم وعادوا ولم يشتبكوا فى معركة معها لانها أحجمت عن منازلتهم كما يؤخذ من أقوال المؤرخين، وخافت بأسهم وقوتهم ، ولولا ذلك لما تأخرت عن قتالهم . واذا صح ماجاء فى الروايات الاخرى وهو انهم عادوا من هذه الغزوة بخمسمائة بعير فيكون الفوز مضاعفا

٣

أول اصطدام بين المسلمين واليهود

جلاء بنى قينقاع

تبسطنا فى الكلام ونحن ندرس حالة اليهود فى الحجاز حين ظهور الاسلام ، (انظر ص ٣١) عن العوامل التى ادت الى اصطدام المسلمين باليهود . وقلنا ان فى مقدمتها التنافس الاقتصادى والتنازع على السيادة والنفوذ فقد كان اليهود يسيطرون على شمالى الحجاز سيطرة فعلية حين ظهور الاسلام وكانوا أصحاب النفوذ السياسى فى بواديه وحواضره ، كما كانوا يسيطرون عليه تجاريا وماليا فمرافقه فى ايديهم ، وتجارته خاصة بهم ، وامواله تجبى اليهم ، وكل شىء رهن أمرهم وتحت تصرفهم

وانتقلت الزعامة السياسية الى المسلمين حينما نزلوا المدينة وانشأوا جماعتهم وتمثلت فى شخص النبي ﷺ ، زعيم المسلمين وكبيرهم فصار سيد المدينة غير مدافع وصار المرجع الوحيد فيها ، وحسبك انه استخلف خليفة عنه فى ادارتها عند خروجه لاول غزوة فى السنة الاولى للهجرة ، ومعنى ذلك انه صار سيدها وصاحب الرأى الاعلى فى أمورها . ومن تحصيل الحاصل القول ان ظهور المسلمين بهذا المظهر من القوة ، و بسطهم نفوذهم السياسى على المدينة وعلى المناطق المجاورة ، كسف النفوذ اليهودى وغطى عليه يضاف الى هذا مزاحمة المهاجرين المكيين لليهود اقتصاديا ، وانشاؤهم سوقا الى جانب سوقهم مما أثر فى نفوس هؤلاء فاخذوا يجاهرون

المسلمين بالعداء ويكيدون لهم ويطعنون فيهم وفى دينهم ، فصبر المسلمون على مضض فى اول الامر، لأنهم كانوا ضعافا، ولانهم لم يروا من مصلحتهم أن يشتبكوا فى نضال مع اليهود، ولا يزالون فى نضال مع قريش ولا تزال تطاردهم ، وتقفو اثرهم

وتبدل الموقف فى المدينة بعد عودة المسلمين مثقلين بالغنائم والاسرى من بدر و بعد رجوعهم موفقين من بنى سليم ، فاستقر رأيهم على تصفية الحساب مع يهود المدينة ، أى يهود بنى قينقاع وحدهم وقد قلنا من قبل انهم كانوا يقيمون فى داخلها وقدرنا عدد نفوسهم بالف وخمسمائة على وجه تقريبى وانهم كانوا يضايقون المسلمين ويسيئون اليهم

والمؤرخون على خلاف فى وصف الأسباب الظاهرية التى سببت الصدام، والذى عليه الاجماع هو ان النبى ﷺ زار سوقهم بعد رجوعه من بنى سليم(سوق بنى قينقاع) فاجتمعوا حوله فدعاهم الى الاسلام والدخول فى دينه ، لان ذلك أفضل وسيلة لحل مشكلاتهم لو تم، وقال لهم « يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل مانزل بقريش من النقمة ، واسلموا فانكم قد عرفتم انى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله اليكم» فابوا اجابة دعوته واستكبروا استكبارا وقالوا له والعجب والغرور يملأ أوداجهم :

« يامحمد انك ترى اننا كقومك . لايغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن انا نحن الناس »

ولم يسفر هذا الاجتماع عن نتيجة، فقد اكتفى النبى ﷺ فيه بدعوتهم الى دينه وتلك هى المرة الاولى فيما نظن يوجه اليهم مثل هذه الدعوة ، ثم حذرهم من الوقوع فيما وقعت فيه قريش حينما أنكرت دعوته وحاربته وهددهم ضمنا بالقتال اذا اتبعوا ما اتبعته قريش

والواقع أن دخول اليهود فى الاسلام كان الوسيلة الوحيدة لحل الخلاف بينه و بينهم

فى تلك الايام لانه لم يعد المسلمون يامنون جانبهم بعد الذى وقع من المهاترات والمناقشات اللفظية

وقال اليهود فى الرد على انذاره انتا كقومك أى اننا لسنا باعدائك وخصومك، وقوم الرجل هم آله وعصيته ، ولذلك فلا موجب لقتالنا ونزالنا ، ثم قالوا واذا كنت لاتنظر الينا بهذه النظرة ، ولا تريد أن تعاملنا بما تعامل به قومك وأبيت الا محاربتنا فاعلم انا نحن الناس ، ومعنى ذلك أنهم أرادوا أن يقابلوا تهديده بتهديد مثله وكما حذرهم من الوقوع فيما وقعت فيه قريش، حذروه من التورط فى حربهم لانهم أقوياء ولانهم هم الناس

وثمة حادث آخر تلى هذا الحادث رواه ابن هشام، وخلاصته ان عربية جاءت الى سوق بنى قينقاع بجلب لها فباعته ثم جلست الى صائغ يهودى فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعقد الصائغ طرف ثوبها الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله فانتصر اليهود لصاحبهم وقتلوا المسلم فغضب المسلمون وحملوا على اليهود فجاء هؤلاء الى حصنهم ، فضرب المسلمون الحصار حوله وقطعوا كل صلة لهم بالخارج

وحاول بعض الباحثين جرح هذا الخبر بحجة أنه لم يرد فى المصادر الاخرى وعندنا أن عدم ايراد الطبرى له لايجوز أن يتخذ وسيلة للطعن فيه فحدوثه غير مستبعد من الوجهة المادية كما انه لاينطوى على شىء غير معقول من الوجهة الاخبارية سيما وهو يقص حادثة تتكرر تقريبا فى أسواق الشام والعراق وطالما تحرش بعض شبان التجار هنا وهنالك بالفتيات البدويات اللواتى يرتدن الاسواق وسخروا منهن سالكين نفس الطريقة التى اتبعت فى سوق بنى قينقاع أو ما يماثلها

وعندنا ان للمسألة لم تكن مسألة امرأة عربية اعتدى عليها وانما كانت مسألة جوهرية للمسلمين فهم بعد وقوع ماوقع بينهم و بين قريش من جهة، وكانوا يترقبون حملتها عليهم من وقت الى آخر طلبا لثأرها ، و بعد ماجرى بينهم و بين اليهود من

المناقشات والمساجلات والملاحكات ، و بعد ان رفض هؤلاءماعرضوه عليهم من الدخول فى دينهم والاشتراك فى جماعتهم، كانوا بين أمرين : اما ان يسكتوا عنهم و يتحملوا اذاهم واما ان يقاتلوهم ويتخلصوا منهم . وحدث حادث السوق ، فحملوا عليهم ، فنجحوا نجاحا عظيما اضيف الى سلسلة انتصاراتهم المتتابعة فعزز مقامهم

وخلاصة ماوقع هو ان بنى قينقاع لجأوا الى حصنهم حينما حمل عليهم المسلمون وكان ذلك فى شهر شوال من السنة الثانية، وكان عددهم ٧٠٠ مقاتل كما علمت (٣٠٠ دارع و ٤٠٠ حاسر) فضرب المسلمون نطاقا حولهم وقطعوا كل اتصال بينهم و بين الخارج

ويؤخذ مما لدينا من المصادر ان القينقاعيين كانوا يعتمدون فى نضالهم مع المسلمين وفى رفض مطالبهم ، على تأييد حلفائهم الخزرج فقد انضموا اليهم يوم بعاث (وهو اليوم الذى اقتتل فيه الاوس والخزرج فانضم بنو قينقاع الى هؤلاء ونصروهم ، كما انضم بنو قريظة الى الاوس ونصروهم) ومعنى ذلك انه لم تكن هنالك رابطة سياسية بين يهود المدينة انفسهم ، بل كانوا منقسمين الى قسمين : قسم يوالى الاوس وقسم يوالى الخزرج . ولعلهم ارادوا من هذا التدبير اكتساب ود الفريقين على السواء فلا يخرجون عليهم . وعلى كل حال فان قعود بنى النضير وقريظة عن نصرتهم حينما حاصرهم المسلمون وعدم تدخلهم يدل دلالة واضحة على فقدان الرابطة من بينهم ولو نهضوا لنصرتهم قبل ان ينكبوا ويجلوا عن بلادهم لوقوهم شر الطرد على الاقل . وقد لايبعد ان يكون تغافلهم عنهم نشأ عن المنافسات التى كانت بينهم بسبب يوم بعاث ولا يصح أن يتخذ ذلك باى حال مسوغا يسوغ عمل بنى قريظة و بنى النضير ، وخصوصا بعد مااتحد الاوس والخزرج انفسهم —وهم الذين كانوا يتقاتلون فى الاصل— تحت راية النبى ﷺ ونهضوا معه لمحاصرة بنى قينقاع . اما يهود خيبر فما كان فى استطاعتهم ان يفعلوا شيئا لدفع مانزل باخوانهم من ضر لان المدة بين الهجوم عليهم ومحاصرتهم واجلائهم لم تزد على ١٥ يوما وهى لاتكفى لوصول الاخبار الى خيبر

ـ وتبعد عن المدينة نحو ١٢٠ كيلو مترا أو مسيرة اربعة أيام ـ ولتجهزهم وسيرهم لنجدتهم سيما ولم يكونوا حلفاءهم . يضاف الى هذا ان اليهود انفسهم ما كانوا حتى ذلك الوقت يوجسون خيفة من الاسلام ولا يخافون من انتشاره وربما كانوا يعتقدون ان قريشا وحدها كافية للقضاء عليه فلماذا يتعبون انفسهم بقتاله ؟ ولا نشك فى انهم لو عرفوا ان امره سيؤول الى ما آل اليه من الاتساع والانتشار لما قعدوا عن مناوأته والتألب عليه ، وقد فعل بعضهم ذلك متأخرا اى بعد فوات الوقت فكان سببا فى التعجيل عليهم

وعلى كل فحادث بنى قينقاع دل على ضعف رابطة اليهود الاجتماعية فى الحجاز وعلى انهم لم يكونوا على اتفاق وولاء ولئن سيطروا على شمال الحجاز فما ذلك الا لكثرة عددهم من جهة ووفرة ثروتهم من جهة اخرى ، وادخار المال وجمعه من الغرائز المركوزة فى روح اليهودي بعكس الغريزة السياسية (أى الروح السياسية) فهى مفقودة منه أو ضعيفة فيه على الاقل

وقعد عبد الله بن أبى زعيم الخزرج عن مساعدة حلفائه اليهود عسكريا ، وما كان يستطيع غير ذلك فى اعتقادنا لان قومه ما كانوا يطيعونه فى الخروج على المسلمين لتأييد اليهود ، بعد ماذاقوا لذة النصر والغنم فى بدر وبنى سليم ، ويوشكون أن يذوقوها غدا فى بنى قينقاع ، ولو نفذت اقتراحات عبد الله بن ابى فى تأييدهم ، لادت الى تجدد الحرب بينهم وبين ابناء عمهم الاوس ونزلائهم المهاجرين المكيين ولا مصلحة لهم فى تجددها ، اى انه لم يكن فى استطاعته ان يساعدهم عسكريا ولو استطاع لما تأخر للتخلص من مزاحمة المسلمين ونفوذهم ، فاكتفى بان توسط لهم عند الرسول ﷺ حينما استسلموا بلا قيد ولا شرط لانهم ادركوا عجزهم عن القتال وعرفوا انه ليس هناك من يفكر فى نجدتهم والدفاع عنهم ، وذلك بعد خمسة عشر يوما فقط من ضرب الحصار عليهم

نعم لقد استسلم بنو قينقاع ـ وكانوا يهددون المسلمين ويقولون انهم هم

الناس وهم كيت وكيت ، بلا حرب أوقتال ، ومن دون أن يريقوا قطرة واحـدة من دمائهـم ، أو يطلقوا سهما واحدا فى الدفاع عن حوضهـم و وطنهم وكرامتهم ، مع ان عددهم لم يكن قليـلا ، ومع انه كان فى استطاعتهـم المقاومة مدة غـير قليلة فى ما نعتقد ، لأنهم يأوون الى حصن حصين وما كان للمسلمين مثـله ، كما أن سلاحهم كان اوفر ومثل ذلك عدد المقاتلين منهم فما كانوا يقلون عن عدد محاربى المسلمين اى انهم كانوا يملكون من الوسائل المـادية مالا يملكه المسلمون، الا انهـم ابوا القتال وفضـلوا الجـلاء على الاسـلام ولو اسلموا لبقوا واقاموا و يلوح لنا ان تفضيلهم الجلاء نشأ عن اعتقادهم بانه لم يعد فى امكانهم البقاء فى المدينة بعد ما انتزع المسلمون منهم السيادتين السـياسية والاقتصادية واصبحوا اصحاب الحول والطول وصار عليهـم ان يقيموا تحت سلطانهم

ولمـا أعلن اليهود استسلامهم بدون قيـد ولا شرط وفوضوا امرهم الى النبى ، واوشك أن يصدر حكمه فيهـم ، تقدم اليه ، عبد الله بن ابى متوسطا وقال : «يا محمد احسن فى موالى» اى انصارى وحلفائى فـلم يرد عليه فـكرر القول فاعرض عنـه فادخل يده فى جيبه فقال له دعنى وكرر عليه القول بان يدعه فاجابه « والله لا ادعك حـتى تحسن الى فى موالى ٤٠٠ حاسر و ٣٠٠ دراع منعونى من الاسود والاحمر تحصدهم فى غداة واحدة والله انى لا آمن واخشى الدوائر »

وأثر كلامه فى نفس الرسول فقال له هم لك ثم امر بان يكتفى باجلائهم واشرف على عملية الجلاء عبادة بن الصـامت زعيم الخزرج الآخر وقد استمرت ثلاثة ايام فغادروا المدينـة متجهين الى الشمال ومعهم نسـاؤهم واطفالهم وذراريهـم فنزلوا فى الشرارات (اراضى شرقى الاردن الجنوبية) ولم يقتل منهم احد ولم يفقـد منهم أحد فـكانوا اول يهود اجلاهم المسلمون عن جزيرة العرب وكان اجلاؤهم على هذا المنوال نذيرا للقبائل اليهودية الاخرى لم يغب عن ادراك بعيـدى النظر من زعمائها وكبارها فعكفوا على مناوأة الاسلام والـكيد له فلم يغن ذلك عنهم شيئا

وغنم المسلمون غنائم كثيرة من بنى قينقاع واقتسموا بيوتهم ومنازلهم كما حازوا كمية من سلاحهم فازدادوا بها قوة . والحاصل ان اجلاء بنى قينقاع وتفرد المسلمين بالسيادة فى المدينة وغنمهم ما غنموه من اموال واسلاب ، فوز لايستهان به من الوجهتين المادية والادبية ؛ فقد عزز مقامهم وشجعهم على المضى فى الكفاح والنضال فتغلبوا على خصومهم ومنافسيهم الواحد بعد الآخر

٤

قريش تطالب بثأرها

ابو سفيان يستطلع حالة المدينة ويعمل لاستمالة اليهود ومحالفتهم

لم يسجل تاريخ قريش منذ تغلبها على قضاعة و بسطها نفوذها على مكة و واديها وقد تم ذلك على يد قصى جدها ومؤسس مجدها ، انها نكبت بمثل النكبة التى حلت بها فى يوم بدر ، فقتل سبعين من رجالها واسر ٧٠ مثلهم من الحوادث الخطيرة فى جزيرة العرب، ويكون عدد القتلى قليلا فى الغالب بينهم لأنهم يضنون بالنفس يبذلونها فى أمور عادية ، ويكتفون فى الغالب بغارات يغيرونها فاذا فازوا بالحصول على مايريدونه أو بعضه فهو المقصود والا عادوا أدراجهم . ويتبدل الموقف اذا كانوا مصممين على الاستقتال والاستماتة ففى هذه الحالة وفيها وحدها ، يأتون بذراريهم ونسائهم لتضرم فى صدورهم نار الحماسة ولتشجعهم على الثبات ، وقد فعل القرشيون ذلك فى يومين على ما نذكر : يوم احد فى الجاهلية ويوم اليرموك فى الاسلام وهم على كل حال لايفعلونه الا فى الموقف الحرج ، ومن يدرس تاريخ حرب الفجار وقد امتدت سنوات بين قريش ومن معها من كنانة و بين قيس عيلان من هوازن يتبين انه لم يقتل من الفريقين مثل هذا العدد مع انهم خاضوا معارك كثيرة فى أوقات مختلفة

وعظم المصاب على قريش وقامت النائحات فى بيوتها ومنازلها ، ويقول المؤرخون الثقاة ان النكبة شملت بيوت مكة وأسرها الكبيرة فلم يسلم منها أحد ، ونظم الشعراء المراثى وقام النادبون يندبون القتلى ويحثون على المطالبة بثأرهم والانتقام من قاتليهم وتلك عادات العرب وتقاليدها

وفى شهر ذى الحجة وهو الشهر الرابع لمعركة بدر (وكانت فى شهر رمضان) شاع فى المدينة ان ابا سفيان بن حرب غادر مكة يقود ٢٠٠ راكب من قريش فسلك النجدية ، وهو طريق قديم لايسلكه سوى عرب تلك الجهات فى الوقت الحاضر ، وظل يتقدم حتى نزل فى جبل يقال له نيب على مسافة ١٥ كيلو مترا من المدينة ثم خرج فى الليل حتى اتى بنى النضير — و ينزلون غربى المدينة — فطرق باب حيي بن اخطب وهو من كبارهم فأبى أن يفتح له فقصد اطمة سلام بن مشكم سيد القوم فدخل عليه وقضى عنده ليلته . . . .

وبديهى أن أبا سفيان لم يطرق ديار بنى النضير ، ولم يجتمع بزعمائهم ، ويجب أن يلاحظ بأن قدومه كان فى شهر ذى الحجة أى بعد شهرين من غزوة بنى قينقاع وطردهم من المدينة ولا نشك أنه أثر أثرا عميقا فى جيرانهم وأبناء عمومتهم ومن يدرى ؟ فقد يكون بينهم من ندم لقعودهم عن نصرتهم

ولم تخف هذه الاعتبارات على ابى سفيان وهو الذكى الالمعى، فقصدهم ليجتمع بزعمائهم ، وليسعى فى الانشاء تحالف بينهم و بينه والقبيلان موتوران من المسلمين فيتعاونان على قتالهم و يوحدان الخطط للقضاء عليهم ، وتلك كانت احدى الغايات التى رمى اليها أبو سفيان من رحلته الى المدينة و زيارته لبنى النضير ، ولو كان يريد مهاجمة المدينة فعلا لجاء بقوات أكبر كما فعل يوم احد بعد ذلك

وهنالك غاية أخرى وهى تجسس حال المسلمين وعجم عودهم ودرس علاقاتهم بجيرانهم ، وقد ادرك أبو سفيان كل ذلك من اجتماعه بسلام بن مشكم سيد بنى النضير فأطلعه على حالة المدينة وما كان يجهل مايجرى فى داخلها ، ويلوح لنا انه لم يوفق فى حمل يهود بنى النضير على محالفة قريش ، لانهم كانوا يرون ان مصلحتهم الخاصة تقضى بأن لايزجوا بأنفسهم فى حرب طاحنة لاناقة لهم فيها ولا جمل سيما وقد كانت العلاقات بينهم و بين المسلمين حسنة اجمالا حتى ذلك الوقت وكانوا مرتبطين باتفاقات تقضى عليهم بأن يشتركوا معهم فى الدفاع عن المدينة اذا هاجمها مهاجم أى ان معاهدتهم كانت دفاعية فقط

وأراد أبو سفيان ـ بعد ما اجتمع بابن مشكم ودرس الحالة عن كثب وعرف ما يود معرفته ـ ألا يعود من دون ان يعمل عملا ماديا يشعر المسلمين بوصوله الى قرب عاصمتهم فأرسل حين الرحيل جماعة من رجاله فهاجموا العريض فى ضاحية المدينة فحرقوا نخلا وقتلوا معبد بن عمرو الانصارى وحليفا له كانا فيها ثم عادوا على الأثر فانضموا الى رفقائهم فارتحلوا من دون أن يقفوا لمنازلة المسلمين

وغادر النبي ﷺ المدينة على الأثر يقود ٢٠٠ من المهاجرين والانصار فى طلب المكيين فلم يدركهم فواصل التقدم حتى بلغ قرقرة الكدر على طريق مكة فوقف فيها مدة ثم قفل من دون أن يشتبك معهم وتعرف هذه الحادثة فى السيرة النبوية بغزوة السويق لان القريشيين طرحوا فى رجوعهم الى مكة كمية من زادهم ومن السويق فغنمه المسلمون وأضافوا الغزوة اليه

ولم يطل المطال بعد ذلك على قريش حتى جمعت قواها ورجالها وزحفت بها على المدينة فوقعت معركة أحد وستقرأ تفاصيلها فى الصفحات التالية

٥

غزوة غطفان

كانت قبيلة غطفان من قبائل الحجاز المعروفة فى تلك الايام، والظاهر انها بادت فلم نعثر لها علـى أثر ، وكانت تنزل شرقى المدينـة على طريق نجد فى منطقة قريبة من منازل فزارة وسليم وعبس وذبيان وتبعد منازلها عن المدينة نحو ١٥٠ كيلو مترا ويرجح أن تـكون فى منطقة الحناكية المعروفة فى شرقى المدينة الآن

ولقد تبسطنا عند الكلام على غزوة بنى سليم (انظر ص ٦٣) عن غاية المسلمين من توسيع منطقة أعمالهم العسكرية فى شرقى المدينة وقلنا انهم كانوا يرمون الى اخضاع قبائله الكثيرة وقد بدأوا ببنى سليم فخافوهم ولجأوا الى رؤوس الجبال فعادوا من دون أن يشتبكوا معهم فى قتال ، وجنوا فوائد أدبيـة ومادية من غزوتهم تلك ووضعوا حجر الاساس فى توسعهم بالمنطقة الشرقية

ووصلت الاخبار الى المدينـة فى شهر المحرم من السنة الثانية بأن جمعا من بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا بقيادة دعثور بن الحارث المحاربى يريدون غزو المدينة ، فخرج النبي ﷺ على رأس ٤٥٠ مقاتلا يقصدهم فلجأوا الى رؤوس الجبال عند دنوه من أرضهم

ويجب أن يلاحظ أن مجموع جيش المسلمين زاد فى هذه الحملة ١٣٧ رجلا بالنسبة لعدده يوم بدر فقد كان حينئذ ٣١٣ وهو الآن ٤٥٠ أى ان الزيادة بلغت نحو الثلث تقريبا ، وقضى شهرين فى نجد للبحث والاستطلاع وتعرف حالة تلك البلاد وقبائلها ورجالها تمهيدا للاعمال المقبلة التى كان ينوى القيام بها فى أرجائها عند سنوح الفرص

وليس هذا كل مافعله المسلمون فى نجد خلال تلك المرحلة فقد عادوا اليها للمرة

الثالثة فى شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة . و بيان ماوقع أن أخبارا وصلت اليهم بان أبا سفيان بن حرب وصفوان بن امية وحويطب بن ابى العزى من تجار قريش خرجوا بقافلة كبيرة يطلبون العراق ، بدلا من الشام خوفا من المسلمين وقد أصبحوا يسيطرون على شمالى الحجاز .

وسير النبي ﷺ على الفور قوة بقيادة زيد بن حارثة على رأس ١٠٠ راكب فالتقت بقافلة قريش عند ماء يقال له (الـكدر) فى نجد فهاجمتها فهرب الذين كانوا فيها من الرجال والظاهر أن عـددهم كان قليلا ، لانهم ما كانوا يتوقعون مهاجمـة المسلمين فى أراضى نجد ، وغنمها هؤلاء وعادوا بها الى المدينـة ، وهى أول قافـلة يغنمونها .

ويقول المؤرخون انه كان فيها فضة كثيرة ، وان سهم بيت مال المسلمين وهو الخمس بلغ ٢٥ الف درهم من غنائمها وهو مبلغ لايستهان به

٦

احـد

زاد تتابع الحوادث وسيرها فى احقاد قريش ، ودفعها الى التعجيل بمحاربة المسلمين ، وللقضاء على نفوذهم واستعادة ما كان لها من مقام كادت تفقده ؛ فمن نكبة بدر الكبرى ، الى تهديد خط تجارتها مع الشام وقد انقطع او كاد فى السنة الثانية لظهور المسلمين فى الشمال ، الى سيطرتهم على تلك المنطقة الواسعة ؛ ولولا ذلك لما اضطر ابو سفيان الى السفر للعراق ، ولم ينجه ذلك منهم فقد هاجموه وانتزعوا قافلته وامواله فانقلب يدعو ويلا وثبورا

فهذه الاعتبارات الجوهرية تضاف اليها الرغبة فى استعادة السيادة والسلطان واعادة الامور فى شمالى الحجاز الى ما كانت عليه ، جعلت قريشا تسرع فى اعداد حملتها الكبرى على المدينة ولم يبخل زعماؤها واغنياؤها بالمال ، فقد جادوا به كما اثبت المؤرخون ، وسلموه الى ابى سفيان وأطلقوا يده اطلاقا تاما فى اتخاذ مايراه من تدابير

وقضى ابو سفيان اشهرا يعد ويستعد، ولما تكاملت قواه وكان ذلك فى شهر رمضان (اى بعد سنة من معركة بدر الاولى) وثلاثة اشهر من معركة « الكدر » فى نجد،واعتقد ان رجاله قادرون على اقتحام المدينة والتغلب على المسلمين وخضد شوكتهم سار بهم اليها لقتالها ، والانتقام من سكانها ، وتألف جيش قريش فى هذه المرة من ٤ عناصر :

١ ـ الاحابيش وهم جيش مكة الاهلى
٢ ـ المتطوعون من ابناء مكة وصناديدها
٣ ـ بنو كنانة احلاف قريش
٤ ـ قبائل تهامة « »

ويقولون ان عدد رجالها بلغ ثلاثة آلاف مقاتل منهم ٧٠٠ دارع يملكون عددا كبيرا من الابل والخيل والسلاح والذخيرة

وصحبت بعض نساء مكة وفى مقدمتهن هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة ابى سفيان وابنة عتبة المقتول يوم بدر مع ابنه الوليد ـ الجيش وغنى عن البيان ان خروج النساء معهم يدل على ان قريشا كانت جادة وعلى انها ادركت ان تساهلها مع المسلمين فى أول الامر ، عاد عليها بالوبال فجاءت تتلافاه وتتلو عليهم درسا فى الشجاعة والنجدة يعيد اليها مكانتها بين القبائل ويفتح طريق الشام فى وجه تجارتها الواسعة

ولم يكن مايجرى بمكة من استعداد بخاف على الرسول ﷺ فقد كان عمه العباس يطلعه على التفصيلات ، وكان ذلك شأنه فى معظم الأدوار ومما لاريب فيه ان ضلع الذين ظلوا فى مكة من الهاشميين كان مع الرسول فكانوا يعطفون عليه وان لم يدخلوا فى دينه ، يؤيد هذا قوله لاصحابه يوم بدر قبل المعركة « من لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فانما خرج مستكرها » فرد عليه ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وكان من المسلمين الاولين وقد هاجر الى المدينة واشترك فى بدر قائلا : « أنقتل آباءنا وابناءنا واخواننا وعشيرتنا وتترك العباس ؟ والله لئن لقيته لالجمنه بالسيف ، وقد اسر العباس فى تلك المعركة وقتل فيها ربيعة والد ابى حذيفة والوليد شقيقه وشيبة عمه

وكتب العباس الى ابن أخيه بما جرى ووصف له الحالة فلما تلقى النبى الرسالة جمع المسلمين على الفور وأخبرهم بسير قريش لقتالهم وسألهم عما يرونه وكان من رأيه ان يقيموا مدافعين داخل سور المدينة وقال لهم (دعوهم حيث نزلوا فان اقاموا اقاموا بشر وان دخلوا علينا قاتلناهم) وايد عبد الله بن أبى ابن سلول هذا الرأى وقال يا رسول الله اقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدو لنا قط الا اصاب منا ولا دخلها علينا الا اصبنا منه فدعهم يارسول

الله فان اقاموا اقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا

وكان المنطق السليم يقضى على جمهور المسلمين بالاخذ بهذا الرأى الناضج بيد ان فريقا كبيرا منهم وفى مقدمتهم الشبان وكانوا لايزالوا نشوى بخمرة انتصار بدر كبر عليه الوقوف وراء الاسوار وألحوا على الرسول بأن يخرج بهم الى القتال فلا يقول الناس ان المسلمين ضعفوا أو جبنوا

ومع انه كان من رأيه عدم الخروج كما قدمنا وهو ما تقضى به مصلحة المسلمين وكانوا لايزالون اقلية بالنسبة لقريش ويوحى به الفن العسكرى الا انه قرر الخروج اخذا برأى الاكثرية لئلا يتهم بالاستئثار فدخل الى منزله ولبس لامته وتهيأ للحرب ثم خرج اليهم يدعوهم الى الخروج فحاول بعضهم القعود وقال له انهم استكرهوا الخروج وانهم يرون البقاء فى المدينة ولقاءهم فيها عملا برأيه الاول فانكر عليهم ترددهم وقال « ماينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » واصر على الخروج لانه رأى أن المصلحة تقضى به وخرج بالقوم وعددهم الف محارب قاصدا جبل أحد وذلك يوم الجمعة ١٤ شوال

جبل احد

وجبل أحد فى شمالى المدينة وبينه وبينها خمس كيلو مترات ، وهو فوق واد يعرف باسمه ، وقد اختاره النبى ﷺ مقرا لجيشه ، مع أنه واقع فى شمالها وقريش قادمة من الجنوب ، لانه أدرك ان تحصن المسلمين فيه يفيدهم فائدة كبيرة من الوجهة العسكرية ، ولا بد لنا من القول ان احتشاد المسلمين فى أحد معناه انهم تخلوا عن المدينة، وما كان تخليهم عنها ذات أهمية من الوجهة العسكرية مادامت قواهم سليمة لم يتطرق اليها الوهن والضعف

التخاذل فى جيش المسلمين

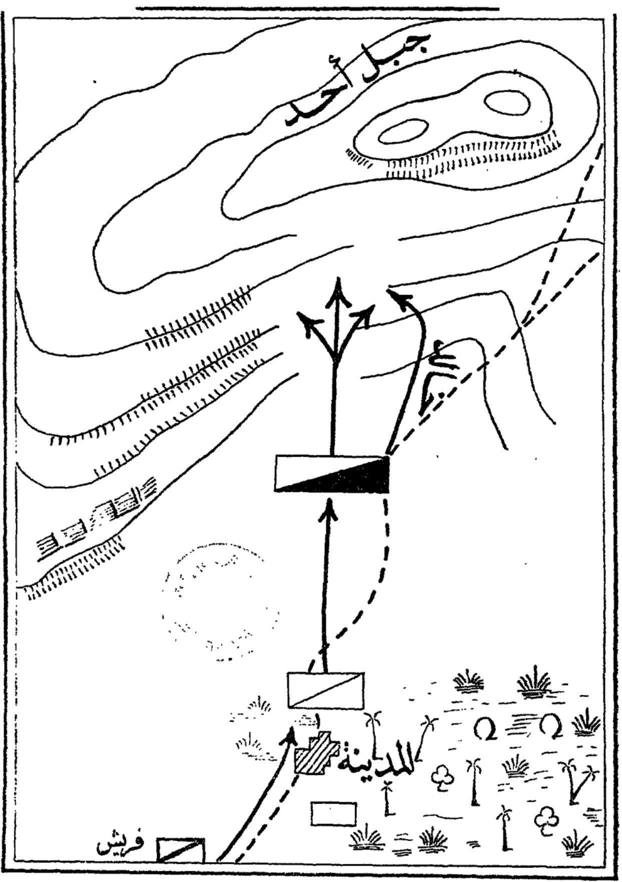
واغتنم عبد الله بن أبى ـ وقد كان يحسد النبى ﷺ كما قدمنا ويود التخلص منه فينفرد بالسيادة على المدينة ـ فرصة عدم أخذ المسلمين بما أشار به من التحصن وراء الاسوار وخروجهم للقتال ، فخاطب قومه وهم فى الشوط على طريق أحد أى بعد خروجهم من المدينة ، وقال لهم « ارجعوا أيها الناس ماندرى علام نقتل انفسنا هنا ، فقد أطاعهم وعصانى » ثم رجع ورجع معه ٣٠٠ من قومه . فلم يؤثر ذلك فى نفوس الباقين وواصل النبى ﷺ السير بالذين ظلوا معه وعددهم ٧٠٠ حتى بلغوا احدا فنزلوا فيه

اليهود والدفاع عن المدينة

وعملا بما تقضى به المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود دعا بنى قريظة والنضير الى الاشتراك معهم فى الدفاع عن المدينة ، فاعتذروا بأن المعركة تقع فى يوم سبت وهم لايحملون سلاحافيه ، وقالوا ان المعاهدة نفسها تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التى تقع بعيدا عن المدينة ، أى انهم لايقاتلون الا فى داخل الاسوار فقط

وشذ مخيريق من احلاف بنى النضير عن جماعته وقال لهم لاسبت لكم وأخذ سيفه وعدته وتطوع فى جيش المسلمين وقال ان أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء وقاتل حتى قتل ، فقال النبى ﷺ كلمته المشهورة « مخيريق خير اليهود » على ان هنالك من المؤرخين من يزعم أن النبى ﷺ لم يستنصر باليهود ولم يدعهم الى الاشتراك معه فى قتال فقد روى ابن هشام ان الانصار سألوه قائلين « ألا نستعين بحلفائنا اليهود؟ فقال لاحاجة لنا بهم » ويلوح لنا أن الرأى الأول أقرب الى الصحة

غـــزوة أحـــد



تعبئة الجيش

عبأ المسلمون جيشهم فى عدوة وادى احد جاعلين ظهرهم الى الجبل وذلك قبل وصول قريش واقام النبي ﷺ الرماة وعددهم ٥٠ فى الجناح الأيسر على اكمة وأمرهم بأن لايغادروا مكانهم مهما كان سير القتال ، كما أمر المشاة بأن لايبدأوا قريشا بقتال قبل ان تبدأهم

وأقبلت قريش بعد ذلك برجالها وظعنها فنزلت بالسنجة تجاه المسلمين ورتبت قواها وقدمت الرماة فى الصف الاول ، وجعلت الفرسان وكان عددهم ٢٠٠ على الجناحين وكان خالد بن الوليد يقود الجناح الايمن وعكرمة بن ابى جهل يقود الجناح الايسر ، وقاد صفوان بن امية المشاة وكانت القيادة العليا لابى سفيان ، فكان هنالك اموى وهاشمى يتنازلان ويتقاتلان

وكان عدد النساء فى جيش قريش ١٧ امرأة المهن فى الساقة لرد المنهزمين واضرام نار الحماسة فى الصدور بأناشيدهن وأقوالهن وقد ادين فى تلك المعركة أجل الخدم

المعركة

ودارت المعركة بشدة وصدق المسلمون الحملة على قريش فوقع الذعر والاضطراب فى صفوفها ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا الى الظعن اى الى الساقة ورجال قريش يفرون من أمامهم

وظن رماة المسلمين ان المعركة انتهت ، حين رأوا قريشا تتراجع منهزمة ، واعتقدوا ان كل شيء تم وان النصر تقرر للمسلمين ، فغادروا اماكنهم فى الجبل وانحدروا ينادون الغنيمة الغنيمة ، وعبثا حاول قائدهم عبد الله بن جبير صدهم مذكرا اياهم بقول الرسول ، فلم يقفوا ولم يرتدوا وقالوا : « والله لنأتين الناس ولنصيبن

من الغنيمة فان المشركين قد انهزموا فما مقامنا هنا » ورأى خالد بن الوليد – وكان على جناح قريش الايمن – ان الفرصة سانحة للقيام بعمل حاسم فهجم بخيالته ملتفا وراء المسلمين وقاطعا عليهم خط رجعتهم ، فتبدل الموقف فجأة ، ووقع الذعر والاضطراب في صفوفهم ، وزاد في اضطرابهم وشتاتهم نداء منادى قريش بان محمدا قتل مع ان المقتول هو مصعب بن عمير فثبت القرشيون واطمأنوا وزلزل المسلمون ووجلوا

والواقع ان هجوم خالد الفجائى على المسلمين ، أوقع الذعر والاضطراب في صفوفهم، وفى نفوسهم ، فغادر بعضهم ميدان القتال لاحقا بالمدينة ، وتفرق غيرهم في اماكن أخرى وثبت قسم وهم الأقلون في الميدان وأحاطوا بالرسول ﷺ وقاتلوا دونه وأصابه سهم رماه عتبة بن أبى وقاص فشج وجهه وجرح شفته السفلى وكسر رباعيته (سنه) اليمنى فسال الدم على وجهه ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ، وسقط في حفرة فأخذ على بن ابى طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ومص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجهه ، وانتزع ابو عبيدة بن الجراح احدى الحلقتين من وجهه فسقطت ثنيته ثم انتزع الاخرى فسقطت ثنيته الاخرى

واستبشر المسلمون الذين ظلوا في الميدان واطمأنوا حينما عرفوا حياته ، فهرعوا اليه والتفوا حوله وعددهم ١٤ : سبعة من المهاجرين ومثلهم من الانصار وقاموا معه الى الشعب وكان منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام فتحصنوا فيه ، فلحق بهم أبى بن خلف من قريش محاولا قتله ، فتناول النبى حربة الحارث بن الصمة ورماه بها فسقط عن ظهر فرسه مجروحا ومات وهو في طريقه الى مكة

ومثلت قريش بعد انتهاء المعركة ببعض قتلى المسلمين ، فقد طافت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى جئن معها الميدان تجدع آذان القتلى وانوفهم، ولما وصلت الى حمزة ابن عبد المطلب بقرت بطنه واخرجت كبده فلاكتها فلم تسغها فلفظتها ، واتخذن من آذان القتلى وأنوفهم قلائد ليعدن بها الى مكة

واشرف ابو سفيان على الجبل فى المساء ونادى بأعلى صوته : انعمت فعال ان الحرب سجال يوم احد بيوم بدر . فرد عليه عمر بن الخطاب وقال: لاسواء بيننا قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار فقال له ابو سفيان هلم الى ياعمر فأمره الرسول ﷺ بأن يأتيه فأتاه فقال له انشدك الله يا عمر هل قتـل محمد فقال اللهم لا ثم انصرف بعد ان واعد المسلمين على اللقاء ببدر فى العام المقبل

وقضى الرسول ﷺ ليـلة الاحد فى أحـد وفى الصباح نادى بمن معه بالرحيل لمطاردة العدو فسار بمن معه حتى بلغ حمراء الاسد وتبعد عن المدينة نحو ١٢ كيلو مترا جنوبا فأقام فيها أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء ثم عاد الى المدينة .

واستشهـد من المسلمين يوم احـد ٧٠ من المهاجرين والانصار وخسرت قريش ٢٣ قتيلا

عوامل فشل المسلمين

معركة احـد هى المعركة الثانية التى وقف فيها المسلمون وجهـا الى وجه امام قريش وكانت نتيجتها انهزامهم وخسارتهم سبعين قتيـلا كانوا فى أشد الحاجة اليهم

ولا يحتاج الباحث الى كبير عنـاء ليعلل ماجرى ، ففى الحوادث التى بسطناها مايغنى عن كل اسهاب وتعليق فقدظهر منها ان المسلمين كانوا مترددين من أول الامر ، فقـد الحوا فى الخروج حينما ابلغوا ان قريشا سارت اليهم مع ان الرسول دعاهم الى البقاء وراء الاسوار . ثم عادوا بعد ذلك و بعد ماتم الاتفاق عـلى الخروج ، واقترحوا البقاء فأبى الرسـول ذلك عليهم لانه ادرك انه لو جاراهم لفقـد النظام من جيشه . وزاد الطين بلة تخـاذل عبد الله بن ابى ورجوعه ومن اطـاعه من قومه واحجامهم عن الاشتراك فى القتال بحجة انهم لم يصغوا لرأيه . وحاول عبـد الله بن عمرو بن حزام الانصارى اقناعه بالرجوع وقال له ولمن معه « ياقوم اذكركم الله ان لا

تخذلوا قومكم ونبيكم عند ماحضر عدوهم » فأبوا ولما استعصوا عليه قال لهم « أبعدكم الله اعداء الله فسيغني الله عنكم »

ومع كل ماوقع فقد كانت الغلبة عند الصدمة الاولى للمسلمين ، بيد ان ما اتاه الرماة بتخليهم عن اماكنهم وكانوا يحمون الجناح الايسر مكن خالد بن الوليد من قطع خط رجعتهم واختراق صفوفهم ، فتفرقت جموعهم . وتشتت قواهم

تلك هي العوامل المادية التي يلوح للباحث انها عملت فى فوز قريش وانهزام المسلمين ، فخروجهم من المدينة للحرب ، وماكان لهم ان يخرجوا بل كان عليهم ان يقاتلوا وراء اسوارها ، ثم ترددهم فى الخروج ثم تخاذل عبد الله بن ابى ثم تخلى الرماة عن اماكنهم ، ان هذه الاعتبارات ضمنت لقريش الانتصار والفوز بعد ماهزمت فى اول المعركة وكادت تمزق ايدى سبا . و بين الباحثين من يعتقد ان معظم الفضل فى مانالته قريش من فوز يعود الى خالد بن الوليد قائد جناحها الايمن فقد عرف ان يهتبل الفرصة حينما تخلى الرماة عن اماكنهم فهاجم بقواه المسلمين واخترق صفوفهم فكان النصر على يديه

وقنع قادة قريش بما ادركوه من فوز واقروا ما فعلته نساؤهم من التمثيل بالشهداء وازمعوا الرحيل معتقدين ان محمدا واصحابه قتلوا وان امرهم قد انتهى ، ولم يفكروا فى دخول المدينة او احتلالها ، وما كانت هناك قوة تصدهم وتقاومهم لو ارادوه

واسقط فى يد ابى سفيان فى المساء حينما قابله عمر بن الخطاب وابلغه ان محمدا لايزال على قيد الحياة ، ولم يبعثه ذلك على التوقف واستئناف القتال .

ولم يفقد النبي ﷺ شيئا من رباطة جأشه رغم ماحدث ، ولم يشغله جرحه واستهدافه للخطر عن امر المسلمين والمدينة ، فانه لم يكد يضمد جرحه و يطمئن على أصحابه حتى اوعز الى من حوله ، بان يستطلعوا خبر قريش و يعرفوا الناحية التى سلكتها فى رجوعها وقال لهم اذا ركبوا الخيل تكون المدينة وجهتهم اما اذا امتطوا



جبل.احد يطل على المدينة

الابل فتكون مكة وجهتهم فالابل اقدر على السفر الشاق البعيد من الخيل . ولما اخبروه انهم امتطوا الابل قال لقد عادوا الى مكة

وأدرك ابو سفيان بعد ما قطع مسافات انه اخطأ باسراعه فى الرجوع وعرف انه كان يجب عليه أن يجهز على المسلمين و يقضى على قواهم فعاودته فكرة الرجوع وكاد أن ينفذها لولا ما بلغه من لحوق النبي بهم على رأس قوة كبيرة وسعيه لادراكهم ومنازلتهم

و بيان ماوقع أن الرسول رحل بالذين ظلوا معه ، غداة المعركة اى صباح الاحد بعد ما قضوا الليلة فى أحد فساروا وسار على رأسهم لمطاردة قريش من دون ان يدخل المدينة وقد انضم اليهم قبل رحيلهم عدد من الصحابة الذين لجأوا اليها بعد الهزيمة و واصلوا السير حتى بلغوا حمراء الاسد وتبعد ١٢ كيلوا مترا عن المدينة على طريق مكة أى من ناحية الجنوب

ولقد ادرك بحركته هذه أغراضا شتى فأعاد القوة الادبية الى صدور أصحابه بعد الانهزام الذى اصابهم كما اقام الدليل لاعدائه على انه لايزال قادرا على الكفاح والنضال وان انكسار أحد لم يفقد عزيمته فارهبهم ومنعهم عن الرجوع الى قتاله وهو ماوقع فعلا . فقد روى ابن هشام أن أبا سفيان ومن معه توقفوا فى الروحاء وقد أجمعوا أمرهم على الرجوع الى المدينة للقضاء على المسلمين فمر بهم معبد بن أبي معبد الخزاعى فسأله أبو سفيان عما وراءه فقال له ان محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا وقد اجتمع حوله من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماضيعوا والحنق عليكم شديد فارتبك أبو سفيان وسأل معبدا عما يراه فنصحه بان يرتحل على الفور فقال لقد اجمعنا على أن نعود اليهم لنستأصلهم فقال له انى أنهاك عن ذلك شفقة عليكم

وانضم صفوان بن أمية وهو من كبارهم الى هذا الرأى وأشار بعدم الرجوع

فامتثلوا له ولو اعادوا الكرة على المدينة لكانت النكبة أعظم .

وهنالك أيضا غرض آخر رمى اليه من زحفه هذا وهو انه اراد اقامة الدليل لاعدائه ومنافسيه فى المدينة وحولها على انه لايزال قويا قادرا على متابعة الكفاح والنضال فانه ماكان يجهل انهم سيغتنمون الفرصة ليجددوا حملتهم على الاسلام وماسكتوا الا مكرهين مضطرين

٧

اجلاء بنى النضير

اضطربت الحالة فى المدينـة بعد أحد وارتفع رأس المعارضـة ، وازداد نشاط الشاغبين، وجهر ابن أبي وشيعته بمالم يكونوا يجسرون على الجهر به من قبل ، فسكت المسلمون على مضض، وصبروا لاعتقادهم ان حالتهم تلك لاتدوم ، وان الله ابتلاهم ليمتحنهم ويختبرهم ، وانه لابد من نصرهم وفوزهم فى النهاية

بعث عاصم بن ثابت

وزاد فى آلامهم ماوقع لبعث الرجيع ، ويسمونه أيضا سرية عاصم بن ثابت ، وبيان ذلك ان بعض بنى لحيان من بنى هذيل ـ وتنزل بين مكة والطائف ، والى الأولى أقرب، ولا تزال حتى الآن فى ديرتها ـ جاءوا عضلا والقارة وهما قبيلتان من بنى الهون ابن خزيمة بن مدركة فجعلوا لهم ابلا على ان يطلبوا رسول الله ﷺ فيخرج اليهم نفرا من أصحابه ، فجاء سبعة من هؤلاء الى المدينة فأظهروا الاسلام واقترحوا عليه أن يرسل معهم نفرا من أصحابه يفقهوهم فى الدين ويقرئوهم القرآن ويعلموهم شرائع الاسلام فبعث معهم ستة من الصحابة : عاصم بن ثابت الانصارى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وحبيب بن عدى الاوسى البدرى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وخالد بن البكير فغادروا المدينة فى شهر صفر من السنة الرابعة قاصدين الى هذيل لتعليمهم . وفى رواية أخرى انه كانت لهم مهمة أخرى غير تعليم هؤلاء وهى استطلاع اخبار قريش ومعرفة ماتعمله

وأخذ القوم السرية فجأة حينما بلغت ماء الرجيع « ديار هـذيل » وأحاطوا

برجالها فهرعوا الى سلاحهم للدفاع عن أنفسهم ، فقالوا لهم لا نريد قتالكم ، فلم يطمئنوا اليهم وقالوا والله لانقبل من مشرك عهدا ، وقاتل عاصم ومرثد وخالد حتى قتلوا واستسلم الثلاثة الآخرون فقيدوهم وقصدوا بهم مكة لبيعهم من اهلها وقبل أن يبلغوها تخلص عبد الله بن طارق منهم وانتضى سيفه لقتالهم فرموه بالحجارة فقتلوه فلم يبق معهما سوى حبيب وزيد فباعوهما من أهل مكة فقتلوهما وحزن المسلمون كثيرا على المصير السيء الذى صار اليه هؤلاء

بعث بئر معونة

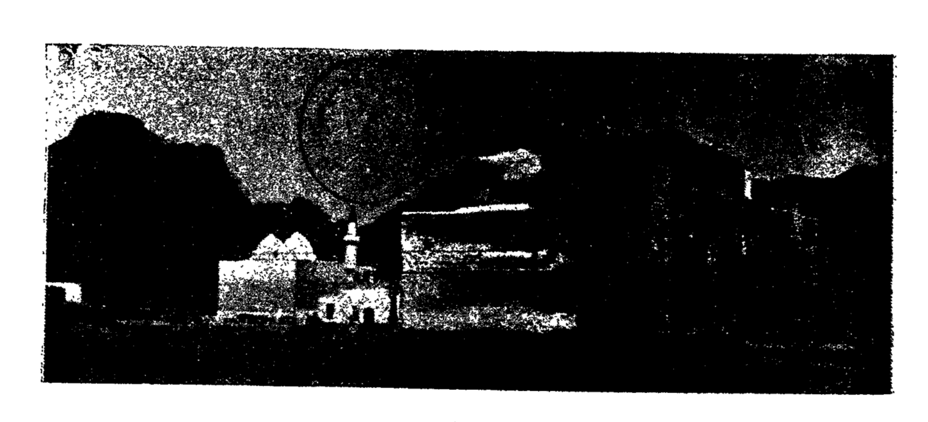
ولم يكد يجف دمعهم على هؤلاء حتى نكبوا نكبة أشد وأدهى ، فقد وفد على المدينة فى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة (أى فى نفس الشهر الذى غادر فيه المدينة عاصم بن ثابت) أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامرى ويعرف بملاعب الاسنة ، فعرض عليه النبي ﷺ الاسلام فلم يقبل ولم يرفض وقال له يامحمد انى أرى أمرك هذا حسنا وشريفا وقومى خلفى فلو انك بعثت معى نفرا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك

ــ اخشى عليهم اهل نجد

ــ انا لهم جار

ووثق النبي ﷺ بملاعب الاسنة فانتدب سبعين من قراء القرآن ، وكانوا يحفظونه ويرتلونه فى المسجد، برئاسة المنذر بن عمرو فساروا الى نجد للتبشير بالدين الاسلامى ونشره

وسار البعث وهو أول بعث يرسله المسلمون للتبشر الى نجد (شرقى المدينة) ولما بلغ بئر معونة (وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم) أرسل رئيسه كتابا الى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى العامرى (ابن أخى ملاعب الاسنة) حمله حرام بن ملحان اليه ، يدعوه الى الاسلام فقتل الرسول من دون



مسجد احد انشىء احياء لذكرى شهداء تلك المعركة

أن ينظر فى الكتاب ، ونادى قومه من بنى عامر ليثبوا على البعث فأبوا أن يجاروه وقالوا لن تخفر لأبى براء عهدا

ولجأ الى بعض القبائل المجاورة من سليم وذكوان ورعل ، بعد ان عجز عن اقناع قومه بجاراته ، واستنفرهم لقتال المسلمين فنفروا واستبطأ المنذر بن عمرو عودة رسوله فقصد ومن معه بنى عامر للبحث عنه فلقيهم عامر بمن معه فاشتبك الفريقان فى معركة دامية ، ولم تغن عن المسلمين شجاعتهم فقد تكاثر عليهم القوم فقتلوهم ولم ينج منهم سوى عمرو بن امية الضمرى ، فقد أطلق سراحه عامر بن الطفيل فداء عن والدته بعد ماجز ناصيته

وقد كان لقتل هؤلاء بعد قتل عاصم ومن معه ومجموعهم ٧٥ شهيدا أسوأ أثر فى نفوس المسلمين ويروى ان النبى ﷺ قال حينما نعوا اليه « هذا سببه عمل أبى براء حيث أخذهم فى جواره ، قد كنت لهذا كارها متخوفا » ومات هذا أسفا وحزنا حينما بلغه مافعله قومه بمن أجارهم

انذار بنى النضير بالجلاء فى ١٠ أيام

مصائب ثلاث تتابعت على المسلمين فى خلال أربعة أشهر :

١ ـ الفشل فى احد

٢ ـ مقتل عاصم بن ثابت ومن معه

٣ ـ مقتل المنذر بن عمرو ومن معه

فأزعجتهم وآلمتهم ولم يخفف وقعها فى نفوسهم سوى انتصارهم فى بنى النضير

وبين الرواة اختلاف فى ذكر الاسباب التى بعثت المسلمين على مهاجمة بنى النضير واجلائهم والذى عليه الأكثرون أن النبى ﷺ قصد بنى النضير ، فى شهر ربيع الاول أى فى الشهر التالى لحادثتى الرجيع وبئر معونة ، ومعه نفر من الصحابة والمهاجرين ليطلب منهم الاشتراك مع جيرانهم المسلمين فى دفع دية رجلين من بنى عامر ، قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، وهو الذى نجا من يد بنى عامر ، فقد التقى بهما فى

القرقرة على الطريق وهو عائد الى المدينة فقتلهما ثأرا لنفسه ولاصحابه ، ولما ابلغ النبي ذلك قرر دفع ديتهما ، لانهما كانا عنده وقد اخذ منهما عهدا لم يطلع عليه عمرو ، ولما كانت القاعدة المتبعة عند العرب ، فى مال الدية أن تشترك قبيلة القاتل واحلافها اذا كان لها احلاف ، فى الدفع كل بنسبته ، وتوزع ايضا على قبيلة المقتول واحلافها اذا كان لها احلاف بنسبة معينة ، ولما كان بنو النضير ، مرتبطين مع المسلمين برابطة التحالف ، فقد قصدهم النبي ﷺ مقترحا عليهم أن يشتركوا مع المسلمين فى دفع دية القتيلين لانهما كانا مواليين لهم فلا يجوز أن تذهب دماؤهما هدرا

و وافق اليهود مبدئيا على الدفع والاشتراك وقالوا له « نفعل يا ابا القاسم ما أحببت » وعلا عمر بن جحاش ــ احد رجالهم كما يقول ابن هشام ــ سطح الجدار الذى جلس الى جانبه النبي ليرميه بصخرة تطحنه طحنا ، والظاهر انه لحظ منهم الغدر وادرك ماينوونه فقام مسرعا وتظاهر انه يريد قضاء حاجة وتوجه الى المدينة لفوره من دون أن يبدى أو يعيد، وارسل فى الغداة محمد بن مسلمة ينذرهم بالجلاء فى خلال ١٠ ايام ويقول لهم انه يضرب عنق كل من يراه منهم بعد انتهاء المدة المضروبة وانهم وقد هموا بغدره فلا يساكنهم، ومعنى ذلك ان النبي ﷺ لم ينذرهم بالجلاء لانهم لم يشتركوا فى دفع الدية بل أنذرهم لانهم حاولوا اغتنام فرصة زيارته لهم فائتمروا به وقرروا اغتياله والتخلص منه وقال بعضهم لبعض انها فرصة لا يجود الزمان بمثلها فلنغتنمها لقتله فلا يطالبنا به احد فنكون قد انتقمنا لرجالنا

و يطعن بعض المستشرقين والباحثين من اليهود فى هذه الرواية لتفرد ابن هشام بايرادها ويقولون انها لو كانت صحيحة لوردت فى كتب السير الاخرى ، وليس فيها فى نظرنا ما يريب أو يعد فى حكم المستحيل

اليهود يرفضون الانذار

ومع ان اليهود مالوا فى أول الامر الى التسليم والجلاء ، الا أن الدسائس التي دست ، والوعود التى بذلت، جعلتهم يرفضون قبول الانذار ويرسلون الى النبي بلسان كبيرهم حيي بن اخطب قائلين « انا لانخرج من ديارنا فاصنع مابدا لك » .

ويقول رواة السيرة ان ابن ابى ارسل اليهم سرا يشجعهم على المقاومة ويغريهم بالرفض ويقول لهم «لاتخرجوا من دياركم واقيموا فى حصنكم فان معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان »

نعم : هـذا ما يقول الرواة ان ابن ابى وعد بنى النضير بتحقيقه وهو معقول كما يبدو لنا لان القوى التى عددها وقال انها مستعدة لتأييدهم، كانت فى نضال مع المسلمين وهى :

١ ــ قوة غطفان وقد سبق للمسلمين أن غزوهم فى عقر دارهم

٢ ــ قوة بنى قريظة جيرانهم واخوانهم وقد كان مرتقبا أن تمدهم وتشترك فى الدفاع عنهم

٣ ــ انصار بن ابى وقد اثبتت حوادث احد ان له انصارا فى المدينة يقولون بقوله و يتبعون رأيه ، ولولا ذلك لما رجعوا معه من الشوط وعددهم ٣٠٠ كما قدمنا

المسلمون يحاصرون بني النضير

ولما أبلغ النبي خبر رفض اليهود لانذاره سار بالمسلمين اليهم وهم على خمسة كيلو مترات من المدينة الى الشمال ، فلما رأوه مقبلا قاموا الى حصونهم ومعهم النبل والحجارة فضرب المسلمون نطاقا حولهم

ولم يحقق ابن ابى وعده لليهود ؛ ولم يحرك ساكنا لنصرتهم ، وقعد بنو قريظة أيضا عن مساعدتهم وهم اخوانهم وجيرانهم ، ولا ريب ان قعودهم مستغرب وقد

بحثنا فى شتى المصادر اليهودية والاوربية علنا نجد تعليلا معقولا لهذا التخاذل الذى بدا بين اليهود فلم نعثر على شىء ،ولئن اغتفرنا لبنى النضير و بنى قريظة قعودهم عن نصرة بنى قينقاع بقولنا انهم كانوا يرجون ان تحل المسألة صلحا على يد حلفائهم من الاوس او انهم ما كانوا يتوقعون أن يؤول الامر الى اجلائهم واخراجهم من ديارهم فمثل هذا التعليل غير مقبول بالنسبة لبنى قريظة لأنهم عرفوا بالاختبار أن تغلب المسلمين مؤذن بجلائهم

ووقع فى بنى النضير ما وقع فى بنى قينقاع فلم يشهر حسام ولم يطلق سهم بل اكتفى المسلمون بالحصار يضربونه واكتفى اليهود بالاقامة وراء أسوارهم يرقبون سير الحوادث ، ويرجون أن ينهض الذين وعدوهم بالمساعدة للدفاع عنهم ونصرتهم - ولما طال المطال عمد المسلمون الى قطع نخيلهم نكاية بهم وحملا لهم على التسليم ، والنخيل عزيز عندهم ، فنادوا بهم من وراء الاسوار ، لاتفعلوا فقد قبلنا شروطكم ونحن مستعدون للخروج اى انهم قبلوا الانذار وكان يتضمن طلب الجلاء وحده كما تقدم

وكان قبولهم له فى اليوم الخامس عشر للحصار وهى المدة التى حوصر بها بنو قينقاع

ورد عليهم المسلمون بالرفض وقالوا انما اقترحنا ما اقترحناه قبل الحصار ودارت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالوصول الى اتفاق على القواعد الآتية :

١ ـ جلاء بنى النضير عن منازلهم واراضيهم
٢ ـ تصان دماؤهم وارواحهم
٣ ـ يحق لهم ان يأخذوا متاعهم
٤ ـ يسلمون سلاحهم للمسلمين

تلك هى الشروط التى اتفق عليها وقد نفذت بتمامها ، فغادروا منازلهم حاملين ما استقلت به الابل فقصد بعضهم الشام ونزل الآخرون خيبر ، وبلغ عدد الجمال التى حملوا عليها امتعتهم ٦٠٠ جمل

وهذه قائمة الغنائم التى غنهما المسلمون منهم :

٥٠ درعا

٥٠ خوذة

٣٤٠ سيفا

وغنموا أيضا كميات من الشعير والتمر مع خيل واموال ادخر النبى بعضها وقسم بعضها بين المهاجرين ، دون الانصار ، ليرفع مؤونتهم عن هؤلاء فقد روى المؤرخون انه قال لهم : خلوا الاموال لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء

ولا ريب ان فوز المسلمين فى اجلاء بنى النضير على المنوال الذى اجلوهم به ، واستيلاءهم على منازلهم وممتلكاتهم واسلحتهم ، ومعداتهم ، عوضهم بعض العوض عما فقدوه فى الحوادث الثلاث الماضية،ورفع مستوى القوة الادبية فى صفوفهم،واضعف قوة المعارضة فى المدينة ، اذا لم نقل انه قضى عليها ، فقلت المشاغبات ، وخفتت الاصوات ، وعاد الى المسلمين نفوذهم القديم

٨

العودة الى نجد

كر المسلمون كرتين على نجد منذ بدأوا أعمالهم العسكرية في المدينة لاخضاع القبائل النازلة حولها

الاولى ـ فى شهر شوال للسنة الثانية من الهجرة (بعد بدر) فقصدوا بنى سليم، وهى أقرب قبائل الشرق اليها فعادوا ولم يلقوا كيدا

الثانية ـ فى اواخر ذى الحجة من تلك السنة (قبل احد) فقد خرج الرسول يقود ٤٥٠ من أصحابه و يطلب بنى ثعلبة ومحارب من غطفان ، لانهم تجمعوا لقتاله ، و بعد ماقضى شهرين فى ديارهم عاد من دون ان يشتبك فى حرب معهم لانهم تفرقوا عند ماعلموا بقرب وصوله

و يعود المسلمون الآن الى نجد للمرة الثالثة ، ونعيدهنا ماقلناه قبلا وهو انهم كانوا يرومون من معاودتها بين آونةواخرى ـ وان لم يشتبكوا فى حرب ـ بسط نفوذهم على تلك المقاطعة الواسعة ، وكانت تلتزم الحياد فى النضال الدائر بين مكة والمدينة ،لتنضم الى الفريق الغالب فى النهاية ، فاذا فاز المسلمون قصدهم رجالها وزعماؤها ودخلوا فى الدين الجديد ، واندمجوا فى الجماعة الجديدة ، واذا فازت قريش فالامر منته لانهم ما كانوا على خلاف معها ، وكانوا يقصدون مكة فى المواسم يبيعون و يشترون فصلاتهم بها كانت على مايرام

وغادر المسلمون المدينة فى شهر جمادى الأولى من السنة الرابعة اى بعد جلاء بنى النضير ، بشهرين تقريبا ، قاصدين غطفان على أثر مابلغهم وهو ان بنى محارب و بنى ثعلبة ـ وهم الذين خرجوا يطلبونهم فى الغزوة الثانية (غزوة ذى امر) ـ عادوا الى

التجمع لمهاجمة المدينة ، و واصلوا تقدمهم وعددهم ٤٠٠ حتى وصلوا الى وادى الشقرة (قرب اراضى غطفان) فنزلوا فيه ثم بثوا الطلائع للكشف ومعرفة حال العدو فعادت فى المساء تقول انها لم تعثر على خبر لهم

وواصل المسلمون تقدمهم فدخلوا منازل غطفان فلم يجدوا سوى النساء فأخذوها ، وكبر على هؤلاء ان تؤسر نساؤهم فجمعوا جموعهم واقبلوا على القتال وتصاف الفريقان وكادت الحرب تنشب بينهما

ولم يذكر الرواة شيئا عن مصير نساء القوم المأسورات ولم يوردوا شيئا يصح ان يعلل به عدم وقوع قتال ، مع انهم تصافوا ومع أن المسلمين صلوا صلاة الخوف فى يومهم ذلك ، ويلوح لنا ان المسألة سويت صلحا فاعاد المسلمون الى القوم النساء وعادوا الى عاصمتهم من دون قتال ، فغير معقول ان يصبر الغطفانيون على سبى نسائهم ويتركوهن يذهبن من ايديهم من دون ان يشهروا سيفا للدفاع عنهم

ولم يعد المسلمون الى العمل فى نجد بعد هذه الغزوة الا فى السنة السادسة للهجرة أى بعد انقضاء سنتين على هذا الحادث . ولم تخضع نجد لهم وتدخل فى دينهم الا بعد فتح مكة.

٩

الخندق وقريظة

كر المسلمون كرتين فى المنطقة الجنوبية خلال المدة المنقضية بين غزوة غطفان ومعركة الخندق

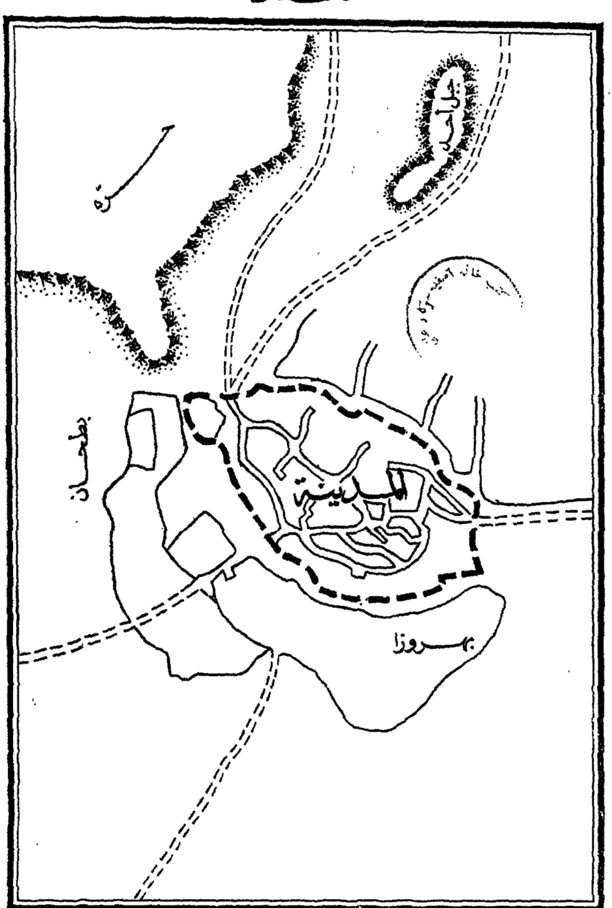
فقد خرجوا فى شهر شعبان للسنة الرابعة وعددهم الف وخمسماية مقاتل معهم ٥٠ فرسا الى بدر ، للقاء أبى سفيان وكان واعد المسلمين اللقاء فيها حين انتهاء معركة أحد (انظر ص ٨٣)

وأقام المسلمون فى بدر ثمانيــة أيام ينتظرون وفود قريش فلم تفد ، ويقول المؤرخون انها تجهزت فى الفين وخمسمائة مقاتل وغادرت مكة حتى بلغت مكانا قريبا من مر الظهران (وهى على ٣٠ كيلو مترا من مكة الى شمالها الشرقى على طريق المدينة) فخطبها أبو سفيان قائلا :

«يامعشر قريش : انه لايصلحكم الا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن وان عامكم هذا عام جدب وانى راجع فارجعوا » فرجعت الى مكة ولم تذهب الى بدر للقاء من ينتظرها ، وهزأ اهل مكة بالعائدين وسموهم جيش السويق وقالوا لهم انما خرجتم تشربون السويق

و وصلت أخبار الى المدينة فى شهر شعبان من السنة الخامسة بان الحارث بن أبى ضرار الخزاعى من خزاعة جمع الجموع لمحاربة المسلمين فخرج النبى ﷺ للقائهم على رأس قوة كبيرة من المشاة منها ٣٠ فارسا ، و واصل التقدم حتى بلغ المريسيع وهو ماء لبنى خزاعة من ناحية قديد ساحل البحر الاحمر ، فلقى بنى المصطلق وهم من خزاعة

الخندق



فدارت معركة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون وقتلوا عشرة من الخزاعيين وأسروا باقى رجالهم ويقال انهم كانوا لايقلون عن ٧٠٠ وسبوا النساء وأخذوا الذرية وساقوا النعم والشاه .

وتزوج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث بن ابى ضرار سيد بنى المصطلق وكانت فى السبي فأطلق المسلمون ما كان فى أيديهم من الاسرى وقالوا « اصهار رسول الله ﷺ » وأسلم أبوها وأكثر قومها وأصبحوا من أنصار الاسلام بعد ما كانوا من خصومه

ففوز المسلمين فى غزوة بنى المصطلق وظهورهم بما ظهروا به من القوة حينما قصدوا بدرا للقاء قريش ، ويسمون هذه الغزوة ببدر الثالثة ، فقد جاءوها بالف وخمسماية مقاتل معهم ٥٠ فرسا فى حين انهم يوم بدر الثانية لم يزيدوا على ثلاثمائة وبضعة عشر مقاتلا — وانتصارهم على بنى النضير ، وخروجهم الى نجد ، انهذا النشاط العظيم زاد فى حقد خصومهم ، وحرك أحقادهم ، فاتصلوا وتكاتبوا والفوا بين العناصر التى عرفت بعدائها للمسلمين ، وأنشأوا بينها اتحادا وثيقا حمل على المدينة بعشرة آلاف مقاتل ، لاحتلالها والقضاء على الحركة الجديدة فى ربوعها

عناصر الاتحاد الجديد

كان لزعماء اليهود من بنى النضير الذين أخرجوا من ديارهم ولجأوا الى خيبر يد كبيرة فى انشاء هذا الاتحاد أو الحلف بين قبائل الحجاز وجماعاته ، فقد قصد نفر منهم — وفى مقدمتهم سلام بن أبى الحقيق وحيي بن اخطب وكنانة بن الربيع — مكة فاتصلوا بزعمائها وكبارها وقالوا لهم انا سنكون معكم يدا واحدة فى قتال المسلمين . ويروى انهم قالوا لهم ايضا ان دينكم خير دينه وأنتم أولى بالحق منه ، وما كانوا يجهلون بان دين الاسلام التوحيد ودين قريش الوثنية

وقصد زعماء اليهود ايضا ديار غطفان ، خصوم المسلمين بعد ما أتموا مهمتهم فى مكة ، فدعوهم الى محالفة قريش وقالوا لهم انها أجمعت أمرها على استئصال

المسلمين ، وان اليهود على وفاق معها ، وانه يجدر بهم الانضمام الى التحالف الجديد ولم يزالوا بهم حتى انضموا اليهم

وعكف ابو سفيان على انشاء جيش قوى يهاجم به المدينة ويريح قريشا من منافسيها ، فاستعان بالاحلاف والانصار من القبائل المجاورة لمكة ، وهكذا تسنى له حشد عشرة آلاف مقاتل قصد بها المدينة فى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة ، ونظن ان هذا أكبر جيش عرفه الحجاز حتى ذلك العهد

قوات جيش الاحلاف

وتتألف عناصر الجيش الجديد أو جيش الاحلاف أو الاحزاب كما سماهم القرآن كما يأتى :

١ ــ قريش مع احابيشها
٢ ــ كنانة وقبائل تهامة الموالية لقريش
٣ ــ غطفان
٤ ــ بنو مرة من خزاعة فى شمالى الحجاز
٥ ــ أشجع وهم من القبائل النازلة بين مكة والمدينة
٦ ــ بنو قريظة وقد انضموا اليهم بعد وصولهم الى المدينة

تلك هى القبائل التى اجتمعت لقتال المسلمين من الجنوب والشرق والشمال وسارت اليهم بعشرة آلاف مقاتل ، ولا يدخل فى هذا الرقم المقاتلون من بنى قريظة فقد انضموا اليهم بعد وصولهم ، ومعنى ذلك ان مجموع عددهم ما كان يقل عن ١١ الف مقاتل

تدابير المسلمين وقواتهم

وتلقى ولاة الامور فى المدينة تفاصيل ما جرى فى مكة وأحاطوا خبرا بما بذله

زعماء اليهود من الجهود لتحزيب الاحزاب ، واطلعوا على عدد القوى التى تتأهب للزحف عليهم

واستشار النبى ﷺ أصحابه فيما يفعل ، وسألهم هل يخرج للقاء القادمين فى خارج المدينة ، أم يلقاهم فى داخلها فاتفقوا على الاخذ بالشق الثانى وبدأوا بافراغ المدينة وجعلها فى حالة دفاع وارسلوا النساء والاطفال الى الاطم البعيدة فى الضواحى ليكونوا فى مأمن من العدو اذا استباح الحمى

واقترح سلمان الفارسى على النبى ﷺ ان يحفر خندقا حول المدينة يمنع الاعداء من اقتحامها وقال له ان من عادتنا فى فارس ان نحفر هذه الخنادق حول المدن للدفاع عنها فى زمن الغارات فأعجب بهذا الرأى واخذ به بلا تردد ، ولئن لم يكن الخندق معروفا فى جزيرة العرب حتى يومئذ ، ولئن لم يكن رآه من قبل ،الا انه ادرك بثاقب نظره واصالة رأيه ان حفره قد يفيد فى حالة كحالتهم فأرسل فنادى فى المسلمين يدعوهم الى التطوع لحفر الخندق

وكان هو فى مقدمة العاملين وقد اجمع الرواة على انه كان ينقل التراب على ظهره بالزنبيل وكان يردد أثناء النقل البيت الآتى :

اللهم ان العيش عيش الآخرة　　فاغفر للانصار والمهاجرة

فيجيبه العاملون معه من المسلمين :

نحن الذين بايعوا محمدا　　على الجهاد مابقينا ابدا

وأنشد أيضا فى اثناء عمله الأبيات الآتية وهى لابن رواحة شاعر الانصار :

تالله لولا الله ما اهتدينا　　ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا　　وثبت الاقدام ان لاقينا

ان الالى لقد بغوا علينا　　اذا أرادوا فتنة ابينا

وكان يرفع صوته بالشطر الاخير قائلا : ابينا . ابينا

واتم المسلمون حفر الخندق فى خلال بضعة عشر يوما قضوها فى عمل متواصل

كما اتموا حشــد قواهم و بلغت ثلاثة آلاف مقاتل فى هــذه المرة ، واســتعدوا للقاء عدوهم .

و وصل بعد ذلك جيش قريش وتقدم من دون مقاومة ـ لأن المسلمين كانوا وراء خندقهم ـ وتسمى هذه الحرب باسمه ـ حتى الخنـدق

فنزل فى مجتمع الاسيال من دومة بين الجرف والغابة . أما المسلمون فاحتشدوا دون الخندق وجعلوا ظهرهم الى جبل سلع ويبعد عن المدينة نحو كيلو مترين الى الشمال ، مقابل جبل احد ، وقد صمموا على النضال حتى النفس الاخير

وكان الرماة منهم على اتم استعداد للقتال فى هذه المرة كما كان فرسانهم يطوفون حول الخندق من الداخل ليل نهـار لمنع العدو من اقتحامه

ودهش رجال قريش وحلفاؤهم حينما رأوا الخندق ـ وما كانوا يعرفونه من قبل ولا خطر لهم ببال ان المسلمين يفاجئونهم بهذه المفاجأة الغريبة ـ فوجموا وتشاوروا فيما يفعلونه فاستقر قرارهم على النزول فنزلوا وضربوا خيامهم

مقابلة بين القوتين

ولا يخفى ان حالة المسلمين كانت تختلف اختــلافا كبيرا عن حالة قريش فقـد كانوا يقيمون فى منازلهم ، وعلى مقربة من أهلهم ، وعندهم مايحتاجون اليه من قوت ومعدات وقد وطدوا انفسهم على الصبر والثبات والنضــال الى ماشاء الله . اما قريش واحلافها فمــا كانوا يظنون ان المسألة تـكلفهم أكثر من أيام معدودات ، كما حدث يوم احد ، يصلون فى خلالها الى المدينة فيضربون ضربتهم الـكبرى و ينهبون اموال المسلمين وحلالهم و يغنمون كل ما يملـكونه ثم يقتسمونه فيرجع كل قبيل الى قبيلته غانما سالما ، و بديهى انهم لم يفـكروا فى ادخار ما يمير هذا الجيش اللجب وليس من السهل تموينه ولا تقديم حاجياته اليومية من مأكل ومشرب وعلف ولوازم اخرى فى بلاد قاحـلة تـكاد تـكون خاليــة من كل شىء حتى من المـاء ، ولذلك لقى قادته عناء كبيرا فى تثبيت رجالهم وفى تدارك القوت لهم ، يضاف الى هذا ان العربى لم يألف

الوقوف امام الاسوار ومحاصرتها ، وليست الحرب فى نظره سوى وسيلة من وسائل الكسب والربح ، فاذا خاضها فانما يخوضها لهذه الغاية فى الغالب لا ليموت ولذلك فهو لا يجازف بحياته وقد نتج عن هذا ان قل عدد الذين يقتلون فى الحروب منهم

على ان حالة المسلمين كانت تختلف عن حالة غيرهم ، فقد نفخ الاسلام فيهم روحا جديدة فاخذوا يتسابقون الى الموت ابتغاء الحصول على رضوان الله واكتساب مرتبة الشهادة للتمتع بما اعد للشهداء من مقام رفيع وثواب عظيم فى الدار الآخرة . وهذا الاعتبار هو فى مقدمة الاعتبارات التى ضمنت للمسلمين النصر والتفوق على اعدائهم وخصومهم فقد كانوا يحاربون فى سبيل غايتين الاولى : تأييد الدين ونصرته وتعزيز كلمة الاسلام ، واجرهم على ذلك اجر المجاهدين والثانية : الحصول على مرتبة الشهادة وتلك اقصى مايصبو اليه المسلم ، فى حين أن اعداءهم ما كانوا يحاربون فى سبيل غايه معينة معروفة ، ولهذا ما كانوا يثبتون أمامهم حين اللقاء رغم تفوقهم فى العدد والعدد فى معظم الاحيان ، يضاف هذا الى تفكك الروابط الاجتماعية بين هؤلاء واختلاف كلمتهم وتعدد زعمائهم فى حين أن كلمة المسلمين موحدة ومثل ذلك قيادتهم ، وجيش مثل هذا الجيش له وحدة القيادة والغاية والنظام لا بد من تغلبه وانتصاره على تلك الشراذم المتفرقة المتفككة

وأدرك قادة الجيش الاسلامى ان مطاولة الاحلاف وعدم الاشتباك معها فى معركة حاسمة يضعفها ويزيد فى مشاكلها وارتبا كاتها فاحجموا عن منازلتها واكتفوا بالمرابطة وراء خندقهم والمحافظة عليه ومنع قريش من تخطيه او تجاوزه . وانقضى الاسبوع الاول والحالة كما وصفنا ، والجيشان واقفان امام بعضهما بعضا يتبادلان الشتائم فى بعض الاحيان تكيلها قريش للمسلمين وتعيرهم بالوقوف وراء خندقهم وتدعوهم لتخطيه

وادرك هؤلاء ان امتداد زمن الحصار يضعفهم ويلقى الاضطراب فى صفوفهم ويكاد يفل جموعهم ، لأن الذين جاءوا معهم من الاحلاف والانصار لم يأتوا للوقوف وراء الاسوار ، وانما جاءوا للسلب والنهب ، فعولوا على القيام بعمل حاسم فاقتحم بعض

فرسانهم ، وفى مقدمتهم عكرمة بن ابى جهل وعمرو بن عبدود ونوفل بن عم خديجة بنت خويلد مكانا ضيقا من الخندق وهاجموا المسلمين املا بأن يجروهم الى القتال فلقيهم على بن ابى طالب مع بعض اخوانه وصمدوا لهم فقتل الثانى وهزم الاول وسقط الثالث فى الخندق وهو منهزم فمات

اشتراك بنى قريظة فى القتال

ولم يكد جيش الاحزاب يحط رحاله حول المدينة ، حتى ذهب حيي بن اخطب الى بنى قريظة ، وكانوا قد أغلقوا حصنهم ، وأعلنوا حيادهم ، فطرق الباب فأبوا أن يفتحوه فألح ففتح له فاجتمع الى سيدهم كعب بن أسد ، فخاطبه عاملا على استمالته الى جانب الاحزاب واشراكه فى الحرب التى أوقدوها لاستئصال المسلمين والانتقام لليهود ، فتردد فى قبول الاقتراح وقال لصاحبه انه عاهد محمدا ﷺ على الوفاء والصدق وليس هنالك ما يستوجب نقض العهد ، فقال انها فرصة لايجود الزمان بمثلها ، فقد جاءت قريش وغطفان وكنانة ومرة وغيرها ببحر زاخر من الرجال ، وما هى الا أيام حتى يتلاشى أمر المسلمين ويقضى عليهم ، فاشترك معنا فى العمل ، وفز بهذا الفخر ، ولم يزل به حتى أقنعه بالانضمام الى الاحلاف فأعلن نقضه للعهد والتحاقه بقريش فثبت ذلك الاحزاب وبث فيها روحا جديدة ، وأطال مدة الحصار على المسلمين

وشاع فى المدينة خبر نقض قريظة للعهد وانضمامها الى الاحلاف فانتدب النبى ﷺ وفدا قوامه سعد بن معاذ (سيد الاوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) وعبد الله بن رواحة شاعر الانصار وخوات بن جبير بن عمرو بن عوف ، لاستطلاع خبرها ، وموافاته بالصحيح من أمرها ، وقال لهم قبل رحيلهم : « اذا رأيتم ان مابلغنا عن انضمامها الى الاحزاب صحيحا فالحنوا لى لحنا أعرفه (وذكره لهم) ولا تفشوا ذلك بين الناس لئلا يفت فى أعضادهم ، وان كان الأمر بالعكس وكانوا على الوفاء فافشوا ذلك واجهروا به »

وأبلغ كعب بن أسد ، الوفد حينما قابله نبأ نقضه العهد وانضمامه الى الخصم، وقد لايبعد أن يكون عمل على اقناعه بالعدول عن هذه الخطة فأبى فعاد من دون أن ينال منالا ، وشاع ذلك بين المسلمين فأثر فى نفوسهم وأزعجهم ، ولم تك حالتهم الداخلية على مايرام ، فقد كان هنالك ابن أبى ومن معه يثبطون الهمم ويبثون الدعوة للقعود عن القتال والتخاذل قائلين انه لا قبل لأهل المدينة بمقاومة عربان الحجاز وقد اتفقت على قتالهم وأجمعت على استئصالهم

التذرع بالاساليب السياسية

ورأى الرسول ﷺ ان أفضل مايعمل فى مثل تلك الحالة هو التذرع بالوسائل السياسية لتفريق كلمة الاحزاب واضعافهم وذلك بعقد صلح منفرد مع غطفان يحملها على التخلى عن قريش واتصل سرا بواسطة عاصم بن عمر بن قتادة بعيينة بن حصن ابن حذيفة وبالحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وعقد معهما مبدئيا صلحا منفردا اشترط فيه أن يرحلا برجالهما عن المدينة مقابل ثلث محصول ثمرها من التمر

ولما وصلت المفاوضات السرية الى هذه المرحلة ولم يبق سوى التوقيع على العقد دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (زعيمى الاوس والخزرج) وأطلعهما على خبر المفاوضات الدائرة بينه وبين غطفان وعلى ماتم الاتفاق عليه وسألهما رأيهما وهل يوافقان على الاتفاق فيعقده ؟ أم يعارضان فيه فيرفضه ؟ فقالا له :

ـ هل هو من عندك تحبه فتصنعه أم هو من عند الله أمرك به ففعلته

ـ هو من عندى وقد رأيت أن أفعله لكم لاننى رأيت ان العرب قد اجتمعت عليكم ورمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر شيئا من شوكتهم بعقده

فقال سعد بن معاذ كنا ونحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان لانعبد الله ولانعرفه ولا يطمعون منا بثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا حاجة ، والله لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهكذا فشل المشروع وقضى عليه

وجاء نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان الى رسول الله ﷺ وقال له :

— انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى، فمرنى بما شئت

— انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة

وقصد نعيم بنى قريظة وكان يعرفهم ويعرفونه وكان نديما لهم وألقى عليهم شباكه والظاهر انه كان ذكيا ألمعيا يعرف من أين تؤكل الكتف — فاجتمع الى ساداتهم وكبارهم وقال لهم: لقد عرفتم صداقتى لكم وحبى اياكم وعرفتم اننى أغار على مصلحتكم وانشد الخير لكم قالوا ماأنت بمتهم عندنا

قال والرأى عندى أن لاتوغلوا فى قتال المسلمين ولا تسرفوا فى معاداتهم قبل أن تنالوا رهائن من أشراف قريش وغطفان يبقون فى أيديكم لانكم لاتأمنون أن ينسحبوا غدا ولا أرض ولا مال لهم هنا بعكس حالكم، فأنتم من أهل البلاد وعندكم المال والمتاجر والمزارع فتبقون وحدكم فيفتك بكم المسلمون وتذهبون ضحية انضمامكم الى حلفاء شأنهم غير شأنكم

فأثرت مقالته فى نفوس القرظيين وقالوا له ستفعل ما أشرت به ونطلب الرهائن قريبا

وانطلق الغطفانى حينما وثق من نجاح مشروعه، فلقى أبا سفيان ومعه وجوه قريش وقال لهم عرضا فى أثناء الحديث انه اتصل به من ثقة ان بنى قريظة ندموا على انضمامهم الى الاحزاب وقيامهم على محمد وانهم ارسلوا اليه نفرا من قومهم يبلغونه ندمهم على مافعلوه ويقولون له هل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنسلمك إياهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك حتى تستأصل أثرهم وترتاح منهم فأجابهم بالقبول فاتفق الفريقان على تنفيذ هذه الخطة، ثم قال فاذا أرسل اليكم اليهود بطلب رهائن فاياكم أن تعطوهم شيئا فانهم لن يلبثوا حتى يسلموهم الى المسلمين فيقتلوهم وقد رأيت أن أبلغكم ماعرفته لتكونوا على حذر وكل ماأرجوه هو أن تكتموه فلا يشيع بين الناس فوعدوه الكتمان

وانطلت حيلة الفتى الغطفانى على ابى سفيان فأوفد على الفور وفدا برئاسة عكرمة بن ابى جهل فى نفر من قريش وغطفان ـ وكان نعيم قد أبلغهم ما أبلغ قريشا ـ الى قريظة يطلب اليهم أن يستعدوا للقيام بهجوم عام على المسلمين وضرب صباح غد « السبت » موعدا له وان يكونوا على تمام الأهبة للاشتراك فيه

فاعتذر اليهود مبدئيا عن الاشتراك فى الهجوم بحجة ان اليوم يوم « سبت » وهم لايباشرون عمـلا فيه ثم قالوا « اننا لن نقاتل معكم ولن نشترك فى معركة حتى تعطونا رهنا من رجالـكم يكونون فى ايدينا فاننا نخشى أن تنسحبوا غدا اذا اشتدت الحرب وتتركونا وشأننا أمام المسلمين يفتكون بنا ويقتلوننا ولا طاقة لنا بهم »

وعاد الوفد الى أبى سفيان ومن معه فأبلغهم ما قاله اليهود وأطلعهم على شروطهم فقال بعضهم لبعض والله لقد صـدق نعيم فيما نقله ورواه فالقوم سيئو النية ولن نسلم اليهم أحدا من رجالنا لئلا يكون مصيره الهلاك ، ثم ارسلوا يبلغونهم انهم غير مستعدين لتسليمهم الرهائن ، وانهم اذا كانوا يريدون القتال فليقاتلوا منفردين فأبى اليهود مباشرة القتال الا بعد أن ينالوا الرهائن خوفا من المصير السيء الذى ينتظرهم . وهكذا دب الشقاق فى صفوف الاحلاف ووقع الانقسام بين زعمائهم ، ففترت هممهم وأدركهم الوهن وأخـذوا يترقبون الفرص للخلاص مما هم فيـه وللانسحاب « بانتظام » فلا تقول العرب انهم انهزموا وانـكسروا

ثورة الطبيعة

وفيما هم على هذه الحال يضربون أخماسا فى أسداس هبت عليهم عاصفة ثلجية باردة ـ وكانوا يحاصرون المدينة فى شهر فبراير سـنة ٦٢٧ فاقتلعت الخيام وقلبت قدور الطعام وهدمت المعسكر فتفرقوا وتشتت شملهم ولما رأى أبو سفيان ما صاروا فيه خطب قومه قائلا :

« يامعشر قريش : انكم والله ماأصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة و بلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل » وقام الى جمله فركبه وارتحل وارتحل معه القوم فانتهى برحيلهم أمر الاحزاب وفشلت محاولتهم ، وخاب سعيهم

وخسرت قريش فى حرب الاحزاب ثلاثة من رجالها، وقتل من المسلمين خمسة وجرح سعد بن معاذ ومات بعد ذلك متأثرا من جراحه فكان عدد قتلاهم ستة

واستردت المدينة بعد انسحاب الاحزاب بهجتها،واتقى الخطر الذى كان يهددها وجيء بالذرية والنساء من الاطم ، وكان يومها من الايام الكبرى عند المسلمين فقد بشرهم النبي ﷺ فيه بان قريشا لن تغزوهم بعد ذلك ، وانهم سيغزونها ، ويفوزون عليها وقد صدق فيما قال

استئصال بنى قريظة

لم يسرح النبى ﷺ جيشه ، بعد انسحاب الاحزاب ، ولم يجنح الى الراحة والسكون ، بعد كل ذلك العناء والتعب الشديدين فى حربهم ــ وقد اقاموا حول المدينة ٢٢ يوما ــ بل نادى مناديه بين المسلمين يوم ٢٣ ذى القعدة ، اى بعد ظهر اليوم الذى انسحبوا فى الليلة السابقة له بان من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة

وتتابع المسلمون على الأثر وخرج بعدهم فنزل على بئر من آبارهم . ولزم اليهود حصونهم فحاصروهم واقاموا على ذلك مدة ٢٥ يوما ادرك هؤلاء فى نهايتها أن لا رجاء فعزموا على الاستسلام فارسلوا الى الرسول يقترحون أن يرسل اليهم ابا لبابة بن عبدالمنذر ليستشيروه فى امرهم فارسله فلما وصل سألوه هل ينزلون على حكم محمد فاشار عليهم بالنزول فابلغوه فى الغداة انهم قرروا الاستسلام بدون قيد ولاشرط

فيقرر مصيرهم كما يشاء . وتدخل الاوس فى الامر ـ وكانوا حلفاءهم ـ واقترحوا على الرسول أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع حلفاء الخزرج ـ اى ان يكتفى باخراجهم من ديارهم و بمصادرة أموالهم وجز شعر رؤوسهم ، فقال لهم الا توافقون على أن يحكم فى مصيرهم رجل منكم قالوا بلى . قال فجيؤنى بسعد بن معاذ ، وكان يعالج من جرحه يوم الخندق فجىء به من المدينة محمولا على حمار وحوله نفر من قومه فقال له الانصار حينما وصل : يا أبا عمرو ان رسول الله قد ولاك امر مواليك اليهود لتحكم فيهم

فقال : انى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبي الذرارى والنساء.

واقر الرسول الحكم وقال لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة ارقعة (سماوات) فقبضوا على رجالهم وساقوهم مكتفين الى المدينة وسجنوهم فى دار بنت الحرث وعددهم يتفاوت بين ٦٠٠ ـــ ٧٠٠ وقيل ٩٠٠ وفيهم حي بن اخطب زعيم بنى النضير وكعب بن اسد زعيمهم ثم امر بان تضرب اعناقهم فكانوا يأتون بهم افواجا الى سوق المدينة فيقتلونهم ويلقونهم فى حفر أعدوها لهذه الغاية وقام على بن ابى طالب والزبير بن العوام بهذه المهمة ، ولم يقتلوا من النساء سوى واحدة طرحت الرحا على خلاد ابن سويد فقتلته

وغنم المسلمون أموال بنى قريظة واقتسموها فيما بينهم ، وسبوا نساءهم وارسلوها الى نجد بقيادة سعد بن زيد الانصارى فباعها وابتاع بثمنها خيلا وسلاحا :

وكانت غنائم المسلمين من قريظة كما يأتى :

١٥٠٠	سيف
٣٠٠	درع
٢٠٠٠	رمح
٥٠٠	ترس وحجفة

وغنموا ايضا كمية كبيرة من الماشية والابل والاثاث والامتعة والثياب و وضعوا أيديهم على منازلهم واراضيهم ونخيلهم وكرومهم

خسارة المسلمين

وقتل من المسلمين فى بنى قريظة واحد هو خلاد بن سويد وقد طرحت عليه يهودية رحى فمات فقتلت به كما تقدم

١٠

بعد الخندق

الحقنا غزوة قريظة بالخندق لانهما من دوحة واحدة ، فالاولى اصل والثانية فرع ، ولولا انضمامها الى الاحزاب ومجاهرتها المسلمين بالعداء ، ونقضها عهدهم وقد اعترف به كعب بن اسد ، لما هاجموها ولما استأصلوها

ولا بد لنا من القول ان ماجرى فى غزوتى بنى قينقاع والنضير تكرر هنا تقريبا ، فلم يشهر اليهود سيفا ، بل اكتفوا بالاعتصام وراء اسوارهم كما فعل اخوانهم من قبل ، ينتظرون المعونة والمساعدة من الخارج فلما ابطأت عليهم ، استسلموا بلا قيد ولاشرط ، وما كانوا يجهلون بان مصيرهم سيكون الذبح والفناء العاجل ، وقد كان فى امكانهم — ولو كان عددهم أقل من عدد محاصريهم — ان يقاوموا جهد طاقتهم مادام المصير فى الحالتين الموت . ولئن عامل النبي القرظيين بغير ما عامل به اخوانهم فلان جريمتهم كانت اكبر ، فهم لم يكتفوا بالقعود عن الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة عملا بما تقضى به العهود المكتوبة بينهما ، وكانت المدينة فى خطر شديد ، بل انضموا الى اعداء المسلمين وخصومهم فى اشد ساعات الخطر وادقها منتهكين حرمة القواعد الاخلاقية العامة . وحينما ذهب وفد المسلمين لاقناعهم بالكف عما عزموا عليه رفضوا وابوا .فان قيل انهم كانوا موتورين من المسلمين لانهم فتكوا باخوانهم نجيب بان هؤلاء اكتفوا فى المرتين الاوليين باجلاء ابناء عمومتهم ولم يريقوا دمهم ولم يصادروا شيئا من اموالهم بل اكتفوا من بنى قينقاع — وهم أول قبيلة قاومتهم — بالجلاء واكتفوا من بنى النضير باخذ السلاح مع الجلاء

فالمسلمون أرادوا من انزال هذه العقوبة القاسية ببنى قريظة أن يجعلوهم عبرة لغيرهم من الذين يقدمون على نقض العهود وإنكارها ولا يحجمون عن الوثوب على الجار فى أشد ساعات الخطر وطعنه من الوراء طعنة قاتلة ، ولولا ذلك لما عاملوهم بما عاملوهم به،ولا كتفوا منهم بالجلاء ، فالغاية التى كان يرمى اليها المسلمون فى ذلك العهد هى التخلص من العناصر الاجنبية الخطيرة ، واتقاء الدسائس الخارجية لاسفك الدماء ولا ازهاق الارواح ، وما كان ذلك من شأنهم، ولا مما يأمر به دينهم

ولا ريب ان فوز المسلمين فى هذه الغزوة كان مضاعفا وكان عظيما ، مع انهم كرهوها فى أول الأمر وتخوفوا منها ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فقد اثبتت عجز قريش مع كل ما جمعته من قوى وألبته من رجال ، فظهر للعيان عجزها عن التغلب عليهم ، واستئصالهم فعادت ـ بعد حصار امتد ٢٢ يوما و بعد جهود بذلت فى خلال شهور ـ تجر ذيل الفشل طويلا ، كما اثبت ان المسلمين أصبحوا قوة قوية يحسب حسابها ويخشى جانبها ، فارتفع شأنهم وتعززت مكانتهم فالوقوف أمام بضعة عشر ألف مقاتل ، والثبات فى وجههم مدة غير قصيرة ، ثم ارتداد هذه الالوف المؤلفة وتشتتها فيه مافيه من المعانى الدالة على تضامن المسلمين واتحادهم وقوتهم

وقد تكامل الفوز السلبى الذى ناله المسلمون فى الخندق بفوز ايجابى أعظم أدركوه فى بنى قريظة فانهم فضلا عن تخلصهم من منافس شديد ـ كان يهددهم فى عقر دارهم ، ولا يخفى ان القرظيين كانوا أكثر عددا وأوفر سلاحا من أبناء عمومتهم الآخرين ـ استولوا على كمية كبيرة من السلاح والمتاع والذخائر فازدادوا بها قوة ومنعة وقضوا فى الوقت نفسه على النفوذ اليهودى فى منطقة المدينة وتخلصوا بعد نضال استمر نحو أربع سنوات تقريبا من منافس قوى فلم يبق أمامهم سوى يهود خيبر وكانوا اكثر يهود الحجاز عددا سيما وقد انضم اليهم عدد غير قليل من بنى قينقاع والنضير بعد جلائهم و بعض البطون الصغيرة الاخرى حول المدينة وليست بذى بال

وكان أول مافعله المسلمون بعد مالرتاحوا من كفاحهم وأمنوا جانب قريش

وما كان فى استطاعتها أن تعود الى مهاجمتهم ـ فيما لو حدثتها النفس بالمهاجمة ـ الا بعد انقضاء وقت طويل لتعد فى خلاله جيشا أعظم من جيش الخندق ، وأمنوا جانب اليهود ، وكانوا يحسبون حسابهم ـ نقول ان أول مافعلوه هو انهم تجهزوا لغزو بنى لحيان وهم الذين فتكوا بعاصم بن ثابت وزملائه الخمسة الذين أرسلوا الى نجد للتبشير بالدين الاسلامى فقتلوا أربعة منهم واقتادوا اثنين باعوهما فى مكة فذبحا انتقاما (انظر ص ٨٩) ـ فقد تجهز النبى ﷺ فى شهر ربيع الاول من سنة ست أى بعد بنى قريظة بشهرين فقط وخرج يقود ٢٠٠ من أصحابه منهم ٢٠ فرسا قاصدا بنى لحيان (وينزلون بين مكة والطائف ولا تزال هذه القبيلة موجودة حتى الآن تقيم فى نفس الديرة التى كانت تنزلها فى الجاهلية)

ومع انه تظاهر بانه يقصد الشام (الشمال) فى غزوته تلك ـ وقد كانت هذه عادته فى الغالب ، فما كان يذكر اسم المكان الذى يقصده بل ولا يورى به وكثيرا ما كان يذكر اسم غيره لئلا يتنبه الذين يقصدهم فيستعدوا للقائه فلا ينال منهم منالا وسلك فى ابتداء سيره طريق الشام ثم اتجه الى الطريق الاصلى ـ الا انه لم يعمل عملا عسكريا يذكر فقد وصل فرأى بنى لحيان مقيمين فى رؤوس الجبال فنزل فى ديارهم وقضى فيها يومين يبث السرايا ويرسلها الى الاطراف ، ثم عاد بطريق عسفان لانه أدرك ان لافائدة من طول الاقامة هنالك لصعوبة بلوغ القمم التى اعتصم فيها هؤلاء

ونزل المسلمون بعسفان وتبعد عن مكة نحو ٨٠ كيلومترا من جنوبيها على طريق المدينة ، وأرسلوا أبا بكر مع كوكبة صغيرة من الفرسان للارتياد وللقيام بشبه مظاهرة عسكرية ارهابا لقريش . ولما عادت الكوكبة اتجهوا الى عاصمتهم . وما كادوا يستقرون فيها ، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى (وكان يقود جموع فزارة وغطفان يوم الخندق فى جيش الاحزاب) فسطوا على ٢٠٠ ناقة للنبى ﷺ كانت ترعى بالغابة واستاقوها بعد ماقتلوا راعيها وسبوا امرأته

و وصل الخبر الى المدينة ، فركب النبى ﷺ فى خمسمائة من رجاله ، وترك

سعد بن عبادة مع ٣٠٠ للدفاع وسار وراء المغيرين فأدركتهم الخيل وناوشتهم فاستردوا بعض النياق وقتل بعضها ، وواصل المسلمون تقدمهم حتى بلغوا ذا قرد وهو ماء فى شرقى المدينة ويبعد عنها نحو ١٥٠ كيلو مترا فأدركوا القوم ولم يشتبكوا معهم بحرب.

وجهز النبي ﷺ بعد ذلك بأسابيع قليلة (أى فى شهر ربيع الثانى) سرية من ١٠٠ رجل بقيادة محمد بن مسلمة الانصارى ، لارتياد ديار بنى ثعلبة (غطفان) وتجسس أخبارهم.

والظاهر ان خبر هذه البعثة الصغيرة وصل الى القوم قبل وصولها فأعدوا العدة للقائها ، ولم يهاجموها حينما قدمت بالليل بل تركوا رجالها حتى ناموا فأحدقوا بهم ثم بدأوا باطلاق النبال فوثب المسلمون الى أسلحتهم وتقاتلوا ساعة قتل فيها رجل من بنى ثعلبة فحمل اخوانه بالرماح على هؤلاء فقتلوهم الا محمد بن مسلمة فقد جرح ثم نقله رجل من المسلمين الى المدينة.

ولما وصلت هذه الاخبار الى المدينة جهز النبي ﷺ أبا عبيدة على رأس ٤٠ رجلا وأمره بأن يقصد المكان الذى قتل به رجال السرية فسار فلم يجد أحدا من بنى ثعلبة ووجد متاعهم ومواشيهم فجاء بها الى المدينة ولم يشتبك معهم فى قتال.

١١

الاعمال العسكرية فى شمالى المدينة

لم يعد المسلمون الى العمل فى الميدان الشمالى سحابة اربع سنوات اى بعد غزوة ودان أوالابواء ، فقد انصرفوا فى خلال هذه المدة الطويلة ، الى مكافحة قريش وتنزل فى الجنوب ، وغطفان وسليم ، وتنزلان فى الشرق ، واليهود وكانوا حول المدينة كما تقدم

واول مرة تجهز فيها المسلمون لغزو بعيد واقتربوا فيه من حدود الشام ، وكان الشام خاضعا للروم ، كانت غزوة دومة الجندل (الجوف) الآن وهو فى شرقى المدينة الجنوبى وتبعد عنها بطريق تيماء نحو ٦٠٠ كيلوا متر و بطريق حايل (نجد) نحو الف كيلو متر وهى مجموعة مزارع تعرف الآن بهذا الاسم وعاصمتها سكاكه الجديدة وتخضع للدولة السعودية)

ويقال فى اسباب هذه الغزوة انه بلغ المسلمين ان بدومة الجندل جمعا كثيرا يظلمون من يمر بهم من تجار الميرة الحجازيين وانهم يريدون مهاجمة المدينة فسار النبى اليهم بالف من المسلمين ، وكان يسرى فى الليل ويكمن فى النهار ومعه دليل من بنى عذرة اسمه مرعب وذلك فى أول السنة الخامسة فبلغ اراضيهم ولم يدر قتال بينه و بينهم ويقول بعض المؤرخين ان المسلمين رجعوا بنعم القوم وشائهم

وعاد المسلمون الى الظهور فى هذه المنطقة فى شهر شعبان للسنة السادسة فقد جهز النبى سرية عهد بقيادتها الى عبد الرحمن بن عوف وقال له حينما سلمه اللواء « خذه يا ابن عوف: اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »

وكانت المهمة التى نيطت بعبد الرحمن ـ وكان معه ٧٠٠ مقاتل ـ ان يمضى الى بنى

كلب ، فى منطقة دومة الجندل ، وكانوا اصحاب « دولة » مستقلة تمتد اراضيها من دومة الجندل حتى تبوك وتيماء فيدعوهم الى الاسلام فان استجابوا له واسلموا فليتزوج ابنة ملكهم .

واقام عبد الرحمن فى ديارهم ثلاثة أيام يدعوهم الى الاسلام واسلم فى اليوم الرابع ملكهم الأضبع بن عمرو الكلبى واسلم معه كثيرون من قومه وتزوج عبد الرحمن تماضر بنته وقدم بها المدينة . وكان ذلك مقدمة لانتشار الاسلام فى تلك الربوع

ولم يعد المسلمون الى العمل فى هذه المنطقة الا بعد فتح مكة فقد احتلوا خيبر وتيماء وتبوك وصالحوا صاحب دومة الجندل على الجزية وصلوا فى تقدمهم حتى البلقاء وسنفصل ذلك حين الكلام على فتح الشام فى المجلد الثانى

١٢

صلح الحديبية

قريش تعترف بالدولة الاسلامية

اول عهد سياسى بين المسلمين وقريش

هـدأت الحالة فى جنوبى المدينة هدوءا نسبيا بعـد انسحاب الاحزاب وفشلهم امام الخندق؛ فلم تعد قريش تحرك ساكنا ولم تعد تفكر فى غزو المسلمين واستئصالهم كما كان صـناديدها ينادون بذلك من قبـل ، ولعـل الحادث الوحيـد الذى وقع بين الخنـدق ــ وكان فى شهر شوال من السنة الخامسة ــ و بين الحديبيـة وكانت فى شهر ذى القعدة من السنة السادسـة ، هو حادث العيص فى شهر جمادى الاولى من السـنة السادسة نفسها اى قبل الحديبية بستة اشهر ، وخلاصته أن النبى ﷺ سير قوة بقيادة زيد بن حارثة ومعه ٧٠ مقاتلا لمهاجمة قافلة لقريش علموا انها عائدة من الشام فالتقى الفريقان فى العيص « شرقى المدينة و يبعـد عنها نحو ٣٠ كيلو مترا » وغنم المسلمون مافى القافلة ، واسروا رجالها ، وكان من جملتهم أبو العاص بن الربيع صهر النبى ، وام هالة بنت خويلد شقيقة السيدة خديجة زوج النبى ، وقادوهما الى المدينة واصابوا كمية كبيرة من الفضة فى القافلة لصفوان بن امية من كبار تجار قريش

اما حديث الحديبية فخلاصته ان الرسول غادر عاصمته فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة على رأس ٧٠٠ وقيل ١٤٠٠ من المسلمين يسوقون ٧٠ ناقة للهدى ، معلنا انه يقصد مكة للعمرة والزيارة لا للقتال والفتح

واتصل الخبر بقريش وعرفوا انه خرج برجاله يقصدهم وادركوا انه يرمى الى غرض سياسى مضمر ، بعد الغرض الدينى الظاهر ، فهو يريد اظهار قوته وسطوته ،

ولفت الانظار الى الفوز العظيم الذى ادركه ، فقد غادر مكة من ست سنوات خائفا يترقب،لايصحبه من الناس سوى صديقه وصاحبه ابى بكر وهو يخشى الوقوع فى أيدى اعدائه الذين كانوا يعملون لاغتياله، اما اليوم فهو يعود رئيسا لطائفة كبيرة من الذين يؤمنون بدينه ، ويصدقون رسالته ، ويتسابقون الى نصرته ، ويستعذبون الموت فى سبيله ، وقد انتشر اسمه ، وذاع صيته ، وعلا قدره ومقامه

ولم تخف هذه الاعتبارات على زعماء قريش وكانوا يرقبون حالة المسلمين عن كثب ، فاجتمعوا فى دار الندوة وبحثوا فى الخطة التى يسيرون عليها ازاء الزيارة وهل يسمحون له بدخول مدينتهم فى موكبه الفخم ، وبين رجاله الابطال ، فيتحدث بحديثه اهل مكة خاصة، والعرب الذين يشهدون الموسم عامة ، ويقدرون بالالوف ويذكرون ما ادركه من نجاح وتوفيق بفضل اخلاصه فى دعوته ، وتجرده عن كل غرض دنيوى ، ام يابون السماح له ويقاومونه اذا اصر على الدخول ؟ وبعد اخذ ورد اتفقت كلمتهم على الاخذ بالشق الثانى واصدروا بالاجماع قرارا قالوا فيه « لايدخلها علينا ابدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب »

وعبأت قريش قواها، وحشرت جندها، واذاعت انها ستقاومه بالقوة اذا حاول الدخول وارسلت الفرسان فرابطوا على طريقه فلما بلغه ذلك وكان فى عسفان وهى على مرحلتين من مكة وبينهما نحو ٨٠ كيلوا مترا تقريبا ، عدل خطة سيره وسلك طريقا غير الذى اقاموا القوى عليه تأهبا للنضال وواصل تقدمه حتى بلغ الحديبية من اسفل مكة وتبعد عنها نحو٣٠ كيلو مترا وهى من ناحية الغرب الشمالى وتسمى الشميسى فى الوقت الحاضر

ولاحظ قادة الجيش القرشى المرابطون بذى طوى (أول مدخل مكة من جهة المدينة) وكراع الغميم تأخر وصول المسلمين وادركوا انهم سلكوا طريقا آخر فتخلوا عن مراكزهم وساروا على عجل الى مكة فابلغوا قريشا ماوقع ودعوها الى ان تكون على تمام الاهبة والاستعداد

وضرب المسلمون خيامهم فى الحديبية « الشميسى » وقد كان فى استطاعتهم

دخول مكة لو ارادوا فالطريق اليها كانت مفتحة ولـكنهم فضلوا النزول هنالك للراحة والنظر فى ما يكون بينهم وبين قريش فلا تـكون « العمرة » وسيلة لحرب جديدة. وما جاءوا لخوضها ولا لاضرامها

وعرفت قريش بوصول المسلمين الى الحديبية ونزولهم فيها فانتدبت بديل بن ورقاء الخزاعى لمقابلة الرسول وابلاغه قرار قريش بعدم السماح له بدخول مدينتها ولاقناعه بالرجوع ، فاستقبله ومن معــه ، وقال له انه ماجاء يريد حربا وانما جاء البيت زائرا ومعظما . فرجــع الوفد الى قريش وابلغها ماسمع فلم يرضها ذلك فانتـدبت مكرز بن حفص بن الاخيف اخا بنى عامر لمقابلتــه واقناعه بالرجوع فلما وصـل الى معسكر المسلمين استقبـله النبى وكلمه بما كلم به بديلا فعاد الى قريش وابلغها ما سمع

واستقر رأى قريش على ايفاد الحليس بن علقمة قائد الاحابيش (جيش قريش) لمقابلته ولاستطلاع حالة المسلمين فلما رآه الرسول ﷺ مقبلا قال ان هــذا من القوم الذين يتألهون وأمر بأن يؤتى بالنياق السبعين التى جاء بها المسلمون للهدى فتعرض أمامه فلما رآها وكانت سمينة بدينـــة أعجب بها وعاد الى مكة معظما لما رأى من دون أن يقابل الرسول ﷺ ووصف لقريش ماشاهده فقالوا له اجلس فأنت أعرابى لاشأن لك بالسياسة ، فغضب وقال لهم يامعشر قريش ماعاهدناكم على هذا ولا حالفناكم على أن تصـدوا عن البيت من جاء له معظما ، ثم أقسم بانه لينفرن بالاحابيش (الجيش) نفرة رجل واحد (أى يخرجهم عن طاعتهم) اذا لم يسمحوا للمسلمين بزيارة الـكعبة

وأوفدت قريش وفدا رابعـا هو عروة بن مسعود الثقفى وكان من حـكماء العرب واذكيائهم فجاء معسكر المسلمين وجلس بين يدى الرسول ﷺ فقال له « لقد جمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك تنقضها بهم » ثم هـــدده تلميحا وقال له ان قريشا حشدت قواها وانها لن تسمح له بدخول مكة ؛ فساءت اللهجة الشديدة التى استعملها اقطاب المسلمين فأسمعه أبو بكر كلاما قارصا وأعاد الرسول ﷺ عليه ما قاله للذين تقدموه فرجــع الى مكة يقص ماسمع ويقول « لقد جئت كسرى فى ملـكه ،

وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رايت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى اصحابه ، لقد رأيت قوما لايسلمونه ابدا فروا رأيكم »

ورأى الرسول ﷺ بعد ماتعددت الرسل من قبل قريش ، ولم تتقدم المفاوضات التى دارت خطوة واحدة ، ان يرسل مندوبا فقد يوفق الى اقناع القوم بحسن نيته فيكون التفاهم على يده ، فدعا بعمر بن الخطاب واقترح عليه أن يقصد مكة لمفاوضة قريش فتردد وقال له « انى أخاف قريشا على نفسى فقد عرفت عداوتى لها وغلظتى عليها وليس بمكة أحد من بنى عدى يمنعنى » وكان عمر من بنى عدى ، ثم اقترح عليه ارسال عثمان بن عفان الاموى فى هذه المهمة لعصبيته ومقامه فيهم فأجاز الاقتراح وانتدب هذا، فسار الى مكة فلقيه ابان بن سعيد بن العاص الاموى (اى ابن عمه) حين وصوله فأجاره حتى يؤدى رسالته ويخرج فذهب فقابل اباسفيان والوجوه وتكلم معهم وأطلعهم على حقيقة نيات المسلمين فقالوا له ان شئت أن تطوف بالبيت فافعل فأبى الا أن يطوف رسول الله ﷺ وابطأ عثمان فى الرجوع الى المسلمين وتناقلت الألسن انه قتل واتصل ذلك بالرسول ﷺ فأعلن بانه لن يبرح مكانه حتى ينازل قريشا ويناجزها ودعا المسلمين الى مبايعته على الحرب فبايعوه تحت شجرة كانت هنالك ثم قطعها عمر ولا يزال مكانها معروفا وقد أقاموا فيه مسجدا وتسمى تلك البيعة بيعة الرضوان وعاد عثمان بعد ذلك الى معسكر المسلمين وتبين انه لم يصب بأذى

وتبدل الموقف بعد زيارة عثمان و بعد الثبات الذى ثبته المسلمون حول مكة و بعد التصرف الحكيم الذى تصرفوه فلم يحرجوا قريشا ولم يبدأوها بالقتال ، وجنحت هذه الى السلم فانتدبت سهيل بن عمرو لحل المشكلة فدارت بينهما محادثات ختمت بالاتفاق على القواعد الآتية :

١ ــ يرجع المسلمون عن مكة فلا يدخلونها فى عامهم

٢ ــ للمسلمين أن يزوروا مكة فى العام القابل فيقيموا فيها ثلاثة أيام فقط ومعهم سيوفهم فى القرب

٣ ــ تجلو قريش عن مكة زمن نزول المسلمين فيها

٤ ــ توضع الحرب بين الفريقين مدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض

٥ ــ من جاء محمدا من قريش من غير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه

٦ ــ من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده فله ذلك ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فله ذلك

تلك هى القواعد التى تم الاتفاق عليها وقد أدمجت فى الكتاب الآتى وهو أول عقد سياسى عقده المسلمون مع قريش وهذا نصه :

« باسمك اللهم

«هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على انه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا اسلال ولا اغلال ، وانه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها باصحابك واقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها »

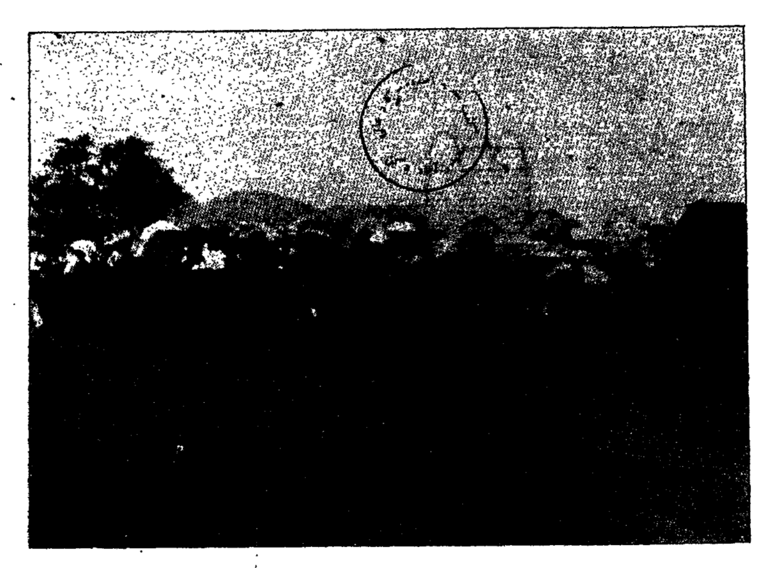
هذا هو نص عقد الحديبية وقد تولى كتابته على بن أبى طالب وختمه الرسول بخاتمه ووقعه سهل بن عمرو وشهد عليه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن ابى وقاص ومحمود ابن سلمة ومكرز بن حفص وعلى بن ابى طالب وحمله سهيل الى قريش فأجازته وبذلك تهادن المسلمون وقريش

ولم يرق هذا الاتفاق فى عين بعض المسلمين وفى مقدمتهم عمر بن الخطاب

واتتقدوا بعض شروطه ورأوا فيها غبنا للسلمين ولا سيما المادة الخامسة القائلة بأن يرد محمد الى قريش من جاءه منها بغير اذن وليه ولا ترد قريش اليه من يجيء منه ، وسألوا الرسول كيف قبله فأجابهم بان مصلحة المسلمين تقضى بقبوله وبدأ فورا بتنفيذه وذلك انه قام الى ناقته فنحرها ثم حلق رأسه (ولا يكون نحر الهدى الا بعد الانتهاء من العمرة) فكأنه أراد أن يشير الى انتهاء العمرة ثم أمر بالرحيل على الفور فرحل المسلمون الى المدينة

ولا ريب ان صلح الحديبية كان فوزا سياسيا للمسلمين فقد أراح بالهم من جهة قريش عدوتهم الكبرى ، وأطلق يدهم بالعمل فى المناطق الأخرى كما ساعدهم على نشر دعوتهم الدينية فدخل فى دينهم كثيرون وزاد عددهم زيادة كبيرة ، ما كان يرجى لهم ان يبلغوها لو واصلوا الحرب والكفاح . ولا أدل على ذلك من زحفهم بعد سنتين أى فى السنة الثامنة للهجرة الى مكة بجيش بلغ عدده عشرة آلاف مع ان عدد الذين جاءوا منهم للعمرة (يوم صلح الحديبية) ما كان يزيد على الف وأربعمائة على أكبر تقدير

وقد كان من النتائج المباشرة للمادة الخامسة من اتفاق الحديبية وهى التى تقضى على المسلمين بأن يردوا الى قريش من يأتيهم منها بدون رغبة أولياء أموره ، ان زاد عدد الذين دخلوا فى الاسلام من أبنائها وأبى المسلمون ايواءهم فى المدينة وفاء بعهدهم ، عن الستين ، وحيث ان هؤلاء يأنفون البقاء معها فقد ألفوا عصابة قوية منهم جعلت دأبها الغارة على قوافلها ، ومتاجرها ورجالها فى أسفارهم فضايقوها وكادوا يعرقلون حركتها فلم تجد مناصا من الالتجاء الى الرسول ﷺ تسأله أن يؤوى هؤلاء ويستقدمهم ويكف اذاهم فأرسل اليهم فجاءوا وانضموا الى اخوانهم المسلمين فكان فوزا جديدا لهم كما أقاموا بعملهم هذا برهانا على وفائهم بعهودهم وتمسكهم بها



مسجد الحديبية (الشميس) انشئ لاحياء ذكرى بيعة الرضوان

١٣

التبشير بالاسلام فى خارج الجزيرة

كتب النبي ﷺ الى رؤساء الدول المجاورة

أدرك المسلمون فى خلال ست سنوات من النتائج المادية والأدبية مالم يكن يخطر لأحد ببال أن يدركوها يوم وصول مهاجريهم الى دار هجرتهم الجديدة ، فقد حققوا الاغراض الآتية :

١ ـ قضوا على النفوذ اليهودى فى منطقة المدينة واستولوا على ممتلكات اليهود وأراضيهم وغنموا أسلحتهم وأموالهم

٢ ـ ضربوا قريشا ضربة كبيرة فى بدر واستولوا على عدد من قوافلها ، وحازوا جانبا من أموالها ، وعرقلوا تجارتها مع الشام وكانت تعول فى معائشها على هذه التجارة وكادوا يقطعونها

٣ ـ وقفوا أمام أعظم جيش عرفه الحجاز (جيش الاحزاب) فى تاريخه العسكرى مدة ٢٢ يوما فارتد خائبا مدحورا

٤ ـ نشروا نفوذهم السياسى والعسكرى فى المناطق المحيطة بالمدينة وسيروا البعوث العسكرية الى الغرب والشرق والشمال ، ووصلوا الى دومة الجندل (أراضى الرومان) وأخضعوا بنى كلب

٥ ـ أنشأوا جيشا عسكريا قويا أثبت كفاءته فى المعارك التى خاضها وبعد ما كان عدده لايتجاوز الستين فى السنة الأولى للهجرة والثلاثمائة فى السنة الثانية بلغ ثلاثة آلاف فى السنة الخامسة

٦ ـ قصدوا مكة فى السنة السادسة للهجرة وعددهم يقدر بالمئات ومعهم النياق للهدى والصدقة يقومون بمظاهرة سياسية كبيرة فضلا عن الغرض الدينى ، ويهددون قريشا فى عقر دارها ، ويستخفون بها ولم يرجعوا الا بعد أن اعترفت بهم وعاقدتهم وعاملتهم على قاعدة المساواة ، لافاضل ولا مفضول ، ولا قوى ولا ضعيف

ورأى النبي ﷺ بعد أن أدرك هذه النتائج المادية العظيمة الشأن ، وبعد ما أمن جانب قريش ، وقضى على نفوذ اليهود ـ وقد اتحدت هاتان القوتان عليه ، وكان يخشى منهما على الاسلام ، ولم تبق فى الحجاز قوة عسكرية ، أو كتلة سياسية يخشى بأسها ويرهب جانبها ـ ان يعمل على نشر الاسلام فى انحاء جزيرة العرب وفى خارجها كما نشره فى الحجاز وان يتصل برؤساء الدول والحكومات فيدعوهم الى الدخول فى دينه ، واتباع طريقته ، والاهتداء بهديه ، لاعتقاده ان رسالته عامة لاتختص بقبيل دون قبيل ، ولا بأمة دون أمة

وهذه أسماء الدول والممالك التى كاتبها وخاطب ملوكها وامراءها داعيا إياهم الى الاسلام :

١ ـ قيصر الروم
٢ ـ كسرى الفرس
٣ ـ عظيم القبط
٤ ـ نجاشى الحبشة
٥ ـ ملك غسان
٦ ـ صاحب اليمامة (نجد)
٧ ـ صاحب البحرين

هؤلاء هم الملوك والامراء الذين كتب اليهم ونحن مثبتون نص الكتب المرسلة الى كل منهم ، وأسماء الرسل الذين حملوها والجواب الذى اجاب به كلا منهم ، وواصفون المعاملة التى عاملوا الرسل بها

ولا نملك نصا صريحا أو قرينـة قاطعة نسـتعين بها على ذكر اسم اليوم الذى ارسلت فيه هـذه الـكتب أو كتبت فيه على الأقل ، وكل مالدينا من اقوال المؤرخين القدماء ــ ولم يكونوا يعنون باثبات مثل هذه التفاصيل ــ ان الرسول ﷺ بعد ما كتب الـكتب الى ملوك البلاد المجاورة على أثر منصرفه من الحديبية ، وكان ذلك فى أواخر السنة السادسـة للهجرة ، كان ينادى المسلمين من منـكم يذهب الى البـلاد الفلانية ويذكر اسمها فيتطوع احدهم ، ويكون من الذين سبق لهم ان زاروا تلك البـلاد وجاسوا خـلالها ، فيحمل الـكتاب ويمضى به ، مع العـلم بانه اختار بنفسه عددا من الذين حملوا كتبه وانتدبهم لهذه المهمة لمؤهلات عرفها فيهم ولخبرتهم الزائدة فى شؤون البلاد التى خصهم بالسفر اليها

١ — كتابه الى قيصر الروم

كان يجلس على عرش الروم (الرومان) حين ظهور الاسلام الامبراطور هرقليوس (Héraclius) ويسميه العرب هرقل ، وكان فى الاصل من كبار قوادهم العسكريين ، وقد قهر الفرس فى معارك شـديدة دارت بينهـم و بينه وردهم الى ماوراء حدودهم واسترد منهم خشـبة الصليب المقدسة وقد انتزعوها من مكانها فى بيت المقـدس حينما استولوا عليه فى سنة ٦١٤

وكان هرقليوس ، حين ارسال كتاب الرسول ، يقيم فى حمص وقد جاءها من انطاكية ، عاصمة الروم السياسية والعسكرية فى الشام يومئذ ، وكان معتزما السير على قدميه الى بيت المقدس شـكرا لله على ما اولاه من نصر وتوفيق

وحمل دحية بن خليفة الـكلبى ، كتاب قيصر ، وكان من الخبيرين باحوال القوم ، وقد امر بان يقصد بصرى ويقابل الحارث بن أبى شمر الغسانى (ملك غسان) ويوسطه فى ايصال الـكتاب الى الامبراطور ، فقابله فانتدب عدى بن حاتم لمرافقته فسار معه الى القدس وقدمه إلى قيصر فسلمه الـكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم

« السلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاسلم تسلم . واسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان تتول فان اثم الاكارين عليك » اى اثم شعبك الذى يطيعك

و وضع هرقل الكتاب بين فخذه وخاصرته واكرم الرسول واعاده من دون أن يرسل جوابا معه

٢ — كتابه الى كسرى

وحمل كتابه الى المداين (عاصمة الفرس يومئذ) عبد الله بن حذافة السهمى وكان يتردد على بلاد الفرس ، ويعرف شؤونهم فانطلق حتى بلغها وسلمه الى الملك واسمه يومئذ خسرو ابرويز .وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . اسلم تسلم فان ابيت فعليك اثم المجوس »

فلما ترجم الكتاب له مزقه وصرف الرسول وكتب الى باذان عامله فى صنعاء بان يبعث رجلين اشداء من عنده الى المدينة فيأتيان به. فارسلهما هذا مع كتاب الى الرسول يأمره بأن ينصرف معهما الى المداين فلما قدما عليه ابلغاه انهما جاءا ليذهبا به الى كسرى وطلبا اليه ان يستعد للسفر معهما ، فاخبرهما انه قتل وان ابنه شيرويه هو الذى قتله واخذ الملك مكانه فعادا الى صاحبهما فى صنعاء فاخبراه بالخبر و بعد قليل جاءه كتاب من شيرويه يقول فيه « انظر الرجل الذى كتب فيه ابى اليك فلا تهجه حتى يأتيك امرى »

٣ — كتابه الى المقوقس

وحمل حاطب بن ابى بلتعة كتابه الى المقوقس عظيم القبط فى مصر وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم كل القبط ﴿ يٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

وسلم حاطب الكتاب الى المقوقس فى الاسكندرية فضمه الى صدره ودعا كاتبا يكتب له بالعربية فارسل اليه — كما يقول بعض المؤرخين — كتابا وديا

واكرم المقوقس رسول النبى وقيل انه اجازه بمائة دينار وخمسة أثواب ، وارسل معه الهدايا الآتية :

١ — مارية بنت شمعون وكانت امها رومية ويقال انها كانت من اجمل نساء مصر

٢ — سيرين

٣ — قيسر

٤ — بريرة (جارية سوداء)

٥ — هابو (غلام اسود)

٦ — بغلة شهباء سميت دلدل

٧ — فرس ملجم سمى ميمون

٨ — حمار اشهب سمى يعفور

٩ — مربعة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك

١٠ ـ كمية من العسل
١١ ـ الف مثقال من الذهب
١٢ ـ عشرون ثوبا من قباطى مصر
١٣ ـ كمية من العود والند والمسك
١٤ ـ قدح من قوارير

وقد أسلمت مارية قبل وصولها الى المدينة كما اسلمت سيرين فتزوج النبي الاولى ووهب الثانية لحسان بن ثابت الشاعر وولدت مارية للنبي ابراهيم وهو الذكر الوحيد الذى ولد له ﷺ ولم يعش طويلا

٤ ـ كتابه الى النجاشى

وحمل عمرو بن امية الضمرى كتابه الى نجاشي الحبشة واسمه اصحمة فجاء اكسوم عاصمة الاحباش القديمة وسلمه الكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة . سلم انت فانى احمد اليك الله الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، القاها الى مريم البتول، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وانى ادعوك الى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وان تتبعني وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين فاذا جاءك فاقرهم ودع التجبر فانى ادعوك وجنودك الى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى »[1]

وقد نشر بعض المؤرخين المسلمين صورة كتاب زعم ان النجاشى اجاب به على الكتاب المرسل اليه معلنا قبوله الدعوة ودخوله فى الدين الاسلامى ، وليس هنالك

---

(١) يدل هذا الكتاب على انه كتب قبل هذا التاريخ اى فى زمن هجرة جعفر واصحابه وكان ذلك قبل انتقال المسلمين الى المدينة وهو ما يدعو الى الشك فى صحته

دليـل تاريخي او مادي يؤيد هـذه الرواية ولذلك اغفلنا نشر الـكتاب ولو كان ما يروونه من اسلامه صحيحا لظهر أثره فى قومـه الاحباش وقد كانوا ولا يزالون عـلى دين النصرانية

٥ — كتابه الى ملك غسانه

وحمل شجاع بن وهب الاسدى كتابه الى الحارث بن ابى شمر الغسانى وهذا نصـه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى الحارث بن ابى شمر

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فانى ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملـكك »

ولمـا تسلم الـكتاب وقرأه رمى به وقال من ينتزع منى ملـكى انا سائر اليه ولو كان باليمن جئته . على بالناس ولم يزل جالسا حتى الليل ، وامر بالخيل ان تنعل . ثم دعا بالرسول وقال اخبر صاحبك بما ترى

ويقال فى رواية اخرى انه اراد غزو المدينـة وكـتب بذلك الى هرقليوس يستأذنه فأجابه بعدم الموافقة

٦ — كتابه الى صاحب اليمامة (نجد)

وارسل سليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة يحمل كتابه وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك »

واجاز هوذة الرسول بجائزة وكساه أثوابا ورده ردا لطيفا

٧ — كتابه الى صاحب البحرين

و بعث العلاء بن الحضرمى بكتاب الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين يدعوه الى الدخول فى الاسلام فاسلم

وهكذا اتصل بملوك زمانه وامرائه الذين يجاورون بلاد العرب وعمم دعوته ونشرها، واذاع خبرها ، فتحدث بها الناس فى كل مكان وعرفها القريب والبعيد

لماذا لم تفتح الحبشة

ومما يستحق الذكر بوجه خاص ان بلاد جميع الملوك والامراء الذين كاتبهم واتصل بهم ، خضعت للمسلمين ودخلت فى دينهم سلما أو حربا ، ماعدا الحبشة ، فقد فتح المسلمون بلاد كسرى وقيصر وحوران ومصر واليمامة والبحرين — وهى البلاد التى كتب اليها ، واستولوا عليها . والحبشة هى القطر الوحيد الذى كتب اليه داعيا الى الاسلام ولم يسلم ولم ينفر المسلمون اليه، ولم يحملوا عليه، ولم يفكروا فى فتحه مع انهم حملوا على جميع الممالك الاخرى وأخضعوها تدريجيا ويلوح لنا ان مصدر ذلك ما كان بين الاسلام والحبشة من علاقات ود وثيقة نشأت عن المعاملة الحسنة التى عامل بها الاحباش المهاجرين المسلمين الذين لجأوا اليهم قبل الهجرة هربا من اضطهاد قريش وظلمها ، فقد آووهم وأكرموا مثواهم وأبوا أن يسلموهم الى اعدائهم ، حينما جاء وفدها يطالب بهم . يضاف الى هذا ماذكره بعض الرواة وهو ان النجاشى نفسه (اصحمة) امهر أم حبيبة بنت أبى سفيان حينما عقد لها على رسول الله ﷺ فى اكسوم، وقد كانت من اللاجئات الى الحبشة، على أثر وفاة زوجها ثم نقلت الى المدينة بعد ذلك و بنى بها ، وكانت فى عداد نسائه

وفضلا عن ذلك فقد صلى النبى على اصحمة نفسه صلاة الغائب حينما نعى اليه ، أثبت ذلك البخارى فى صحيحه نقلا عن جابر بن عبد الله فروى ان النبى ﷺ نعى الى أصحابه اصحمة قائلا : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على اخيكم اصحمة »

ويقول جابر أيضا ان النبي صفهم و راءه حينما صلى عليه وانه كان فى الصف الثانى أوالثالث ، وكبر عليه اربعا

وحيث ان صلاة الغائب لاتجوز الا على المسلم فقد ذهب بعض المؤرخين الى ان اصحمة هذا كان مسلما بسبب الصلاة عليه ، وربما أراد النبي من صلاته عليه ابداء عاطفة طيبة نحو هذا الملك الذى أضاف المسلمين وآواهم ووطأ لهم فى بلاده ومنع الأذى عنهم ، واتبعه خلفاؤه من بعده ، فلم يعدوا يدهم الى الحبشة بسوء بل أبقوا لها استقلالها وصانوا وحدتها ، وكانوا يعاملون ابناءها معاملة حسنة ، ويكرمونهم ويبرونهم ، مكافأة لهم على ما أسدوه من يد بيضاء لاخوانهم وليقيموا الدليل على ان المسلمين يحفظون الجميل ويكافئون عليه . ولولا ذلك لانتظمت مملكة اثوبيا فى عداد الممالك الاسلامية الاخرى المجاورة لها ولدانت للمسلمين ولخضعت لهم كما خضع غيرها . وما كان امرها ليعجزهم ، وما كانت قوتها لتقف فى وجوههم ، بعد مابسطوا نفوذهم على مصر والسودان وافريقية وآسيا

١٤

فتح خيبر ووادى القرى

ازدادت نقمة اليهود الحجازيين على الاسلام بعد حادث بنى قريظة ، فنشطوا ولا سيما ابناء خيبر ـ والى خيبر لجأ كثير من بنى قينقاع والنضير ـ الى مقاومة الاسلام والكيد له والعمل على استئصاله ، بتأليب القوى وجمع الجموع كما فعلوا يوم الاحزاب ، ولم تكن اخبارهم مجهولة عند ولاة الامور فى المدينة ، ولذلك عولوا على ضربهم والتخلص منهم ، واقاموا يتحينون الفرص لتنفيذ خطتهم ، وما كان غزو خيبر بسيطا ، لوفرة عدد رجالها ، وكثرة سلاحها ، ولمناعة الاراضى التى تنزلها ، ولتعدد حصونها وكانت هنالك سلسلة حصون منيعة احسن اليهود اعدادها وتنظيمها خوف الطوارىء والمفاجآت

ولم يطل المسلمون الاقامة فى المدينة بعد رجوعهم من مكة ، و بعد عقد هدنة الحديبية ، وقد امنوا بعقدها جانب قريش كما قدمنا فتجهزوا لفتح خيبر وهى واقعة فى شمالى المدينة الشرقى وفى طرف الحرة المعروفة باسمها ، ففى شهر المحرم من السنة السادسة غادروا عاصمتهم يقودهم زعيمهم الاكبر وعددهم ١٦٠٠ مقاتل بينهم ٢٠٠ فارس

و بلغ الجيش الاسلامى خيبر ليلا ، فنزل بقربها ، وصدر الى رجاله الامر بان يناموا ويستريحوا حتى الصباح ، جرى كل هذا واهل خيبر غافلون عما يدبر لهم ، ويراد بهم ، ولذلك فوجئوا بوصول المسلمين وكان أول من شاهدهم الفلاحون الذين اعتادوا الخروج فى البكور الى اعمالهم فى المزارع والغيطان فصاحوا بقومهم : محمد والخميس (أى الجيش)

وعبأ المسلمون قواهم تعبئة عسكرية منظمة وقسموها الى قسمين : قسم وهو

الاكبر أعد لمهاجمة حصون اليهود واشعال القتال. وقسم وهو الأقل أقيم على الطريق بين خيبر وغطفان لمقاومة هـذه وصدها اذا حدثتها النفس ـ وكانت على عداء مع المسلمين ـ بالانضمام الى اليهود

وكان لليهود فى خيبر سبعة حصون كبيرة مبنية بالحجارة للاعتصام بها والدفاع من ورائها اذا هاجمهم مهاجم . وهذه اسماؤها :

ناعم . القموص . ابى الحقيق . الشق . النطاة . السلالم . الوطيح . الـكتيبة

واحتشد المقاتلة من اليهود حينما وصل المسلمون فى داخل حصن النطاة ، وهو فى مكان مرتفع وحوله مزارع النخل ، ووضعوا نساءهم واطفالهم فى حصن الـكتيبة

وتقدم المسلمون من حصن النطاة ، فجاء الحباب بن المنذر ـ وهو الذى أشار يوم بدر بالعـدول عن التعبئة الاولى (انظر ص٥٠) الى النبى ﷺ يقترح عليه التحول من مكانه ويقول :« ان لى بأهل النطاة معرفة ، وليس قوم ابعد مدى منهم ولا اعدل رمية ، وهم مرتفعون علينا ولا نأمن من مفاجأة يفاجئوننا بها ، يأتوننا من بين النخل » ولم يتردد النبى فى الأخـذ برأيه فتحول وتحـول الناس الى مكان اصلح واوفق

وامر النبى ﷺ بقطع شجر النخيل المحيط بالنطاة لان كثرته تحول دون اجراء الحركات العسكرية فقطعوا نحو ٤٠٠ نخـلة فخرج اليهود لقتالهم فـدارت معركة عنيفة بين الفريقـين اشـترك فيهـا النبى ﷺ بالذات وقاتل أشـد قتال وانتهت المعركة ولم ينل أحد من الفريقين منالا ، واستؤنف القتال فى الغداة وتكرر فى اليوم الثالث والرابع والخامس وأهـل الحصن ثابتون يخرجون للقتال فى النهار ويلجأون اليه فى الليـل

وجاء فى جوف الليلة السادسة يهودى من اهل خيبر الى النبى ﷺ وقال له انه خرج من حصن النطاة وان رجال حاميته يتسللون منه فى تلك الليـلة ويذهبون الى حصن الشق فيجعـلون فيـه ذراريهم ويتهيأون للقتال . ولم يشترك النبى ﷺ فى القتال الذى دار فى اليوم السادس لوجع اصابه فى رأسه

ودعا في اليوم السابع بعلى بن ابي طالب وسلمه الراية وامره ان يقاتلهم فقال أأقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يطيعوا لك فقاتلهم ، فوالله لئن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم

وخرج على حتى ركز الراية تحت حصن النطاة ، وكان الحارث اخو مرحب وهو من كبار شجعان اليهود اول من خرج للقائه فقتله فخرج اليه اخو مرحب فقتله ايضا ، وخرج ياسر اخوهما فخرج اليه الزبير بن العوام وقتله ثم حمل المسلمون على الناعم ففتحوه ثم القموص وتتابع الفتح بعد ذلك فسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر ولم يبق سوى الوطيح والسلالم وقد اقام المسلمون على حصارهما اربعة عشر يوما وارسل اليهود الى النبي ﷺ بعد ذلك يعرضون عليه الصلح ، لانهم تبينوا عدم فائدة المقاومة وعرفوا ان المسلمين يستعدون للقيام بهجوم عام عليهم ، فدارت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالاتفاق على القواعد الآتية :

١ ـ يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود و يتركون الذرية

٢ ـ يجلوا اليهود عن خيبر واراضيها بذراريهم

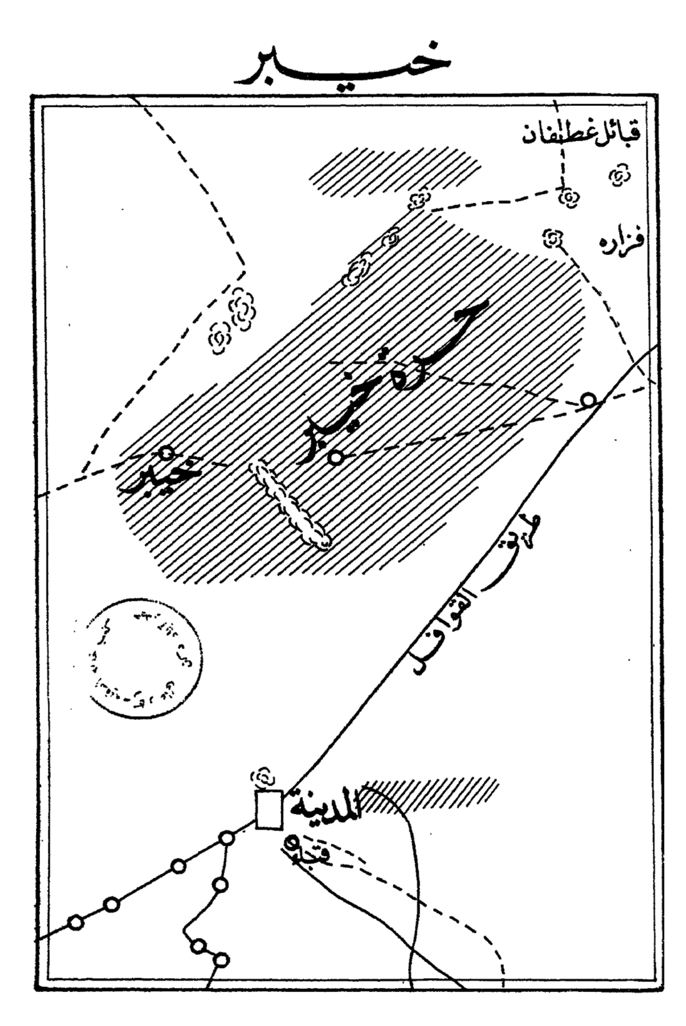
٣ ـ لايأخذ احدهم أكثر من ثوب واحد

٤ ـ تكون ذمة الله تعالى ورسوله محرمة منهم ان كتموا شيئا

وهكذا تم الصلح واستولى المسلمون على خيبر وجلا عنها اليهود الا بعضهم وتركوها بين يدى الفاتحين وهذا بيان الغنائم التي غنموها :

١٠٠٠ رمح
١٠٠ درع
٤٠٠ سيف
٥٠٠ قوس

وغنموا ايضا كميات كبيرة من الشعير والتمر والودك والمتاع والماشية وغيرها . واخذوا ايضا كنز آل ابي الحقيق وقد حمله حي بن اخطب حينما هاجر مع قومه من بني النضير


خيبر
قبائل غطفان
فزاره
حرة خيبر
خيبر
طريق القوافل
المدينة
قباء

و بلغت جملة قتلى المسلمين فى معارك خيبر كلها ١٥ قتيلا مقابل ٩٣ قتيلا من اليهود

فدك تطلب الامان

ولما وصلت الاخبار الى فدك ـ وهى مدينة لليهود فى ذاك الجوار ـ بسقوط خيبر واستسلام اهلها اوفدوا وفدا قابل النبي وعرض خضوعهم على ان يدفعوا له نصف حاصلاتهم فصالحهم

مهاجمة وادى القرى وتيماء

وعرج وهو فى طريقه الى المدينة على وادى القرى وهو آخر حصن لليهود فى الشمال قبل تيماء ، فحاصره اربعة ايام وفتحه عنوة ، وغنم منه غنائم كثيرة ، واقام عاملا عليه عمرو بن سعيد بن العاص

وجاءه وهو فى وادى القرى سكان تيماء اليهود يعرضون طاعتهم وخضوعهم فصالحهم واقرهم على ماباًيديهم وعين يزيد بن ابى سفيان عاملا عليها

ثم رجع الى المدينة بعد مااخضع شمالى الحجاز كله وادخله فى دائرة الدولة الجديدة وقضى على نفوذ اليهود وغنم اموالهم وسلاحهم

واقام الرسول ﷺ بعد رجوعه من خيبر ثمانية اشهر فىالمدينة (ربيع الاول ـ شوال) سير فى خلالها خمس سرايا : الاولى بقيادة عمر بن الخطاب الى هوازن (الطائف) والثانية بقيادة ابى بكر الى بنى كلاب ، والثالثة الى بنى مرة بفدك ، والرابعة بقيادة غالب بن عبد الله الليثى الى بنى مرة بفدك ايضا . والخامسة بقيادة بشير بن سعد الى غطفان ، نجح اكثرها وأدى المهمة التى انتدب اليها . وهكذا ما كان يدخر جهدا فى نشر الاسلام وتعميمه

١٥
فتح مكة

انقضى العام الاول لصلح الحديبيــة او كاد ، وجاء زمن العمرة فامر الرسول المسلمين ان يتهيؤا لزيارة مكة وان لا يتخلف احد ممن شهد الحديبية وخرج وخرجوا ومعه غيرهم حتى بلغ عددهم الالفين - كما قالوا وذلك فى شهر ذى القعدة للسنة السابعة - يسوقون ٦٠٠ ناقة للهدى ، وقد تسلح منهم ١٠٠ فارس ألفوا الطليعة ، وحملوا سلاحا خوف غدر او خيانة واستعدادا للنضال اذا حدث مايستوجبه

ولئن لم يعارض المكيون فى دخول المسلمين الى مدينتهم كما فعلوا فى المرة الاولى ، فقد قاطعوهم مقاطعة اقتصادية واجتماعية فلم يبيعوهم ولم يشتروا منهم ولم يتصــلوا بهم وجــلا بعض المكيين الى جبل قعيقعان كما لزم البعض الآخر منازلهم فلم يخرجــوا منها لئلا يتصلوا بالمسلمين او يحتكوا بهم ولعل زعماء قريش خافوا ان يؤثر القادمون من المكيين فى اخوانهم وابناء عمومتهم وآلهم المتخلفين ويستميلوهم اليهم فارادوا من هذا التدبير ان يقطعوا الطريق عليهم ويناموا مرتاحين فكان لهم ما ارادوا

ولم يشأ النبى ان يدخل مكة بكل من معه من الرجال خوف المفاجأة والغدر فاقام ٢٠٠ منهــم مسلحين بالســلاح الكامل فى بطن ياجج (مكان قرب مكة) وامرهم بان يكونوا على تمام الاهبة والاستعداد فيسرعوا الى نجــدة اخوانهــم اذا حدث حادث

واصطف بعض المكيين من الزعماء والرؤساء عند دار الندوة (قرب الكعبة) لرؤية المسلمين عن كثب حين طوافهم ، ودخل النبى مكة للمرة الاولى بعدما هجرها يحيط به انصاره ورجاله ، وقد اخذ عبد الله بن رواحة شاعر الانصار بخطام ناقته

و بعد ما اتم هو واصحابه الطواف والسعى نحر هــديه عنــد المروة وحلق ايذانا

بانتهاء العمرة ثم امر مائتين من رجاله الذين قضوا مناسكهم بأن يذهبوا الى جرول (بطن ياجج) فيحلوا محل اخوانهم فيأتى هؤلاء لاداء مناسكهم ففعلوا

وانقضت الايام الثلاثة التى سمح للسلمين بان يقضوها فى مكة عملا باحكام المادة الثالثة من اتفاق الحديبية ، فجاءه ظهر اليوم الرابع سهيل بن عمرو (بطل معاهدة الحديبية ومندوب قريش فى عقدها وتوقيعها) وحويطب بن عبد العزى وناشداه العهد بان يخرج من ارضهم عملا بالاتفاق ، فأمر رجاله بالرحيل فرحلوا وعادوا الى المدينة سالمين من دون أن يحدث لهم حادث . ولاريب ان دخولهم على قريش فى غيلها ، وظهورهم بما ظهروا به من القوة اثر فى نفوس الكثيرين من ابنائها وعجل فى خضوعها للسلمين فانه لم يكد ينقضى عام على العمرة حتى كان كل شىء قد انتهى وحتى دخلت مكة فى حوزة المسلمين وخضعت قريش لهم وعلت كلمتهم فى الحجاز واصبحوا اصحاب الامر والنهى فى ربوعه

و بيان ماحدث انه لما عقد اتفاق الحديبية ، وخيرت القبائل الضاربة حول مكة فى الانضمام الى احدى الفئتين (انظر ص ١١٩) انحازت خزاعة الى المسلمين (وكانت تنزل باسفل مكة عند بئر يقال له الوتير) ودخلت فى عقدهم وانحاز بنو بكر بن عبد مناة الى قريش ودخلوا فى عقدها ، وكان بين هاتين القبيلتين خلاف قديم وثارات مطلوبة

واغتنم نوفل بن معاوية الديلى (من بنى ديل من بنى بكر) فرصة الهدنة وقعود الناس عن الحرب ، فأعد عدته لمهاجمة خزاعة طلبا لثأر قديم له عندها ، و باغتها ذات ليلة على بئر الوتير (اسفل مكة) فدار قتال بين الفريقين قتل فيه خزاعى واحد واستؤنف القتال فى الغداة بين الفريقين فامدت قريش احلافها من بنى بكر بالسلاح والرجال ، ويقال ان بعض زعمائها اشترك فى القتال متخفيا لئلا يتهم بنقض العهد وفقدت خزاعة فى هذه المعارك ٢٠ قتيلا وقيل اكثر

ولما وصلت الحالة الى هذه الدرجة من الخطورة ، قصد عمرو بن سالم الخزاعى المدينة ومعه احد بنى كعب ، ليستنجد حلفاءه المسلمين وليذكر لهم عمل قريش

ومهاجمتها اياهم ونقضها العهد وتبعه ايضا بديل بن ورقاء كبير بنى خزاعة مع وفد من قومه فقابلوا الرسول واطلعوه والمسلمين على ماحدث لهم بالتفصيل

ورأت قريش أن تتدارك الامر وان تزيل ما تركته زيارة الخزاعيين للمدينة من اثر فى نفوس المسلمين فانتدبت ابا سفيان لزيارتها فيسعى لحل الخلاف سلما، ولابقاء عهد الحديبية نافذا محترما ويمد مدته اذا امكن فقد ذاقت (قريش) بواسطته طعم الهدوء والراحة بعد ما حرمتهما طويلا فعكفت على العناية بتجارتها ومصالحها الاقتصادية ولاتنمو التجارة الا فى ظل الهدوء والسكينة

ووصل ابوسفيان المدينة وقصد منزل كريمته ام حبيبة زوج النبي وقد تزوجها مدة اقامتها مهاجرة فى الحبشة ثم دخل عليها بعد وصولها الى المدينة فى جمادى الاولى من السنة السابعة للهجرة، فاستراح قليلا ثم اتى المسجد فزار النبي وكلمه فيما جاء لاجله وعرض عليه ان يمد اجل الهدنة واعتذر عما حدث من بكر وخزاعة فاعرض عنه وابى ان يجيبه و يناقشه فزار ابا بكر ورجاه ان يتوسط لاصلاح ذات البين فرفض فقصد عمر بن الخطاب مستشفعا فرفض التدخل وانكر عليه ان يزوره لمثل هذا الامر وهو المعروف بشدة عداوته لقريش وقال له والله لو لم اجد الا الذر لجاهدتكم به فخرج حتى جاء على بن ابى طالب وكلمه كلاما رقيقا لينا لاثارة عاطفته وقال له انك امس القوم بى رحما وانى قد جئت فى حاجة فلا ارجع كما جئت خائبا فاشفع لى عند محمد فاجابه معتذرا

والتفت ابو سفيان الى السيدة فاطمة وكانت تشهد المجلس وامامها ابنها الحسن وكان لا يزال طفلا يدب بين يديها ورجاها ان تأمر ابنها (الحسن) ان يجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر فاعتذرت اليه وقالت ما يجير احد على رسول الله

وسأل ابو سفيان عليا ان ينصحه فى الخطة التى يسير عليها بعد ما اقفلت فى وجهه الابواب وضاقت عليه السبل ، فأشار عليه أن يقوم بنفسه فى المسجد فيجير بين الناس بصفته سيد كنانة وزعيمها . ثم يعود الى مكة . ففعل ما اشار به عليه ثم عاد الى قومه فقص عليهم ما وقع فادركوا انه فشل فى مهمته وعرفوا ان المسلمين

لن يسكتوا عنهم،وقد جاءت الحوادث مؤيدة لما توقعوه فقد اصدر الرسول على اثر سفر ابى سفيان امرا بالتعبئة العامة واشار بان تكون « سرية » كما امر باقامة حراس على الطرق المؤدية الى مكة فلا يفلت احد ولايصل الى قريش خبر

الزحف على مكة

ولما اتم تعبئته غادر المدينة يوم ٨ وقيل ١٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة يقود جيشا مسلحا منظما موحد القيادة والغاية يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل وقيل عشرة آلاف وقيل اثنى عشر الفا وهذا بيان عنهم مأخوذ من السيرة الحلبية :

٧٠٠ مهاجر
٤٠٠٠ انصارى
١٠٠٠ من مزينة
٤٠٠ من اسلم
٣٠٠ من جهينة

وكان فى هذا الجيش ٩٨٠ فرسا موزعة كما يأتى : ٣٠٠ للمهاجرين و ٥٠٠ للانصار و ١٠٠ لمزينة و ٣٠ لاسلم و ٥٠ لجهينة . ويقول ابن هشام انه غادر المدينة يقود عشرة آلاف ، ولا يدخل فى هذا الاحصاء الذين انضموا اليه فى اثناء الطريق من اسلم وغفار واشجع وسليم،وقد ارسل يستنفرهم ويقدرون عند بعض المؤرخين بألفين اى ان مجموع الجيش عند هؤلاء اثنا عشر الفا لاعشرة كما ذهب اليه ابن هشام ولا ستة آلاف وار بعمائة كما اثبت صاحب السيرة الحلبية وسلك المسلمون الطريق السلطانى المعروف فى زحفهم

النزول بمر الظهران

وواصل هذا الجيش اللجب تقدمه وسار يطوى الفيافى والقفار والمسلمون صائمون وهم جد حريصين على كتمان امرهم واخفاء خبر مسيرهم حتى وصل الى مر الظهران

(واد كبير تتجمع سيوله من جملة شعاب واودية شمالى وشرقى مكة وينحدر سيله غربا فيسقى جميع المزارع فى وادى فاطمة ويبعد عن مكة ٣٠ كيلومترا) فاستقر فيه وضرب مخيمه استعدادا للعمل العظيم الذى ينتظره

تدابير قريش

وغم على اقطاب قريش امر المسلمين وانقطعت اخبارهم عنهم ـ ولما كانوا واثقين من انهم لن يقعدوا عنهم وانه لابد لهم من الانتقام منهم لغزوهم خزاعة فقد اقلقهم جهل مايدبر فى المدينة

وغادر ابو سفيان مكة فى الليلة التى نزل فيها المسلمون مر الظهران ومعه حكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء لتجسس الاخبار وسؤال الركبان عن حالة المسلمين وقال لصاحبه وقد استوقفت نظره النيران التى اضرمها المسلمون بمر الظهران انه مارأى نيرانا كالنيران المشبوبة الليلة فأجابه بديل لعلها نيران خزاعة

ـ ان خزاعة اقل من ان تكون هذه نيرانها

وادركهم العباس بن عبد المطلب وقد ازمعوا الرجوع الى مكة ، وكان العباس قد خرج مهاجرا الى المدينة للانضمام الى ابن اخيه ، فالتقى به فى الطريق وعاد معه ، فنادى ابا سفيان فوقف له وقال له ماوراؤك

ـ هـذا رسول الله فى الناس

ـ ما الحيلة ؟

ـ انصحك بان تركب عجز هذه البغلة ورائى (وكان يركب بغلة رسول الله) فآتيه بك واستأمن لك

ـ موافق

واردف العباس ابا سفيان وجرت بهما البغلة حتى وصلا خيمة النبى فنزلا عنها واسرعا فدخلا عليه وكان عمر بن الخطاب يعدو وراءهما محاولا قتل ابى سفيان قبل ان يدخل خيمة الرسول فيجيره فلم يحل ذلك بين عمر وبين اقتحام الخيمة

فأخذ العباس برأس ابى سفيان وقال يارسول الله انى اجرته وهو فى جوارى

وطال الجدال بين العباس وعمر بن الخطاب هـذا يلح فى قتله وذاك ينادى بانه اجاره واخيرا امر الرسول العباس وكان يسمع مايدور بينهما بان يبقيه عنده حتى الغداة ليبت فى امره

وجاء العباس فى الغداة بأبى سفيان فلما دخل عليه بادره بقوله

ـ ويحك يا ابا سفيان الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟

ـ ما احلمك وما اكرمك واوصلك والله لقد ظننت انه لو كان مع الله إله آخر لاغنى عنى شيئا

ـ الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله ؟

ـ اما هذه فوالله ان فى النفس منها شيئا حتى الآن

فتدخل العباس وقال له ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فاسلم

واقترح العباس على ابى سفيان بعد مادخل فى الاسلام و بعـد ماتقرر زحف المسلمين على مكة ان يسرع بالرجوع اليها فيتوسط لتستسلم من دون حرب ولا قتال حقنا للدم ولانه لاطاقة لها بالمقاومة فانطلق فدخلها فصرخ بأعلى صوته قائلا :

يامعشر قريش : هـذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لـكم به فاسلموا

فصاحت زوجته هند فى وجهه وشتمته ونادت بقومها قائلة :

اقتلوا الخبيث

فقال لهم « ويلـكم لاتغرنـكم هـذه من انفسكم فانه قد جاءكم بما لاقبل لـكم به ، فادخلوا دار ابى سفيان فمن دخلها فهو آمن ومن دخـل المسجد فهو آمن ومن اغلق بابه فهو آمن »

فتفرق الناس على الفور وقد قذف فى قلوبهم الرعب وجنحوا الى التسليم فقصد فريق المسـجد (الـكعبة) فلجأ اليـه واعتصم آخرون فى بيت ابى سفيان وآوى آخرون الى بيوتهم

كيف دخل المسلمون مكة

عبأ المسلمون جيشهم من الصباح تعبئة عسكرية، استعدادا لدخول مكة واعدوه على منوال جعلهم يحيطون بها من جميع الاطراف فقاد على بن ابى طالب الطليعة وتلقى امرا بان يدخل من كداء، وقاد الزبير بن العوام الجناح الايسر، وخالد بن الوليد الجناح الايمن وامر بان يدخل من الليط (اسفل مكة) وقاد عبيدة بن الجراح القلب . وقاد الرسول بنفسه الساقة (مؤخرة الجيش) وركز رايته على الحجون (اعلى مكة) وركب ناقته القصواء وتعمم بعمامة سوداء ولبس ملابس الاحرام

واصدر قبل الزحف، اوامره الى قادة الجيش وامرائه بان لايقاتلوا الا من قاتلهم، وان يعفوا عمن يستسلم اليهم واستثنى من ذلك احد عشر رجلا واربع نساء ، امتازوا بعدائهم الشديد للاسلام فهدر دماءهم وامر ان يقتلوا ولو وجدوا متعلقين باستار الكعبة وهذه اسماء الرجال منهم :

عبد الله بن خطل وعبد الله بن ابى سرح بن الحارث العامرى وعكرمة بن ابى جهل والحويرث بن نقيد ومقيس بن صبابة وهبار بن الاسود بن المطلب وكعب بن زهير بن ابى سلمى المزنى والحارث بن هشام المخزومى وزهير بن ابى امية المخزومى. وصفوان بن امية بن خلف الجمحى ووحشى بن حرب

وهذه اسماء النساء :

سارة مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف وهند بنت عتبة زوج ابى سفيان ام معاوية وفرتنا وقريبة وهما قينتان لعبد الله بن خطل ، وقد عفى عن اكثر هؤلاء بعد ذلك ولم يقتل منهم سوى الاول والرابع والخامس فقط وقتلت من النساء قريبة فقط وعفى عن الباقيات

مقاومة بسيطة

وحاول فريق من قريش تجمعوا فى الخندمة (اسفل مكة) بقيادة صفوان بن

امية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابى جهل المقاومة فصدمهم خالد بن الوليد وهزمهم بعد ماقتل ١٢ منهم

ولما انتهت المقاومة وتم الاستيلاء على جميع الاطراف مشى النبى على ناقته وانطلق حتى اتى الكعبة فطاف سبعة اشواط وصلى ركعتين شكرا لله على ماأولاه من نصر وتأييد . و بعد ماتسلم مفاتيح البيت وقف على بابه ، وكانت قريش مجتمعة فى الصفا فقال : لاإله الا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ، الا كل مأثرة او دم او مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج

يامعشر قريش :

ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب . يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا

يامعشر قريش و ياأهل مكة ماترون انى فاعل بكم ؟

ــ خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم

ــ اذهبوا فانتم الطلقاء

وكان فتح مكة يوم ٢٠ رمضان للسنة الثامنة من الهجرة . وهكذا سقط آخر معقل للوثنية فى الحجاز فانهارت بانهياره وتقلص ظلها

نتائج فتح مكة

والواقع ان فتح مكة على هذا المنوال ، لم يك خاتمة النضال بين المسلمين وقريش وحدها وقد امتد ٢١ سنة تقريبا ١٣ قبل الهجرة و ٨ بعدها بل كان خاتمة النضال فى بلاد العرب و وسيلة لاتساع نطاق الاسلام وانتشاره فى داخل الجزيرة وفى خارجها ، فلم يطل المطال على قبائل شرقى الحجاز ــ وكانت تلتزم الحياد فى العراك الدائر بين المدينة ومكة ــ حتى اقبلت وفودها تتسابق الى المدينة ، تعلن اسلامها وانضمامها الى الدولة

الجـديدة بمحض ارادتها واختيارها ومن دون ضـغط او ارهاب ، لانها ادركت عدم فائدة القعود والتردد

ويمكن القول ان فتح مكة انتج النتائج الآتية :

١ ـ قضى على الوثنية والشرك فى جزيرة العرب وعلى نظم الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وابدلها بدين التوحيد وانشأ لها نظما وعادات وتقاليد جديدة سعدت بها وارتقت

٢ ـ قضى على الحكم الاقطاعى فى جزيرة العرب واقام مقامه دولة موحدة قادت العرب الى مواطن النصر والفخار وسودتهم على العالم

٣ ـ قضى على نظام العصبية وعلى روح القبيلة وساوى بين الجميع فلا تفاضل ولا تنافس بل الكل اخوان فى ظل راية التوحيد

٤ ـ قضى على عهد الكفاح والنضال بين القبائل فانصرفت الى نشر الاسلام وتعزيزه

٥ ـ اعاد الصلح بين البيوت والعائلات ، وقد انقسمت على بعضها فى زمن الحرب فقاتل الابن اباه والاب اولاده فى سبيل الدين ونشره فالتأم الشمل وازيلت الاختلافات

ويضيق بنا النطاق لو حاولنا وصف الثمرات العظيمة التى جناها المسلمون من فتح مكة فهى كثيرة عميمة .

١٦

غزوة حنين وحصار الطائف

انصرف النبي فى خلال الايام الاولى للفتح الى قبول بيعة المكيين نساء ورجالا فدخلوا افواجا افواجا فى دينه ، والى انشاء نظام حكم جديد ، يقوم مقام النظام الارستقراطى العائلى القديم وقد انهار واندثر ، فعين عاملا لمكة يحكمها باسم الدولة الاسلامية ويدير شؤونها واعاد الصلح والوئام بين العائلات وشمل بعفوه كثيرين من الذين حكم باعدامهم واراق دماءهم

وسير من مقامه فى مكة سرايا الى الاطراف لاخضاع القبائل المجاورة وادخالها فى الطاعة ولهدم الاصنام والاوثان فى ديارها ـ بعد ما حطم الاصنام والاوثان فى مكة ومحاها ـ فارسل خالد بن الوليد الى « العزى » وهى شجرة كانت بنخلة (بين مكة والطائف) عندها وثن تعبده غطفان فقطع الشجرة وكسر الوثن وهدم البيت الذى كان فيه

وسير سرية اخرى بقيادة عمرو بن العاص الى سواع وهو اسم لصنم كانت تعبده هذيل فهدمه وعاد ولم يحدث له حادث . واراضى هذيل بين مكة والطائف

وسير سعد بن زيد الاشهلى الى مناة وهو صنم كانت الاوس والخزرج تعظمه فهدمه وعاد سالما . وكان مناة بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر الاحمر قرب قديد

و بعث بعد ذلك خالد بن الوليد الى بنى جذيمة من كنانة وكانوا باسفل مكة فى ناحية يلملم ، يدعوهم الى الاسلام فوقع بينه و بينهم سوء تفاهم ادى الى قتل بعضهم مع انهم اعلنوا حين وصوله اليهم دخولهم فى الاسلام ولما بلغ النبي ذلك تبرأ منه وارسل على بن ابى طالب الى بنى جذيمة فدفع دية القتلى

ثقيف وهوازن تجتمع

وجاءت الاخبار الى المسلمين فى مكة بان قبائل الطائف وهى هوازن (قبيلة عتيبة الشهيرة فى الحجاز ونجد وتنزل فى نفس منازل هوازن القديمة) وثقيف وسعد تتجهز لقتالهم وتستعد للزحف عليهم فاصدر النبي ﷺ الاوامر بالتأهب للقائها ، كما امر عبيد الله بن ابى حدرد الاسلمى بان يذهب اليهم ويختلط بهم ويأتيه بخبرهم فذهب اليهم وكانوا فى وادى حنين شرقى مكة فى طريق الطائف بينه وبينها نحو ٤٠ كيلومترا من ابتداء الوادى وهو طويل ، فاختلط بهم ودرس حالتهم عن كثب ثم عاد واخبره بما شاهد ورأى فقرر ان يسير اليهم

قوة المسلمين وتعبئتهم

غادر جيش المسلمين مكة ظهر يوم السبت ٦ شوال للسنة الثامنة قاصدا وادى حنين وعدته كما يقول المؤرخون ١٢ الف مقاتل منهم عشرة جاءوا معه من المدينة والفان من اهل مكة تطوعوا فى صفوفه ، وفى مقدمتهم ابو سفيان بن حرب وغيره من زعماء قريش الذين اسلموا حديثا

وعبأ النبي قواه حينما اقتربوا من اراضى العدو فكانت سليم فى المقدمة وعليها خالد بن الوليد ووزع الرايات فكان لواء المهاجرين مع على بن ابى طالب ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الاوس مع اسيد بن حضير

قوة القبائل وتدابيرها

بين الرواة اختلاف فى البواعث التى بعثت قبائل الطائف على التجمع لقتال المسلمين ، والذى عليه الاكثرون انهم تجهزوا للقائهم منذ ماعلموا بخروجهم من المدينة لانهم ظنوا انهم قاصدوهم فارادوا ان يسيروا للقائهم

وكذلك اختلف الرواة فى عدد جيش القبائل المتحالفة فقيل ان مجموعهم بلغ

١٥ الفا وقيل عشرين الفا ولايخلو الرقم الاخير من مبالغة ظاهرة فجمع جيش يبلغ عـدده ٢٠ الف مقاتل غـير متيسر فى منطقة صغيرة كمنطقة الطائف مع العلم ان قريشا ـ وكانت اقوى منهم واكثر ثروة واعظم نفوذا ـ لم تستطع ان تجهز جيش الاحزاب ولم يزد على عشرة آلاف الا فى عدة اشهر وقد اشتركت فيه قبائل عدة يزيد عـدد نفوسها على قبائل الطائف المتحالفة

واسلمت هـذه القبائل زمامها الى مالك بن عوف و ولته القيادة العليا ، لانهـا ادركت ان توحيدها فى مقدمة الوسائل التى تضمن النجاح

وعملا بامر القائد العام ـ مالك بن عوف ـ سارت القبائل المتحالفة بالظعن (اى النساء والاطفال والماشية) والذرارى والماشية (البنون والمال) هما اعز مايملك ابن البادية واغلاه ومعنى ذلك ان هذه القبائل كانت تدرك خطورة المهمة التى اقدمت عليها وانها كانت موطنة النفس على القتال حتى النفس الاخير املا بان تنتصر على المسلمين بعدما انتصروا على قريش ، فتفوز بالزعامة فى جنوبى الحجاز وتحيي عبـادة الاوثان بعد سقوطها

القبائل تباغت المسلمين

ومما يصح الاخذ به لتأييد هذه النظرية ـ نظرية استماتة هذه القبائل فى قتالها وازماعها المضى فى النضال حتى النهاية ورغبتهـا فى احراز نصر حاسم على المسلمين ـ هو انهـا اخذتهم على غرة حين تقدمهم فى وادى حنين ، والظاهر انهم اهملوا اتخاذ التدابير الاحتياطية التى تتخذها الجيوش عادة عند دخولها فى اراضى عدوها ، لانهم كانوا يعتمدون على كثرتهم كما كانوا يستخفون بقوة عدوهم ، ولولا ذلك لاعـدوا من العدة والتدابير مايضمن لهم اجتياز الوادى سالمين

وذاق المسلمون عاقبة الاهمال ، وللاهمال مهما كان شكله عواقب وخيمة ، فقد وقع الذعر والاضطراب فى صفوفهم ، حينما كرت عليهم القبائل المتحالفة واخذتهم على حين غرة فى فجر اليوم الثالث لمسيرهم فى مضيق وادى حنين ، ففر اكثرهم لايلوون

على شيء لانهم ماكانوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة،وهي المرة الاولى التي اخذ بها الجيش الاسلامي على هذا المنوال في خلال السنوات التي تولى النبي فيها قياده

و وقعت القبائل المتحالفة في نفس الخطأ الذي وقع فيه الرماة المسلمون يوم احد، فانها بدلا من المضي في مطاردة المنهزمين ، انصرفت الى الاشتغال بجمع الغنائم والاسلاب لاعتقادها ان المعركة انتهت ، وان النصر عقد لها ؛ والحصول على الكسب اول ما ينشده ابن الصحراء في حروبه

ورأى النبي الفرصة سانحة للعمل ، وللقيام بهجوم معاكس على العدو ، وضربه ضربة شديدة ، فوقف الى طرف الوادي وحوله خاصته وكبار هيئة اركان حربه : ابو بكر وعمر وعثمان وعلى والعباس ، وكانوا محيطين به على الدوام ، وغيرهم من كبار الانصار والمهاجرين، يدعو الناس الى الالتفاف حوله قائلا :

انا النبي لا كذب   انا ابن عبد المطلب

ولم يكتف بهذا النداء بل كر على بغلته لاحقا بالمنهزمين وداعيا اياهم الى الوقوف والثبات ثم اوعز الى عمه العباس بان ينادي في الانصار ــ والانصار عمدة الجيش الاسلامي ودعامته ــ ويدعوهم الى الالتفاف حول النبي فناداهم قائلا :

يا اصحاب السمرة ، يااصحاب سورة البقرة ، هلموا هذا رسول الله، فأقبلوا على صوته، حتى اذا تكامل عددهم، وانتظمت صفوفهم، وكان النهار قد اشرق حملوا على اعدائهم ، وكانوا مشغولين بجمع الغنائم غير حاسبين للحوادث حسابها فأخذوهم على غرة وهزموهم هزيمة شنعاء ونكلوا بهم واستردوا منهم ماغنموه كما اخذوا ذراريهم ونساءهم وقتلوا عددا كثيرا من رجالهم وفي جملتهم دريد بن الصمة وجرح خالد بن الوليد في ذاك اليوم لكثرة ماقاتل .

و واصل المسلمون تقدمهم نحو الطائف لمطاردة المنهزمين الذين لجأوا اليها وتبعد الطائف عن مكة ١٢٠ كيلو مترا وهي واقعة الى شرقيها ، اي انهم لم يكتفوا بهزيمة المتحالفين بل لحقوا بهم في عاصمتهم لاحتلالها وادخالها في ادارة الدولة الجديدة :

وقبل ان يزحف الجيش على الطائف ، سير سرية بقيادة ابي عامر الاشعري

لمطاردة العدو وقد انقسم حين انسحابه الى قسمين : قسم لحق بالطائف وهو الاكبر وقسم قصد نخلة قرب مكة اى انه سار نحو الغرب ، فلحق بهم ابو عامر هذا وقاتلهم وحل محله ابن اخيه ابو موسى الاشعرى حينما قتل

وواصل النبي تقدمه حتى نزل قريبا من سور الطائف ، وهى مشهورة بسورها ولا يزال قائما حتى الآن، وكان المتحالفون قد سبقوا اليه وتحصنوا فى داخله ، فلما قدم المسلمون رموهم بنبالهم فقتلوا منهم ١٢ رجلا وجرحوا كثيرين وفى مقدمة الذين جرحوا فى خلال ذلك الحصار ابو سفيان بن حرب فقد فقئت عينه

وضرب المسلمون الحصار حول الطائف ونصبوا المنجنيق وهى اول مرة يستعملونه فى حروبهم ، كما قطعوا الشجر والكرم ، فعلوا ذلك فى بنى النضير وقريظة وخيبر من قبل ارهابا لرجالها وحملا لهم على الاستسلام ، فلم تجنح ثقيف الى التسليم بل اصرت على المقاومة والنضال ، ورأى المسلمون بعد حصار ١٨ يوما ، انه ليس من مصلحتهم اطالة الاقامة حول السور او بذل ضحايا كبيرة لاحتلاله ، فتركوه وعادوا الى مكة

ونزل المسلمون فى الجعرانة (وتبعد ٤٠ كيلومترا عن مكة) فى طريق الطائف ، اى انهم لم يقصدوا مكة مباشرة وضرب النبي مخيمه فيها، واقام فيها ثلاثة عشر يوما ، ووزع فيها الغنائم التى غنموها فى غزوتهم ويقولون انها بلغت ٢٤ الف بعير و ٤٠ الف شاة ولربعة آلاف اوقية من الفضة ، عدا النساء والذرارى ، ولم يوزع هؤلاء رحمة بهم ، وجاءه فى مقامه هنالك وفد هوزان وعددهم ١٤ من كبار رجالهم فأعلنوا اسلامهم وندمهم وسألوه ان يرد عليهم ما أخذه منهم فرد عليهم النساء والذرية واستبقى الابل والماشية والفضة ووزعها على الذين اسلموا حديثا من اهل مكة واشتركوا فى تلك الغزوة وهى اول قتال يشتركون فيه دفاعا عن الاسلام . وجاءه وهو فى الجعرانة ايضا مالك بن عوف قائد القبائل فاسلم واسلمت ثقيف بعده

ودخل مكة يوم ١٧ ذى القعدة محرما اى ان غزوة حنين استغرقت ٣٧ يوما فلم يقم فيها سوى يوم واحد ثم قصد المدينة عاصمته فاستقر بها

١٧
انتهاء الاعمال العسكرية فى الحجاز

وبيان عنها

كانت معركة حنين ، آخر معركة عسكرية ، ادار الرسول ﷺ رحاها ، وتولى قيادتها ، كما كانت آخر قتال شهده ، وبها انتهى فتح الحجاز عمليا ، وخضع للاسلام فلم يرتفع بعدها للوثنية رأس ، ولم ينبه لها ذكر ، واقبلت وفود القبائل من جميع انحاء بلاد العرب طائعة ، تعلن دخولها فى الدين الاسلامى وخضوعها للدولة الجديدة التى انشأها المسلمون

ولقد استغرق فتح الحجاز كله ــ وفى جملته نجد ، ولم يشهر سيف فى فتحها وكانت تعد جزءا من اراضى الحجاز ــ سبع سنين ، ابتدأت فى شهر رمضان وهو الشهر السابع لنزول المسلمين المدينة بسرية حمزة وانتهت فى شهر ذى القعدة من السنة الثامنة ــ ظلت بعوثهم العسكرية تترى فى خلالها ، وظلوا فى نضال عنيف مع قريش واحلافها ، فلم يخلدوا الى الراحة حتى تم لهم الفوز والنصر ، فاخضعوا الحجاز لسلطانهم بفضل ثباتهم وتفانيهم والتفافهم حول نبيهم وقائدهم وهاديهم وكانوا ينتقلون من نصر الى نصر ومن فوز الى فوز حتى علت كلمتهم وهزم الشرك وقضى على عبادة الاوثان ، ودخل العرب فى دور جديد من الحياة والاستقرار لاعهد لهم به من قبل

والبيانات المفصلة التى اثبتناها وهى مستقاة من اوثق المصادر التاريخية تدحض الزعم القائل بان الدين الاسلامى قام على السيف وانتشر به ، فعدد المعارك الحقيقية

التى خاضها المسلمون فى خلال هذه الفترة الطويلة هى اربع معارك لا اكثر ولا اقل وهذه اسماؤها بحسب وقوعها :

١ ــ معركة بدر الكبرى
٢ ــ معركة احد
٣ ــ معركة خيبر
٤ ــ معركة حنين

تلك هى المعارك العسكرية الكبيرة التى خاضها النبي بالذات وقاتل فيها او ادار دفتها ، وقد كان المسلمون فيها مدافعين لامهاجمين ، تؤيد ذلك البيانات التاريخية الصحيحة التى اوردناها . ونعود هنا الى بسطها بايجاز اتماما للفائدة فنقول :

١ ــ معركة بدر ــ خرج المسلمون يوم بدر لمهاجمة قافلة قريش لا ليحاربوها ولا ليعتدوا عليها ، فلما سلمت القافلة ولم يعد فى الامكان الحصول عليها استشار النبي اصحابه على عادته ــ وكان لايبت فى امر من الامور الخطيرة الا برأيهم ، عملا بمبدأ الشورى الذى جاء به ــ وسألهم هل يعود الى المدينة أم يصمد لقريش وكانت فى طريقها الى بدر للقائه ففوضوا اليه بان يعمل مايراه موافقا للمصلحة وقالوا له انهم يتبعونه من غير قيد ولا شرط وينفذون اوامره

وماخطر ببال المسلمين فى موقفهم ذاك ان يهاجموا قريشا او يقاتلوها لانهم كانوا يعرفون انها تفوقهم عددا وعددا ولو رجعت الى مدينتها طبقا لاقتراح ابى سفيان لما وجدت من يطاردها ، وقد رجع فعلا بنو سهم حينما وصلت الاخبار اليهم بوصول القافلة سالمة ــ وكانت الغاية من خروجهم انقاذها ــ فلم يلحق بهم احد من المسلمين ولم يطاردهم ، بيد ان اصرار ابى جهل على القتال وموالاة الاكثرية وتأييدها له فى خطته رغم نصيحة عتبة بن ربيعة وغيره من اصحاب الرأى لهم بالرجوع ، جعل الحرب واقعة ، فقد استهان ابو جهل ومن شايعه بالمسلمين وكانوا قوة قليلة ضئيلة بالنسبة لهم ، وظنوا ان فى استطاعتهم القضاء عليهم والتخلص منهم ، فلم يجد هؤلاء بدا من الدفاع عن انفسهم ، اى انهم كانوا فى حالة الدفاع المشروع ، وفى حالة رد الاعتداء ،

وقد صدقوا الحملة واحسنوا اختيار مواقعهم واحكموا تنظيم صفوفهم فكان النصر فى جانبهم ودارت الدائرة على قريش الباغية ، وعلى الباغى تدور الدوائر

٢ ـ معركة احد ـ ووقع يوم احد ماوقع فى بدر ايضا فقد سارت قريش بقضها وقضيضها ، ونسائها ، ورجالها للانتقام لقتلاها فى بدر وللثأر من المسلمين الذين كانوا يدافعون عن كيانهم ، ومع ان الغلبة كانت فى جانب هؤلاء لانهم احسنوا تعبئة جيشهم وتنظيم صفوفهم ، الا ان الخطأ الكبير الذى ارتكبه الرماة المسلمون ـ وقد ظنوا ان المعركة انتهت وان النصر تم لقومهم ـ غير الموقف وصير الانتصار انكسارا ، فقد اغتنم خالد بن الوليد ـ وكان على خيالة قريش فى ذلك اليوم ـ فرصة انكشاف جناح المسلمين الايسر فكر عليهم وقطع خط رجعتهم فوقع الذعر فى صفوفهم وقد قاتل النبي بالذات فى ذلك اليوم وجرح ، ولم يقاتل يوم بدر ، وانتهت المعركة بانكسار المسلمين ، بسبب خطأ الرماة (وقد استشهد اكثرهم) ومن تحصيل الحاصل القول بان المسلمين كانوا يوم احد فى حالة الدفاع المشروع عن النفس وعن الكيان .

٣ ـ معركة خيبر ـ والمعركة الثالثة التى شهدها النبي وتولى قيادة المسلمين فيها هى معركة خيبر وقد اسهبنا فى الكلام عن مقدماتها و وصف اسبابها وعواملها من قبل وخلاصة مايقال فيها هو انه بعد ان وقع ما وقع بين المسلمين واليهود فى المدينة وحولها ، لجأ كبار هؤلاء الى خيبر ، وكانت اعظم مراكزهم فى الحجاز واكبرها شأنا وعكفوا على دس الدسائس للاسلام والعمل للانتقام منه ، وصدور هذا العمل منهم غير مستنكر وهو مما تقره شريعة ذلك العصر ، وادرك المسلمون ان ما يدبر لهم فى خيبر ويطبخ فى مطبخها ، يهددهم باعظم خطر فى حاضرهم ومستقبلهم ، فقصدوها بجموعهم ودعوا اهلها الى الاسلام والدخول فيه والانضمام الى هيئتهم الجديدة ، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم ، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة فى نظرهم لحل الخلاف بعد الذى جرى ، لانهم لم يعودوا يثقون بعهود اليهود واتفاقاتهم ، بعد يوم بنى قريظة ، فرفض الخيبريون ما عرض عليهم ، وابوا الدخول فى الاسلام وحشدوا قواهم للنضال فلم ير

المسلمون بدا من منازلتهم فقاتلوهم وادرك هؤلاء ان لافائدة ترجى من المقاومة فطلبوا الصلح فتفاوضوا فتم الاتفاق على الصلح ، فغادروا البلاد من دون ان يمس احد منهم بسوء او يعتدى عليهم اوتخرق حرمة الميثاق الجديد ، مما يؤيد ماذهبنا اليه وهو ان المسلمين ما ارادوا الحرب لذاتها ولا مشوا اليها وانما اضطروا اليها اضطرارا لانهم كانوا بين شرين : شر ترك الخيبريين ، وشأنهم ولا يأمنون ان يؤتوا من جانبهم ويؤلبوا عليهم القبائل كما فعلوا فى المرة الاولى يوم الاحزاب ؛ وشر قتالهم واجلائهم وهو الاخف والافضل بالنسبة اليهم ، ولم يقدمو على هذا اعتباطا ، ولكنهم دعوا اليهود الى الدخول فى دينهم والاشتراك فى الهيئة الاجتماعية الجديدة التى انشأوها والمساهمة فى اسواقها فابوا ؛ ولما لم يبق مناص من القتال اقدموا عليه بعد ما استنفدوا الجهد فى بلوغ السلام والوفاق ، وغايتهم دفع الخطر الذى كان يتهددهم من ناحية خيبر لا مهاجمتها بالذات

ولابد لنا من الكلام بهذه المناسبة عن حادث بنى قريظة وهو ايضا حادث فذ فى تاريخ الاسلام والباحث المنصف يسلم بان المسلمين لم يقدموا على معاملة القرظيين تلك المعاملة الشاذة القاسية ، وتاريخ النبى فى جميع ادوار حياته شاهد بحبه للعفو والصفح وعدم ميله للانتقام والعقوبة الا لضرورة قصوى ، فقد عفا عن كثيرين من اعدائه الشخصيين ومن الذين آذوه يوم فتح مكة مما دل على انه من ابعد الناس عن الانتقام ، ولا يتفق مع ما امتاز به من اخلاق عالية سامية ، بوأته ارفع مقام ، ورفعته الى اعلى ذروة من ذرى المجد والخلود

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان النبى لم يعامل احدا من يهود الحجاز — وكانوا يبلغون بضعة عشر الفا كما قدرناهم — بما عامل به القرظيين ، لاقبل هؤلاء ولا بعدهم فقد اكتفى باجلاء بنى قينقاع و بنى النضير حين ادرك انه لم يعد فى الاستطاعة السكوت عن دسائسهم واكتفى منهم بالرحيل مع العلم انهم لم يستسلموا اليه ولم ينزلوا على حكمه الا مضطرين لانه اقوى منهم ، ومعنى ذلك ان فوزه عليهم كان فى حقيقته فوزا عسكريا ومع ان الشرائع النافذة فى تلك الايام تطلق يد الغالب فى معاملة المغلوب اطلاقا

تاما فله ان يقتله أو يسترقه و يستخدمه فى جميع شؤونه ومرافقه مدى الحياة مع اهله وولده من دون قيد ولا شرط فان النبي قد ترفع عن معاملتهم بمقتضى الشرائع التى كان الناس يخضعون لها ولا يرون فيها ماينكر ، وعاملهم بالرفق والاحسان وتركهم يذهبون انى شاءوا بجاوا حاملين متاعهم واموالهم ، يغنون وينشدون ويرقصون . ولا نظن ان غالبا فى ذاك العصر عامل مغلوبه بافضل مما عامل به النبي ﷺ بنى قينقاع

وكانت جريمة بنى النضير افظع واشد ، فقد قعدوا عن الدفاع عن المدينة حينما هاجمتها قريش يوم احد ، ولم يشتركوا فى القتال خلافا للعهود المعقودة بينهم وبين المسلمين ، وتآمروا على النبي حينما زارهم يريدون اغتياله والتخلص منه ، كما نظم بعض شعرائهم القصائد فى تمجيد قتلى قريش يوم بدر وفى الطعن بالمسلمين ، يضاف الى هذا اتصالهم بقريش ، عدوة المسلمين يومئذ ووصل حبلهم بحبلها وتردد زعمائهم على مكة واثارتهم الاحقاد على المسلمين واغراء قريش بهم ، مما جعل التغاضى عنهم لايطاق ولا يحتمل ، فسار المسلمون اليهم واحاطوا بحصونهم ، ولما ادرك هؤلاء انه لاقبل لهم بالمقاومة والثبات ، جنحوا الى السلام فصالحهم على شروط اثقل من شروط أولئك لان جريمتهم كانت اعظم فنزع منهم السلاح والميرة والماشية وبعض المتاع ولم يسمح لهم الا بنقل مااستقلت به الابل

وصالح اهل خيبر بعد ماغلبهم على الجلاء فقط وصالح وادى القرى وفدك وتيماء على شروط غاية فى الاعتدال فاقرهم فى بيوتهم ومنازلهم ولم يعتد عليهم ولم يسلب منهم شيئا مكتفيا بالطاعة والانقياد وارسل الى بلادهم العمال والحكام يسوسونهم ويجبون منهم الجزية (الضرائب) كالرعايا الآخرين مما يدل على انه ما كان واجدا على اليهود لانهم يهود ، ولا متعمدا الاساءة اليهم ، وانه فى اجلائه بنى قينقاع ثم بنى النضير وفتكه بقريظة ثم محاربته خيبر ثم فى صلحه مع سكان وادى القرى وفدك وتيماء لم يك معتديا ولا جائرا وانما فعل ما اعتقد ان مصلحة جماعته تقضى به حرصا على مستقبلها وكيانها . ولا نشك فى ان اليهود لو انصفوه وعاملوه بما كان يعاملهم به من الرعاية

والحرمة ، فى ابتداء امره لما اريق دم من دمهم ولكن ما قدر كان

٤ ـ غزوة حنين ـ وكان شأن المسلمين يوم حنين شأنهم يوم بدر ويوم بالضبط اى انهم كانوا يحاربون دفاعا عن انفسهم وعن كيانهم فقد تجمعت قبائل ثقيف وهوازن وسعد وسارت اليهم من دون اى باغث يوجب ذلك ، ورأى المسلمون انهم امام خطر عظيم ، فخرجوا للقاء القبائل المتحالفة ومهاجمتها قبل ان تهاجمهم فاغتنمت فرصة غفلتهم وعدم اتخاذهم من التدابير مانقضى القواعد الحربية باتخاذه فباغتتهم وهزمتهم ، ولولا انشغال القبائل المنتصرة بجمع الغنائم والاسلاب ، وثبات النبى ومعه بعض الصحابة ومناداتهم الانصار والتفاف هؤلاء حول الرسول ثم كرهم على القبائل المشغولة بجمع الغنائم وتغلبهم عليها ، لكانت النكبة شديدة ومما لاريب فيه انهم كانوا فى حالة الدفاع المشروع عن النفس ، ولا نظن منصفا يمارى فى هذا او يشك فيه

تلك هى المعارك الكبرى التى شهدها النبى بنفسه وتولى قيادتها وادار حركة القتال فيها وما كان المسلمون فيها بمعتدين او باغين او ظالمين بل كانوا فى حالة الدفاع المشروع عن النفس

بقيت هنالك غزوات اخرى غزاها او سرايا سيرها فى خلال تلك المدة الطويلة فقد بلغ عدد غزواته مع الغزوات الاربع التى تقدم الكلام عليها ٢٤ غزوة هذا بيان عنها وعن عدد قتلاها :

بيان عن الغزوات

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم الغزوة	ملاحظات
		١ ــ ودان او الابواء	لاقتال فيها
		٢ ــ بواط	» » »
		٣ ــ بدر الاولى	» » »
		٤ ــ العشيرة	» » »
٨	٧٠	٥ ــ بدر الكبرى	
		٦ ــ بنو سليم	لاقتال فيها
		٧ ــ بنو قينقاع	» » »
٢		٨ ــ السويق	
		٩ ــ امراوغطفان	لاقتال فيها
٧٠	٢٣	١٠ ــ احد	
		١١ ــ حمراء الاسد	لاقتال فيها
		١٢ ــ بنو النضير	» » »
		١٣ ــ ذات الرقاع	» » »
		١٤ ــ بدر الثالثة	» » »
		١٥ ــ دومة الجندل	» » »
		١٦ ــ المريسيع	» » »
٦	٣	١٧ ــ الخندق	
١		١٨ ــ بنو قريظة	قتل كل رجالها اليهود
		١٩ ــ بنو لحيان	لاقتال فيها
١		٢٠ ــ ذو قرد	
١٥	٩٣	٢١ ــ خيبر و وادى القرى	
٢	٢٨	٢٢ ــ فتح مكة	
١٢	مجهول	٢٣ ــ حنين والطائف	
		٢٤ ــ تبوك	لاقتال فيها
١١٧	٢١٧		

بيان عن السرايا

وهذا بيان آخر باسماء السرايا التى سيرها وعددها وعدد القتلى فيها :

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم السرية	ملاحظات
		١ ـ سرية حمزة	لاقتال
		٢ ـ سرية عبيدة بن الحارث	« «
		٣ ـ سرية سعد بن ابى وقاص	« «
	١	٤ ـ سرية عبد الله بن جحش	
		٥ ـ سرية زيد بن حارثة	لاقتال
٥		٦ ـ سرية الرجيع	تبشير بالدين
٦٩		٧ ـ سرية بئر معونة	« «
		٨ ـ سرية عكاشة بن محصن الاسدى	لاقتال
٩		٩ ـ سرية محمد بن مسلمة الى ذى القصة	« «
		١٠ ـ سرية ابى عبيدة الى غطفان	لاقتال
		١١ ـ سرية زيد بن حارثة الى بنى سليم	« «
		١٢ ـ « « « « « العيص	« «
	٢	١٣ ـ « « « « « الى جذام	« «
		١٤ ـ « عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل	« «
		١٥ ـ « على بن ابى طالب الى بنى سعد	« «
		١٦ ـ « عمر بن الخطاب الى هوازن	« «
مجهول العدد		١٧ ـ « ابى بكر الى بنى كلاب	
		١٨ ـ « بشير بن سعد الى بنى مرة	لا قتال
٨٣	٣		

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم السرية	ملاحظات
	مجهول	١٩ ــ سرية غالب الليثى الى نجد	لاقتال.
		٢٠ ــ « بشير بن سعد الى غطفان	لاقتال.
٤٩		٢١ ــ « الاجزم الى بنى سليم	
		٢٢ ــ « غالب الليثى الى كديد	لاقتال.
	مجهول	٢٣ ــ « « « الى بنى مرة	
		٢٤ ــ « شجاع بن وهب الى هوازن	لاقتال.
١٤		٢٥ ــ « كعب الغفارى الى ذات اطلاح	«
١٢	مجهول	٢٦ ــ سرية مؤتة	
		٢٧ ــ « عمرو بن العاص الى ذات السلاسل	لاقتال.
		٢٨ ــ « ابى عبيدة الى سيف البحر	لاقتال
مجهول	مجهول	٢٩ ــ « ابى قتادة الى نجد	قتال
		٣٠ ــ « « « الى اضم	لاقتال
	مجهول	٣١ ــ « خالد بن الوليد الى جذيمة	قتال
		٣٢ ــ « عينية بن حصن الى تميم	لاقتال
		٣٣ ــ « خالد بن الوليد الى نجران	لاقتال
		٣٤ ــ « اسامة بن زيد الى فلسطين	لاقتال
١٥٨	٣		

هذا هو بيان السرايا وعددها ٣٤ وهنالك من يضيف اليها سرايا ارسلت لاغراض خاصة كهدم الاوثان والاصنام فيجعلها ٣٨ كما ان هنالك من يزيد فى الغزوات ويجعلها ٢٧ او ينقصها الى ٢٦

عدد قتلى المسلمين فى جميع المعارك

فمن هذا الاحصاء يتبين ان عدد الذين قتلوا من المسلمين فى جميع الغزوات التى غزاها النبي وعددها ٢٥ غزوة لم يزد عن ١١٨ قتيلا كما ان عدد قتلى السرايا بلغ ٢١٧ يخرج منهم ٧٤ وهم قتلى الرجيع وبئر معونة وقد ارسلوا للتبشير لا لغزو ولا لفتح فلا يبقى سوى ١٤٣ قتيلا وباضافتهم الى مجموع قتلى الغزوات يبلغون ٢٥٨ قتيلا وهم كل مافقده المسلمون فى ٥٨ بعثا عسكريا سيروها فى خلال ٩ سنوات واتموا فيها فتح الحجاز واليمن وجانبا من الشام

عدد قتلى غير المسلمين

ويدل هذا البيان على ان قتلى خصوم المسلمين ومنافسيهم لم يزد فيما وصل الينا عن ٢٢٠ منهم ٢١٧ فى الغزوات و٣ فى السرايا يخرج منهم قتلى اليهود فى خيبر وعددهم ٩٣ فلا يبقى سوى ١٢٠ قتيلا يضاف اليهم مثلهم فى المعارك التى لم يذكر عدد القتلى فيها وهو اكبر تقدير فيبلغ المجموع ٢٤٠ قتيلا سقطوا فى خلال تسع سنوات . ولا يدخل فى هذا الاحصاء قتلى بنى قريظة اليهود

ويسلم الباحث المنصف بعد اطلاعه على هذا البيان وبعد اطلاعه على عدد الغزوات والسرايا والبعوث وعدد قتلى الفريقين بانه لم يكن هنالك قتال بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولا ارهاب ولا ارهاق وان السيف لم يكن العامل الوحيد فى فتح الحجاز واليمن وبعض اطراف الشام ، وانما هو تضامن المسلمين واتحادهم والتفافهم حول نبيهم ، واتباعهم تعاليمه ، وحسن نظامهم الداخلى ، وشدة ايمانهم ، وسمو الغاية التى يعملون لأجلها ، ويستميتون فى سبيلها ، يقابل هذا تفرق كلمة خصومهم وتشتتهم وعدم وجود روابط متينة تربطهم واعتقاد اكثرهم بعدم صحة العقيدة التى كانوا يدافعون عنها وشتان مابين الفريقين

وجملة القول ان الاسلام لم يوطد ولم ينتشر ويعظم الا بفضل سمو تعاليمه ، واخلاص رجاله الاولين ، وتضامنهم وتفانيهم فى سبيل تأييده واقتحامهم الاهوال والمخاطر لرفع كلمته وشأنه ، ولا بد من انتصار قوم هذه حالهم وفوزهم ونجاحهم

فتح نجد

نجد

معلومات جغرافية موجزة عنها

يطلقون اسم نجد فى الوقت الحاضر على هذه المنطقة الواسعة فى قلب جزيرة العرب ، وكانوا يعدونها من اجزاء الحجاز غير انهم اصطلحوا على الاسم الجديد واعتبروا نجدا مقاطعة مستقلة

وتقع نجد فى شرقى الحجاز وتبدؤ حدودها فى الوقت الحاضر من ذات عرق وهو مكان يبعد عن وادى السيل المعروف فى الحجاز ، وتمتد حدودها نحو الدهناء فى الشرق

ويشمل هذا التحديد الارض التى يحدها جبل شمر ومنطقة الهضاب الحجازية شرقى سلسلة جبال الحجاز وعسير فى الغرب والصحراء الكبرى من الجنوب والدهناء وتفصل بين نجد والحسا من الشرق

وكانت نجد فى العهد العثمانى خاضعة لتركيا وفيها امارتان مستقلتان استقلالا اداريا داخليا : امارة آل السعود فى العارض (السهل) وامارة آل الرشيد فى شمر (الجبل) ثم تغلب السعوديون فاكتسحوا نجدا كلها وبسطوا نفوذهم على الحجاز كما تقدم .

وفود نجد فى المدينة

كانت معركة حنين آخر معركة عسكرية تولى قيادتها النبي بالذات وادار رحاها ، كما كانت آخر قتال شهده ، وبها انتهى فتح الحجاز عمليا ، فلم يرتفع بعد ذلك للوثنية رأس ، ولم تقع بعدها معركة خطيرة الشأن ، فأقبلت قبائل جزيرة العرب كلها الى المدينة تقدم خضوعها للمسلمين ، وتدخل فى دينهم

وكانت قبائل الشرق او قبائل نجد ، كما نسميها الآن ، تنتظر نتيجة العراك الدائر بين مكة والمدينة فلما خضعت هذه وانتشر الاسلام فى ربوعها وعلت كلمة المسلمين ، هرع رؤساؤها وزعماؤها الى المدينة معلنين اسلامهم وكان وفد بنى تميم فى المقدمة وتقع بلادهم فى منتهى الشرق من القصيم ولا تزال هذه القبيلة فى نجد واكثر المدن والقرى النجدية تضم عناصر من تميم وقد تحضر جانب منها

وتنقسم تميم فى نجد اليوم الى ثلاثة بطون وهى :

١ ــ بطن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة

٢ ــ بطن سعد بن زيد بن مناة بن تميم

٣ ــ بطن عمرو بن تميم

وفى العراق ايضا قبائل تنسب الى هذه القبيلة وتنزل فى اطراف بغداد

١ ــ وفد بنى تميم

وتألف وفد بنى تميم برئاسة عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدى التميمى وقصد المدينة يمثل تميما بافخاذها وقبائلها وهذه اسماء رجاله :

الاقرع بن حابس التميمى والزبرقان بن بدر من بنى سعد وعمرو بن الاهتم

والحتات بن يزيد ونعيم بن يزيد وقيس بن الحرث وقيس بن عاصم اخو بنى سعد وثابت بن قيس وجاء معهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى وقد شهد فتح مكة وحنين مع المسلمين فألقوا الخطب والقصائد ودخلوا فى الاسلام

٢ — وفد بنى حنيفة

وقدم بعد ذلك وفد بنى حنيفة (اليمامة فى نجد) فأسلموا ايضا وجاء معهم مسيلمة ابن حبيب الحنفى ويكنى ابا ثمامة وهو الذى ادعى النبوة فى اليمامة وقاتل المسلمين بعد ذلك

٣ — وفد طيىء

وجاء وفد طيىء (نجد) فأسلموا وعادوا الى بلادهم

وفود اخرى

وتتابعت الوفود من جميع اطراف نجد وخضعت هذه البلاد للمسلمين ولا تزال على ذلك حتى الآن

فتح اليمن وحضرموت

اليمن

معلومات جغرافية عامة

اليمن قطر عربى واقع فى جنوبى جزيرة العرب الغربى ، وطوله من الشمال الى الجنوب (ماعدا عسيرا وتهامة) ٧٥٥ كيلو مترا ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلو متر

وتنقسم بلاد اليمن الى قسمين : سهلى وجبلى ، ويطلقون على السهلى اسم تهامة وتتصل حدوده الشمالية بالحجاز ، وكانت بعض قبائل تهامة مرتبطة برابطة التحالف مع قريش

وحدود اليمن الحاضرة كما يأتى : شرقا الاحقاف وغربا البحر الاحمر وشمالا الحجاز وجنوبا النواحى التسع وعدن . وفيه حكومة عربية مستقلة

***

اما حضرموت فقطر عربى فى جنوبى الجزيرة ايضا ، ويعده بعض الجغرافيين من مخاليف اليمن ، وكان منه فى الاصل ، اما الآن فهو مستقل استقلالا تاما ، ويحده من الشرق شعب وادى الزهور ، ومن الغرب عين باسعيد ومن الشمال رمال نجد والربع الخالى ، ومن الجنوب البحر العربى ، ومساحته السطحية نحو ١٢٠ الف كيلو متر مربع

وفى حضرموت حكومتان عربيتان: حكومة القعيطيين فى الساحل وحكومة الكثيرين فى الداخل وهما مشمولتان بالحماية البريطانية

١

دولة التبابعة فى اليمن

اليمن اقرب الاقطار العربيـة الى الحجاز فهو جارها الادنى ويتصل بها من الشمال اتصالا وثيقا وجبال السراة التى تشقه تبتدىء من شمالى الحجاز فليس هنالك فاصل طبيعى يفصل بينهما ، ولا اختلاف عادات يفرق بينهما ، ولا حكومة اجنبية قوية كما كان الحال فى الشام والعراق عند ظهور الاسلام، تحول دون اتصالهما .

وما كانت حالة اليمن الاجتماعية عند ظهور الاسـلام تختلف كثيرا عن حالة الحجاز ، فكانت فى اليمن كما كانت فى الحجاز ، قبائل مشتتة الشمل ، مفككة العقد لانظام ينظم امورها ، ولا حكومة تشرف على شؤونها

واول دولة عربيـة نشأت فى اليمن ووصلت الينا اخبارها دولة سبأ الاولى وكانت مأرب عاصمتها . وسبأ هذا هو والد قحطان ، وقـد نزح من شمالى الجزيرة (اى من العـراق) فى القرن الثامن قبل الميلاد ، بعد فوز الاشوريين ، فتغلب برجاله على اليمن وانشأوا فيها دولتهـم « دولة سبأ » وقـد اشتهرت بتأسيسها سد مأرب لاتقاء السـيول وكانت تنزل فى واد يسمونه وادى الميزاب يرتفع الف ومئة متر عن سطح البحر وتحيط به الجبال من كل ناحية ، ويضيق من جهتيه الشرقية والشمالية وينحصر بين جبلين يسمونهما بلق الايمن وبلق الايسر فى مسافة يقال انها ٦٠٠ خطوة

وكان طول السد الذى بناه السبئيون ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا وكان على مسافة قليلة من مضيق الوادى فكون مع جانبى البلقين الخارجيين مجرى عموديا على المضيق حول الماء من مجراه الاصلى وكان ذلك فى القرن السادس قبل الميلاد وفى عهد الملك ينعم ، و زاد خلفاؤه فيه من بعده ، وبنوا له الفتحات فصير البـلاد جنانا ، ونظم

الزراعة ورقاها ، وجنوا منه اطيب الثمرات ، وظلوا على ذلك حتى انفجر السد وانهدم ويقال أن ذلك كان فى القرن الثالث للميلاد ، فجلوا عن اليمن وتفرقوا فى الحجاز ونجد والعراق والشام فكانت منهم كندة فى نجد والمناذرة فى العراق والغساسنة فى الشام وقضاعة والاوس والخزرج فى شمالى الحجاز

وانفرط عقد الوحدة الادارية فى اليمن بعد سقوط دولة سبأ الاولى ، وقام فى كل مدينة او قبيلة متغلب لقب بلقب « ذو » واستمروا فى ذلك حتى اواخر القرن الاول للميلاد فتغلب ذو علهان صاحب ظفار على جملة مخاليف (مقاطعات) وكون منها دولة سبأ الثانية فبسطت نفوذها على اليمن فى اواخر القرن الثالث للميلاد ثم حلت محلها دولة التبابعة اسسها شمر برعش سنة ٢٧٥ للميلاد كما يقولون

وهذا جدول باسماء ملوك هذه الدولة ويلقب ملكها بتبع ومعناه ملك الملوك اى انه معادل للفظ امبراطور فى هذا العهد

شمر برعش	من سنة	٢٧٥	الى سنة	٣٠٠ م
ذو القرنين الصعب	« «	٣٠٠	« «	٣٢٠
عمرو زوج بلقيس	« «	٣٢٠	« «	٣٣٠
بلقيس (غير بلقيس سليمان)	« «	٣٣٠	« «	٣٤٥
الهدهاد ابو بلقيس	« «	٣٤٥	« «	٣٧٤
مليكرب ينعم	« «	٣٧٤	« «	٣٨٥
ابو كرب اسعد	« «	٣٨٥	« «	٤٢٠
حسان بن اسعد	« «	٤٢٠	« «	٤٢٥
شرحبيل بن يعمر بن اسعد	« «	٤٢٥	« «	٤٥٥
« « ينوف	« «	٤٥٥	« «	٤٧٠
معدى كرب ينعم وابنه لحيعة	« «	٤٧٠	« «	٤٩٥
مرثد اللات ينوف	« «	٤٩٥	« «	٥١٥
ذو نواس	« «	٥١٥	« «	٥٢٥
ذو جدن	« «	٥٢٥	« «	٥٣٥

و بين المؤرخين من يورد قائمة أطول لملوك هذه الدولة والارجح ماأوردناه

وتعد دولة التبابعة هذه من اعظم الدول العربية التى نشأت فى جنوبى الجزيرة وما كانت حضارتها لتقل عن حضارة دول العرب فى شماليها ، وكانت الزراعة والصناعة والتجارة نامية فى عهدها ، وقد شمل نفوذها بعض الاقطار العربية المجاورة لها

و يقال فى اسباب سقوطها ان ذو يزن ـ وهو آخر ملوكها ـ اذا استثنينا ذو جدن وقد نهض بعد انقراضها ـ جار على نصارى نجران من رعاياه ـ ونجران مخلاف يمانى كبير يقع فى شمالى اليمن بينها و بين عسير ونجد ـ فقتلهم واحرقهم ظلما وعدوانا و يقال انهم اصحاب الاخدود الوارد ذكره فى القرآن فاستنجدوا بقيصر الروم ـ وكان يومئذ جوستنيان ـ ولما كانت بلاد القياصرة بعيدة عن اليمن وكانت جيوشهم لاتبلغها الا بشق الانفس لصعوبة المواصلات فى ذلك العهد ، كتب هذا الى نجاشى الحبشة وهو مسيحى مجاور لليمن ، و بينهما البحر الاحمر ، يرجوه ان يسير لنجدة ابناء دينه فجهز على اليمن جيشا بقيادة ارياط احد قواده ، فقاتلهم ذو نواس عند نزولهم ثم تخاذل وخاف ففر ، ومات غريقا ، فانهارت بموته دولة التبابعة و بسط الاحباش نفوذهم على اليمن واستصفوها ، ثم مدوا بنظرهم الى الحجاز وحاولوا ضمه الى اليمن فسار ابرهة (احد قوادهم) فى جيش لجب (جيش اصحاب الفيل) وظل يتقدم ، والظاهر انه جاء بطريق صنعاء ـ ابها ـ الطائف ـ وهو اقصر الطرق واقربها حتى بلغ ابواب مكة من دون مقاومة ، وقد قعدت قريش لانها ادركت عجزها عن مقاومة جيش الحبشة القوى المنظم ، والمسلح بالاسلحة الكاملة ، فاستسلمت الى حكم القضاء وتركت الامر لله قائلة « ان للبيت ربا يحميه » وحدث ماحدث بعد ذلك من ارتداد هذا الجيش وانسحابه وعجزه عن القيام باى عمل وقد فسر بعض مفسرى القرآن لفظ «حجارة سجيل » وقد جاء فى القرآن ان طير الابابيل ألقتها عليهم فهزمتهم ، بانها جراثيم الامراض والاوبئة انتشرت بينهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فعادوا الى صنعاء بالخيبة والفشل

واغتنم احد امراء التبابعة وهو ذو جدن فرصة النزاع الذى اشتد فى اوائل القرن السابع بين الروم والفرس او بين الزردشتية والمسيحية ، فقصد

المداين مستنصرا بالفرس على الروم ، وعاملا على اقناع هؤلاء بمساعدته للتغلب على النصرانية فلقى منهم ارتياحا وهوى ، وكانت الحروب بين الفريقين على اشدها فى ميدان الشام ، فارسل كسرى معه جيش المسجونين بقيادة احد رجاله وقال ان فتحوا اليمن فهى لنا وان هلكوا استرحنا منهم ، و يؤخذ مما رواه المؤرخون انهم جاءوا الى اليمن من طريق البحر اى انهم ركبوا السفن من الخليج الفارسى فاجتازت بهم المحيط الهندى حتى البحر الاحمر وانزلتهم فى الشاطىء اليمانى، فنازلوا الاحباش وهزموهم وقضوا على الحكم الحبشى وولوا ذا جدن الملك ، ويقال ان عبد المطلب جد النبي قصد صنعاء ليهنئ الملك التبعى الجديد بما ادركه من نجاح وفوز فاكرم وفادته

و وثب الحجاب — وكانوا من الاحباش — على ذى جدن فقتلوه فاغتنم الفرس الفرصة و وضعوا يدهم على البلاد ، وتدل الدلائل على ان العامل الفارسى فى صنعاء كان يتمتع باستقلال واسع النطاق لبعد اليمن عن المداين وصعوبة المواصلات

واراد كسرى ابرويز استغلال صلته باليمن ، حين ما وصل اليه كتاب الرسول فكتب الى باذان عامله فى اليمن (انظر ص ١٢٤) يأمره بان يرسل رجلين من قبله الى المدينة يأتيان به الى المداين . فلما جاءا اخبرهما الرسول بقتل الملك صاحب الامر واعادهما الى صنعاء فقصا على صاحبهما ما وقع فاسلم ، فكان اسلامه مقدمة لانتشار الاسلام فى تلك الربوع ودخولها فى طاعته

٢

اول بعث اسلامي الى اليمن

شغل المسلمون بامر الحجاز فى السنوات الاولى فأهملوا كل ما عداه عاملين بالقاعدة القائلة بتقديم الأهم ، ففتح الحجاز واخضاع قبائله ، كان فى نظرهم مقدمة على اى عمل فى الاقطار العربية المجاورة لهم

واذا صح ماروا ه المؤرخون فيكون اليمن اول قطر عربى عمل المسلمون على نشر دينهم فى ربوعه ، بعد فتح الحجاز وخضوع نجد وكانت تعد يومئذ جزءا منه .

١ — بعث على بن ابى طالب

ارسل النبي ﷺ على اثر فتح مكة اى فى السنة الثامنة للهجرة ، بعثا الى اليمن بقيادة على بن ابى طالب ، فسارت بطريق الطائف ـ ابها ـ حتى صنعاء ، ويقول مؤرخ يمانى ان عليا لم يلق مقاومة فى طريقه ، وانه نزل حين وصوله الى صنعاء عند ام سعيد البرزخية وكانت اول امرأة اسلمت من اهل اليمن ، فتعلمت القرآن ، وقد حول بيتها بعد ذلك الى مسجد لايزال قائما حتى اليوم فى صنعاء واسمه مسجد على عليه السلام

واسلمت قبيلة همدان على يده وهى من قبائل اليمن الكبرى وتنزل حول صنعاء وفى جوارها ولا تزال فى ديرتها القديمة حتى اليوم ، فكتب الى النبي من صنعاء يبشره بدخولها فى الاسلام فخر ساجدا شكرا لله ، وبذلك تكون همدان اول قبيلة يمانية دانت للاسلام

٢ — سرية قيس بن سعد

وارسل النبي من الجعرانة حين منصرفه من الطائف وذلك فى السنة الثامنة سرية عددها ٤٠٠ مقاتل بقيادة قيس بن عبادة الخزرجي الى اليمن

ويقول مؤرخو السيرة النبوية ان قيسا تلقى أمرا بان يقصد قبيلة صداء اليمانية ويقول معجم البلدان ان صداء مخلاف فى اليمن بينه و بين صنعاء ٤٢ فرسخا. وقد بحثنا فى اسماء مخاليف اليمن الحديثة واسماء قبائلها المدونة فلم نعثر على اسم لها لا بين المخاليف ولا بين القبائل . ويلوح لنا انها محرف كلة « صعداء » فى الوقت الحاضر ، وصعداء من المراكز الكبرى فى شمالى اليمن وهى قريبة من ابها ، أى انها اقرب الى الحجاز من صنعاء وهى فى شماليها وتبعد عنها نحو ٢٥٠ كيلو مترا و بين صعداء وابها نحو ٢٢٠ كيلو مترا و بين الطائف وابها نحو ٦٠٠ كيلو متر

ولم تصل هذه السرية الى المكان الذى انتدبت للسفر اليه فقد جاء المدينة على اثر رحيلها زياد بن الحارث الصدائى وقابل النبي وقال له يارسول الله انى رسول قومى اليك فاردد الجيش وانا اتكفل باسلامهم وطاعتهم قال فاذهب الى السرية فردها ، قال ان ناقتى قد كلت . فارسل من يردهم . ودخل قومه بعد ذلك فى الاسلام

٣
وفود اليمانيين فى المدينة

واستقبل النبي ايضا وفودا عديدة جاءته من اليمن بعـد فتح مكة و بعد ما اعتزم المسلمون فتح ذاك القطر العظيم هذا بيان عنها :

١ — وفد صداء

وكان وفد الصـدائيين اول وفد يمانى قدم المدينـة فقـد جاء مع الحارث بن ابى زياد الصدائى كما تقدم واعلن دخول قومه فى الاسلام و بايع باسمه واسمهم

٢ — وفد همدان

وقدم بعـد ذلك وفد همـدان الى المدينـة فى السنة التاسعة بعـد رجوع النبي من غزوة تبـوك ، وكان يتألف من مالك بن نمط وابى ثور وهو ذو المشـعار ومالك بن ايفع وضمام بن مالك السلمانى وعميرة بن مالك الخارفى فلقوا النبي واعلنوا اسلامهم و بايعوه على السمع والطاعة فكتب لهم الـكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتاب من رسول الله محمـد لمخلاف خارف واهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذى المشعار لمالك بن نمط ومن اسلم من قومه على ان لهم فراعها و وهاطها ما اقاموا على الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها ، و يرعون عافيها ، لهـم بذلك عهد الله وذمام رسوله وشاهدهم المهاجرون والانصار »

٣ — وفد حمير

ووفد على المدينة فى الوقت نفســه ، اى بعد رجوع النبي من غزوة تبوك ، وفد يتألف من الحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذو رعين ومعافر وهمدان ، يحمل اليها كتب ملوك حمير باسلامهم وانضمامهم الى الدولة الاسلامية الجديدة فكتب الرسول اليهم الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله النبي الى الحرث بن عبد كلال والى نعيم بن عبد كلال والى النعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان : اما بعد ذلكم فانى احمد اليكم الله الذى لا إله الا هو

اما بعد فقد وقع بنا رسولكم منقلبا من ارض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما ارسلتم به وخبر ما قبلكم وانبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ، ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم المغانم خمس الله وسهم النبي وما كتبه على المؤمنين من الصدقة : من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ماسقى الغرب نصف العشر ، ان فى الابل الاربعين ابنة لبون وفى ثلاثين من الابل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الابل شاة ، وفى كل عشرة من الابل شاتان ، وفى كل اربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع او جذعة ، وفى كل اربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، وانها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خير له ومن ادى ذلك واشهد على اسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فانه المؤمن له ما لهم وعليه ماعليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله وانه من اسلم من يهودى او نصرانى فانه من المؤمنين له مالهم وعليه ماعليهم ، ومن كان على يهوديته اونصرانيته فانه لايرد عنها وعليه الجزية ، على كل حالم : ذكر او انثى ، حر او عبد ، دينار واف من قيمة المعافر أوعوضه ثيابا ، فمن ادى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فانه عدو لله ولرسوله »

٤ — وفد زرعة ذى يزن

وجاء مع هذا الوفد ايضا مالك بن مرة الرهاوى يحمل كتاب زرعة ذى يزن معلنا دخوله فى الاسلام فكتب اليه كتابا هذا نصه :

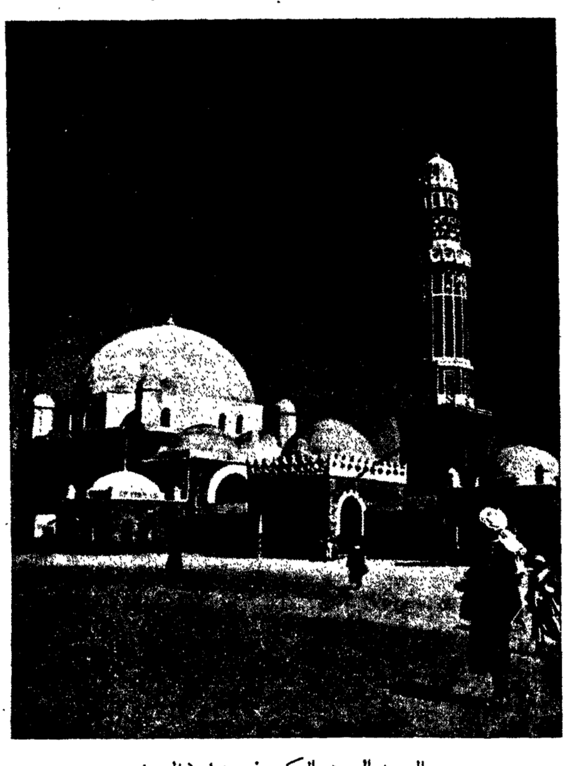
« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان محمدا يشهد ان لا اله الا الله وانه عبده ورسوله ثم ان مالكا بن الرهاوى قد حدثنى انك اسلمت من اول حمير وقتلت المشركين فابشر بخير وآمرك بحمير خيرا ، ولاتخونوا ولاتخاذلوا فان رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم وان الصدقة لاتحل لمحمد ولا لأهل بيته وانما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل وان مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب وآمركم به خيرا . وانى قد ارسلت اليكم من صالحى اهلى واولى دينهم واولى علمهم وآمركم بهم خيرا فانهم منظور اليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

٥ — وفود اخرى

وجاء الى المدينة ايضا وفد بنى زبيد برئاسة عمرو بن معديكرب الزبيدى ووفد بنى خولان ووفد الاشعريين وينسبون الى اشعر بن ادد وغامد وغيرها وكان وفد النخع آخر وفد قدم المدينة فى حياته وكانوا بايعوا معاذ بن جبل من قبل فكتب لهم الكتب يبين فيها شرائع الاسلام على مثال الكتب التى اثبتناها ويقال انه قال فى وفد الاشعرين حينما جاءوه : « اتاكم اهل اليمن كانهم السحاب وهم خيار من فى الارض »

وهكذا انتشر الاسلام فى اليمن وحضرموت ودخل هذا القطر العظيم فى الدين الاسلامى .



المسجد العمرى الكبير فى صنعاء (اليمن)

٤

وفود المسلمين الى اليمن

١ — وفد معاذ بن جبل

كان معاذ بن جبل الانصارى رئيس اول وفد اوفده المسلمون الى اليمن فقد انتدبه النبي على رأس بعثة قوامها عبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وامرهم بان يسافروا اليها ليعلموا أهلها الاسلام و يقيموا الصلاة و يجبوا الزكاة والصدقات وهذا نص الكتاب الذى وجهه الى زرعة ذى يزن فى هذا الشان :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان رسول الله محمدا النبي ارسل الى زرعة ذى يزن انه اذا اتاكم رسلى فاوصيكم بهم خيرا ، معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة واصحابهم ، وان اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وابلغوها رسلى وان اميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلب الا رضيا »

ولما ازمع معاذ السفر مع اخوانه اوصاه النبي بالوصايا الآتية :

« يسر ولاتعسر ، و بشر ولا تنفر ، وانك ستقدم على قوم من اهل الكتاب يسألونك مامفتاح الجنة فقل شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له »

٢ — وفد عمرو بن حزام الى نجران

وفى شهر ربيع الاول من السنة العاشرة اى بعد رجوع النبى من تبوك وكانت فى شهر رجب من السنة التاسعة ، جهز المسلمون سرية عددها ٤٠٠ مقاتل بقيادة

خالد بن الوليد للزحف على بنى الحرث بن كعب من نجران ، وكانت لم تسلم ولم توفد وفدا الى المدينة

ونجران مخلاف (مقاطعة) يمانية كبيرة . واقعة فى شمالى اليمن بينها و بين نجد وعسير

وكان اهل نجران يدينون بالمسيحية بعكس جيرانهم الوثنيين ، وقد اوصى النبي خالدا حينما سيره ، بان يدعوهم الى الاسلام قبل القتال ثلاث مرات ، فان دخلوا فيه وقبلوه فيقيم بينهم يعلمهم الاسلام والكتاب وان ابوا فليقاتلهم

و وصل خالد الى نجران فنزل فيها وارسل الرسل فى المدن والقرى يدعون الناس الى دخول الاسلام ، و يقولون لهم اسلموا تسلموا فدخلوا فى الدين فاقام خالد بينهم يعلمهم و يرشدهم وارسل الى النبي من مقره هنالك الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى محمد النبي رسول الله من خالد بن الوليد

السلام عليك يارسول الله و رحمة الله و بركاته.فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو . اما بعد يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتنى الى بنى الحرث بن كعب وامرتنى اذا اتيتهم الا اقاتلهم ثلاثة ايام وان ادعوهم الى الاسلام فان اسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم . وانى قدمت عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة ايام كما امرنى رسول الله و بعثت فيهم ركبانا قالوا يا بنى الحرث اسلموا تسلموا . فاسلموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين اظهرهم وآمرهم بما امرهم به الله وانهاهم عما نهاهم الله عنه واعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي حتى يكتب الى رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته

وعلى اثر وصول هذا الكتاب ارسل النبي الى خالد الرد الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله الى خالد بن الوليد :

سلام عليك ، فانى احمد الله اليك الذى لا اله الا هو : اما بعد فان كتابك

جاءنى مع رسلك بنجران بان بنى الحرث قد اسلموا قبل ان يقاتلوا واجابوا ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهادة ان لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وان محمدا عبده ورسوله وان قد هداهم الله بهداه فبشرهم وانذرهم واقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

بيان نبوى الى أهل اليمن

وعاد خالد على الاثر الى المدينة مع وفد منهم يعلن اسلامهم ودخولهم فى الدين فلم يمكثوا طويلا فى المدينة بل عادوا الى اوطانهم ، وارسل النبى معهم عمرو بن حزام يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم وزوده بالبيان الآتى وهو منشور عام الى اهل اليمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا بيان من الله ورسوله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

« عهد من محمد النبى رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن ، امره بتقوى الله فى امره كله فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وامره ان يأخذ بالحق ، كما امره ان يبشر بين الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه ، وينهى فلا يمس القرآن انسان الا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم ، ويلين للناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم ، فان الله كره الظلم ونهى عنه فقال : الا لعنة الله على الظالمين ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس النار وعملها ، ويتألف الناس حتى يفقهوا فى الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ، وما امر الله به ، والحج الاكبر هو الحج ، والحج الاصغر هو العمرة ، وينهى الناس ان يصلى احد فى ثوب واحد صغير الا ان يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه ، وينهى الناس ان يحتبى احد فى ثوب واحد يفضى بفرجه الى السماء ، وينهى ان يعقص احد شعر رأسه فى قفاه ، وينهى اذا كان بين الناس هيج ، عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم الى الله عز وجل وحده لاشريك له ، فمن

لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى تكون دعواهم الى الله وحده لاشريك له

« ويأمر الناس باسباغ الوضوء وجوههم وايديهم الى المرافق وارجلهم الى الكعبين ويمسحون رؤوسهم كما امرهم الله ، ويأمر بالصلاة لوقتها، واتمام الركوع والسجود والخشوع ويغلس بالصبح، ويهجر الهاجرة حين تميل الشمس،وصلاة العصر والشمس فى الارض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء اول الليل ، وامر بالسعي الى الجمعة اذا نودى لها والغسل عند الرواح اليها

«وامره ان يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة : من العقار عشر ماسقت العين وسقت السماء وعلى ماسقى الغرب نصف العشر. وفى كل عشر من الابل شاتان وفى كل عشرين اربع شياه ، وفى كل اربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقرة تبيع جذع او جذعة ، وفى كل اربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فانها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له

«وان من اسلم من يهودى او نصرانى اسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين له مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن كان على نصرانيته او يهوديته فانه لايرد عنها، وعلى كل حالم، ذكر او انثى، حر او عبد، دينار واف او عوضه ثيابا ، فمن ادى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله ومن وضع ذلك فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته »

٣ — سرية على بن ابى طالب الثانية

وفى السنة العاشرة ايضا جهز المسلمون سرية عددها ٣٠٠ مقاتل للسير الى اليمن بقيادة على بن ابى طالب فلما وصلت الى هنالك فرق على اصحابه فأتوا بغنائم ثم لقى جمعا من اليمانيين فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة وخرج منهم رجل من مذحج يدعو الى المبارزة فبرز اليه الاسود بن خزاعى فقتله

وصف على اصحابه وتهيأ للقتال ثم هاجمهم وقتل منهم ٢٠ فتفرقوا وانهزموا

فـف عن طلبهم قليلا ثم دعاهم ثانية الى الاسلام فاسلموا وعاد بعد ذلك الى مكة بطريق المدينة

هذا مجمل ما أورده كتاب السير والمغازى عن هـذه السرية ، وقد اغفلوا اسم الناحية التى قصـدتها واسم المكان الذى دار فيـه القتال ، واسم القبيلة التى نازلت المسلمين . ويلوح لنا ان السرية هاجمت قبيلة بنى مذحج وهى قبيلة من كندة وتجتمع مع قبيلة الاشعريين فى ادد وكانت تنزل فى شمالى اليمن بقرب حدود الحجاز ولم نعثر على اسم لهـذه القبيلة فى جداول اسماء القبائل الموجودة بأيدينا مما يدل على انها انقرضت او اندمجت فى غيرها وانما عثرنا على اسماء منازلها القديمة

وعلى كل حال فقد كانت هـذه السرية آخر سرية وجهها المسلمون الى اليمن ، كما كان القتال الذى يقولون انه دار بين رجالها واليمانيين هو القتال الوحيد الذى دار فى سبيل الاستيلاء على هـذا القطر العربى الكبير ومعنى ذلك انه لم يرق دم مسلم فى سبيل فتحه بعكس الاقطار الاخرى ، ولو استشهد مسلم لما امسك المؤرخون عن تسجيل اسمه . وعاد على من غزوته تلك ، وكان النبى يحج حجة الوداع فى شهر ذى الحجة من السنة العاشرة فشهدها معه

٥

حضرموت تدخل فى الاسلام

واصل الدعاة الاسلاميون الذين ارسلوا الى اليمن لنشر الدعوة الاسلامية عملهم وجابوا ذلك القطر تقريبا ، وكانت حضرموت فى جملة البلاد التى دخلوها ونشروا الاسلام فى ربوعها ، وكانت تعد يومئذ من مخاليف اليمن ، فدخلت بذلك فى الاسلام وانقادت اليه ، ولم يشهر المسلمون فى سبيل فتحها سيفا

وفود حضرموت فى المدينة

وجاءت الى المدينة فى السنة العاشرة وفود حضرموت وفى مقدمتها وفد كندة وعلى رأسه الاشعث بن قيس ، وكان عدد رجاله ثمانين ، فاستقبلهم النبى بعد عودته من تبوك ، ودخلوا عليه وقد تكمموا وعليهم جبب الحبر وقد كففوها بالحرير فسأل ألم يسلموا ؟

ـ بلى

ـ فما بال هذا الحرير فى اعناقهم ؟ شقوه منها فشقوه والقوه

وجاءت وفود اخرى من حضرموت

فتح البحرين وعمان

البحرين وعمان

معلومات جغرافية موجزة

البحرين ، او جزر اوال ، اسم لمجموع جزر متجاورة ، فى خليج فارس هى المنامة ، والمحرق ، والرقاع ، ولحد ، والبديع تبلغ مساحتها السطحية ٥٥٢ كيلو مترا

وعاصمتها السياسية المحرق ، وفيها مقر شيخها ، وسكانها عرب ، وهى مشمولة بالحماية البريطانية فى الوقت الحاضر

***

عمان ، مقاطعة عربيـة واسـعة تقع فى الزاوية الجنوبية الشرقيـة من جزيرة العرب وتمتد حدودها من ظفار فى حضرموت حتى قطر على الخليج الفارسى ، ومن البحر العربى حتى الربع الخالى

وفى عمان اليوم حكومتان : حكومة مسقط وعاصمتها مسقط ، وحكومة عمان وعاصمتها نزوى وهى مقر الامامة الاباضية

ومساحة مسقط وعمان مجتمعين ١٤٠ الف كيلو مترا مربعا وطول ساحلها ٤٠٠ كيلو متر مربع وسكانهما عرب مسلمون . والاولى مشمولة بالحماية البريطانيـة ويشمل نفوذها الساحل والثانية مستقلة استقلالا تاما وتحكم داخلية البلاد

كيف اسلمت البحرين

كانت البحرين خاضعة خضوعا اسميا لدولة المناذرة فى جنوبى العراق عندظهور الاسلام . فلما بدأ المسلمون بنشر دعوتهم ارسل النبي ﷺ العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين يدعوه الى الدخول فى الاسلام فأسلم .

وقدم فى السنة التاسعة الى المدينة وفد عبد القيس من البحرين وعلى رأسه الجارود بن عمرو بن حنش احد بنى القيس فقابل النبي ﷺ فدعاه الى الاسلام فدخل فيه .

كيف اسلمت عمان

كانت عمان تابعة للتبابعة فى اليمن ثم انفصلت عنهم حينما ضعف امرهم ، ولما ظهر الاسلام وانتشرت دعوته قدم المدينة فى السنة التاسعة وفد من الازد سكان عمان وعلى رأسهم صرد بن عبد الله الازدى فأسلموا وعادوا الى بلادهم

حروب الردة

١

اثر وفاة النبى فى جزيرة العرب

فى صبح يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ للهجرة (٨ مايو سنة ٦٣٣) قبض رسول الله ﷺ الى رحمة ربه وهو فى الثالثة والستين من العمر ، قضى منها ٢٣ سنة يجاهد فى تبليغ رسالته ، ونشر دعوته ، فأدرك من التوفيق والنجاح ماقرت به عينه وعين البشرية ، ورجعت نفسه الى ربها راضية مرضية

لقد جاء بدين هو افضل الاديان واكملها واسماها ، لم يلبث ان انتشر فى اربعة اقطار المعمور فدخل فيه الناس افواجا افواجا ، وسن شريعة اجمع الباحثون على انها ارقى شريعة سماوية عرفها البشر فى تاريخهم ، وأسس هيئة اجتماعية جديدة على دعائم ثابتة من الاخاء والمساواة والحرية ، كانت ارقى هيئة اجتماعية عرفتها جزيرة العرب فسادت العالم واكتسحت الامبراطوريات ، واقام حكومة عادلة ، تنصر الدين الحق وتؤيده ، وتوزع العدل وتضمنه ، وتحارب نظام الطبقات وتمقته ، وتنكر البدع والخرافات وتحاربها ، لا فضل لأحد فيها على أحد الا بالتقوى والاخلاص ، ولا كبير فى عرفها ولا صغير ، فالكل سواسية امام شرعها ، واخضع اقطارا واسعة لم يسبق لعربى غيره ان اخضعها ، فكانت حدود الدولة الاسلامية حين وفاته تمتد من تبوك (اول حدود بلاد الروم) شمالا حتى بادية حضرموت جنوبا ومن البحر الاحمر غربا حتى خليج فارس شرقا وتنتظم الحجاز ونجدا وعسيرا واليمن وحضرموت والبحرين ولم يسجل التاريخ من قبله ان دولة عربية امتلكت هذه الاقطار وضمت مثل هذا الملك الضخم

ولم يستخلف احدا ولم يوص لأحد بالخلافة بل ترك الامر شورى بين المسلمين منفذا بذلك مبدأ من اجل المبادىء التى جاء بها

واحدثت وفاته ذعرا واضطرابا فى صفوف المسلمين ، وكانوا يحبونه اكثر مما يحبون انفسهم ، ويعظمونه ويبجلونه ويحترمونه لسيرته الحسنة فيهم ، ولسمو اخلاقه ، وتواضعه ولينه ، وانسه وبشاشته ، ولا يسع منصفا يدرس سيرته حق دراستها ، ويحيط بأخباره وما أوتى من الخلق العظيم الا الاعجاب به والتسليم بانه ليس فى استطاعة بشر مهما أوتى من المواهب والصفات ان يعمل ماعمله اذا لم تكن هنالك قوى سماوية تؤيده ، وتمده ، وتنصره ، وتأخذ بيده ،وتيسر عمله

٢
اول اجتماع سياسى فى الاسلام

دل سير الحوادث على ان بعض خواص المسلمين لم يفاجأوا بموت النبي وان فوجئ به عامتهم وانقض على رؤوسهم انقضاض الصواعق ، يؤيد ذلك اجتماع جمهور من الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد بن عبادة بالخلافة ، ولم تنقض ساعات على وفاته ، واعتزامهم البت فيها ، وجعل جمهور المسلمين امام حالة مبرمة ، ولو لم يتبرع اليهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة ويشتركوا فى الاجتماع ويقنعوهم بعدم ملاءمة الخطة التى اتبعوها لمصلحة المسلمين العليا ، لأتموا البيعة ولنادوا بمرشحهم خليفة

ويمكن القول ان مسلمى المدينة انقسموا حين وفاته الى ثلاثة اقسام :

١ ـ فريق آل هاشم وهم آله وذووه وعصبته ، وكانوا يرون انهم احق بالخلافة من سواهم ، وكان عمه العباس يخطبها لنفسه لانه وريثه الشرعى ومثل ذلك ابن عمه وصهره على بن ابى طالب فقد شهد معه المشاهد كلها ، وابلى فى نصرة الاسلام وتأييده وكان من السابقين الاولين . ومن اقطاب هذا الحزب الزبير بن العوام وابناء العباس وقليل من المهاجرين والانصار

٢ ـ فريق المهاجرين من قريش وكان يؤيد ابا بكر لما امتاز به من ميزات ولمنزلته من رسول الله ، ولانه اختاره للصلاة فى مرض موته

٣ ـ فريق الانصار وكان يضم اكثريتهم المطلقة ويرى بان الخلافة يجب ان تكون فيهم لانهم نصروا الاسلام وايدوه ، ومرشحهم سعد بن عبادة زعيم الخزرج وكبيرهم

ولا بد لنا من الاعتراف بان اقطاب الحزب الهاشمى شغلوا بغسل الرسول وتجهيزه وتكفينه عن كل امر فلم يتسن لاحد منهم حضور اجتماع السقيفة وادلاء دلوهم فى الدلاء ولذلك اقتصر الامر على اقطاب الفريقين الكبيرين : فريق المهاجرين وفريق الانصار وقد كتب الفوز للاولين فتم انتخاب مرشحهم وفازوا فيما ارادوه

وبيان ماوقع ان فريقا كبيرا من الانصار اجتمع فى سقيفة بنى ساعدة ــ وكانت قرب سوق المدينة ــ للبت فى قضية الخلافة على اثر وفاة الرسول . ولم يشركوا احدا من المهاجرين

ووصلت اخبار هذا الاجتماع الى ابى بكر وعمر وابى عبيدة وكانوا يشهدون المأتم فى المسجد فاسرعوا ومعهم بعض المهاجرين ، لشهوده وبدأ ابو بكر الكلام فخطب خطبة طويلة تناول فيها تاريخ الاسلام من بدء ظهوره، ونوه بمابذله المهاجرون والانصار على السواء فى سبيل تأييده ثم استطرد الى البحث فى قضية الخلافة وابان ضرورة وجودها فى قريش وخاطب سعدا زعيم الاجتماع قائلا : « ولقد علمت ياسعد ان رسول الله قال وانت قاعد ، قريش ولاة هذا الامر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » فقال صدقت

واستطرد ابو بكر فقال :

نحن الامراء وانتم الوزراء لا تفاتون بمشورة ، ولا تقض دونكم الامور .

الدعوة الى اميرين

وخطب الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم من الخزرج فدعى الانصار الى الاتحاد والاتفاق وقال لهم «انتم اهل العز والثروة واولو العدد والنعمة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناس الى ماتصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم امركم »

وختم خطبته مقترحا ان يكون هنالك امير من المهاجرين وآخر من الانصار جمعا للشمل وتوحيدا للكلمة

عمر يعارض فى هذا الاقتراح

وعارض عمر بن الخطاب معارضة شديدة فى تنفيذ هذه الفكرة ـ فكرة تقسيم الخلافة بين اميرين ـ وقاوم فكرة انتقالها الى الانصار فى خطبة طويلة خطبها فرد عليه الحباب بخطبة تمسك فيها برأيه ودعا الانصار الى الاتفاق والتمسك بالامارة وقال لهم « املكوا على ايديكم ولاتسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر » فانبرى له عمر بن الخطاب ثانية وفند اقواله

ابو عبيدة يخطب

وخطب ابو عبيدة بن الجراح فنصح الانصار بالتزام الهدوء وقال لهم « انكم اول من نصر وآزر ، فلا تكونوا اول من بدل وغير » واسهب واطال

الانصار يعدلون خطتهم

واثرت هذه المناقشة فى نفوس بعض الانصار الحاضرين فوقف بشير بن سعد وهو من بنى زيد بن مالك الخزرجى فناشد قومه العدول عما اعتزموا عليه وقال لهم « لئن كنا اولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا الدين فما اردنا بذلك الا رضاء ربنا، وطاعة نبينا ، والفلاح لانفسنا ، فما ينبغى لنا ان نستطيل على الناس بذلك، ولا نبغى به من الدنيا عرضا . الا ان محمدا من قريش وقومه احق به واولى، وايم الله لايرانى الله انازعهم هذا الامر ابدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولاتنازعوهم »

الاوس تنضم الى المهاجرين

وانضمت الاوس الى المهاجرين والى بشير بن سعد ومن قال بقوله من الخزرج لانها رأت ان بقاء الخلافة فى قريش قد يكون افضل لمصلحتها الخاصة ففشل الاجتماع وقضى على الفكرة التى اوحت به فمد ابو بكر يده لمبايعة عمر فابى

ودعا عمر وابو عبيدة الناس الى بيعة ابى بكر لانه افضل المهاجرين و « ثانى اثنين اذ هما فى الغار » وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة اهم اركان الاسلام » وبدآ فبايعاه وتلاهما الناس فبايعه الانصار كما بايعه المهاجرون ولم يتخلف سوى على ابن ابى طالب ومن معــه من بنى هاشم ولم يحضروا اجتماع السقيفة ، على ان عليا لم يبايعه الى ما بعد انقضاء ستة اشهر على بيعته ؛ وجرد الزبير سيفه وكان من الحزب الهاشمى واقسم ان لايغمده حتى يبايع عليـا فقال عمر خذوه منه واضربوا به الحجر برا بيمينه ، ومازال به حتى حمله على بيعة ابى بكر

٣

ابو بكر الصديق

هو عبد الله بن ابى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن فهر بن مالك القرشى وامه ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وهى بنت عم ابيه

كان من رجال قريش المعروفين فى الجاهلية ، وكان محببا فيهم ، وكان اليه الاشناق (الديات) وكان اذا حمل شيئا صدقته قريش ، وامضوا حمالته وحمالة من معه وكان من اعرفها بالانساب

كان يشتغل بالتجارة قبل الاسلام ، وقد نشأت بينه وبين الرسول صداقة قبل ان يبعث ، فلما بعث كان اول من آمن به من الرجال الاحرار واسلم على يديه كثيرون ، وروى بن اسحاق عن النبى انه قال « مادعوت احدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة وتنظر الا ما كان من ابى بكر ، ماعلم عنه حين ذكرته له » اى انه بادر اليه

ولما اشتد اذى قريش على المسلمين فى مكة ، وهاجر اكثرهم ، بقى ابو بكر مع النبى حتى هاجر معه الى المدينة وحديث الهجرة معروف مشهور

وكان ابو بكر يملك ثروة واسعة فى الجاهلية قدرت باربعين الف درهم انفقها كلها فى سبيل الاسلام ، وقيل انه كنى بابى بكر لابتكاره الخصال الحميدة ، ولقب بالصديق بعد الاسلام لقبه به الرسول لانه صدق ما رواه عن حديث المعراج بدون تردد او تلعثم ، وسمى عتيقا لان رسول الله قال له « انت عتيق من النار »

وكان الرسول يكرمه و يبجله و يثنى عليه وكان يقول « لو كنت متخذا خليلا

لاتخذت ابا بكر خليلا » ودفع عقبة بن معيط عن النبي حينما حاول قتله عند الكعبة وهو يصلي وقال : ياقوم اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وامره النبي على الحج في السنة التاسعة ، وشهد معه المشاهد ولم يتخلف عن واحدة منها واستخلفه عنه في الصلاة في مرضه الاخير

ومما يؤثر عنه انه كان يحلب لأهل الحي قبل الخلافة ، فلما بويع بالخلافة ، قالت جارية : ومن يحلب لنا الآن ؟ فسمعها فقال « بلى لعمري لأحلبها لكم ، واني لأرجو الا يغيرني مادخلت فيه عن خلق كنت عليه » فكان يحلب لهم الشاء ، وربما قال للجارية أتحبين ان ارغى لك او اصرح فأي الامرين احبت فعله

توفي يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣ اى بعد النبي بسنتين وثلاثة اشهر و ١٢ يوما وكان في الثالثة والستين

وتزوج في الجاهلية قتيلة بنت عبدالعزى من بني عامر بن لؤي فولدت له عبدالله واسماء ؛ وتزوج ايضا ام رومان بنت عامر من بني غنم بن مالك فولدت له عبد الرحمن وعائشة وتزوج في الاسلام اسماء بنت عميس من خثعم بعد ماقتل زوجها جعفر بن ابي طالب فولدت له محمدا وتزوج حبيبة بنت خارجة بن زيد من الخزرج فولدت له ام كلثوم فذكور اولاده ثلاثة ومثلهم الاناث

٤

خلافة ابى بكر

كان اختيار ابى بكر لمقام الخلافة فوزا للفكرة الدينية الصحيحة التى جاء بها الاسلام ، فهو وان كان من قريش ، الا انه ليس منها فى الذروة ، ولايعادل سعد بن عبادة زعيم الخزرج عصبية ونفوذا ، فاختياره دون المرشحين الهاشميين ـ وقد كان العباس طامعا فيها ومثله على ، ويريان انهما احق بها ، والانصارى وقد رأيت كيف جمع الانصار حوله ـ دل على رسوخ الفكرة الدينية فى نفوس جمهور المسلمين الذين التفوا حول ابن ابى قحافة وناصروه لما امتاز به من صفات فى الجاهلية والاسلام ولسبقه فى الايمان ولقربه من رسول الله فقد كان ألصق الناس به واعرفهم باخلاقه واكثرهم تشربا بمبادئه فقد صحبه قبل البعثة وبعدها ، ولم يتركه لافى زمن الشدة ولا فى زمن الرخاء ، فتشبع بروح الاسلام وعرف حقيقته وجوهره

وفضلا عن ذلك فاختيار ابى بكر للخلافة صان لقريش مقامها باعتباره احد ابنائها الاوفياء ورجالها الاصفياء وحفظ لها الزعامة السياسية والدينية وكانت تحرص عليهما ولا تتنازل بسهولة عنهما . ولا بد لنا من القول ان قريشا اقبلت بعد فتح مكة على تأييد الاسلام ونصرته لانها ادركت ان عزها فى عزه وفوزها فى فوزه

وكيفما كان الحال فان انتخاب ابى بكر كان موفقا من جميع نواحيه وقد اكسب الاسلام قوة ومنعة وكان من العوامل الكبيرة فى انتشاره ونموه

٥

اول بيان سياسى فى الاسلام

صعد ابو بكر المنبر غداة انتخابه ، فخطب المسلمين خطبة لاتزال يرن صداها فى اذن التاريخ ، ولا يزال الناس يتدارسونها من اربعة عشر قرنا ويعجبون بما انطوت عليه من مبادىء سامية وروح شريفة عالية ، قال :

« ايها الناس : لقد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينونى وان صدفت فقومونى

الصدق امانة والكذب خيانة

الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله

لايدع احد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل

اطيعونى ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم »

تلك هى خطبة ابى بكر وهى على اختصارها برنامج سياسى ودينى واخلاقى جامع فقد انطوت على المبادىء الآتية :

١ ـ اعترف فى الفقرة الاولى بانه من عامة الشعب فليس له ميزة على احد ولا فضل ، ودعا الناس الى نصحه وشد ازره ومساعدته اذا صنع مايرضيهم وعمل صالحا ، والى انتقاده وتقويمه اذا اخطأ وحاد عن جادة الصواب ، ولا تنطوى المبادىء الدمقراطية الحديثة على مبدأ افضل من هذا المبدأ واسمى منه

٢ ـ دعا المسلمين الى نبذ الكذب واتخاذ الصدق شعارا لهم ، ووصف الكذب بانه خيانة كما وصف الصدق بانه امانة ، والصدق من المبادىء الاخلاقية السامية

فأثبت انه يعنى بالاخلاق ويدرك منزلتها فى الأمم . وما تمسك بالصـدق قوم الا فازوا ونجوا

٣ ـ اعلن مبدأ المساواة المطلقة فى حكومته فقال : ان الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه وبالعكس، ومعنى ذلك انه لامحاباة ولا مراعاة ولا تفاضل.والمساواة المطلقة من القواعد الجوهرية التى جاء بها الاسلام

٤ ـ دعا المسلمين الى مواصـلة الجهاد فى سبيل الله وقال لهم انه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ، ومعنى الجهاد الشرعى فى الاسـلام الدفاع المشروع عن النفس. فكأن ابا بكر يدعوهم الى تعزيز الدفاع الوطنى وعدم اهماله فتضرب عليهم الذلة . وتسير الأمم كلها فى عصرنا هذا على هذا المبدأ : مبدأ تعزيز الدفاع الوطنى وتبذل كل مرتخص وغال فى سبيله فلا يضرب عليها الذل ، ولا تذل الا الشعوب الجاهلة الخاملة

٥ ـ دعا الناس الى طاعته مادام مطيعا لله ورسوله اى مخلصا للدستور (كما يقال فى اصطلاح هـذا العصر) والقرآن كان ولا يزال الدستور الصحيح للمسلمين يرجعون اليه ويردون منهله العذب الصافى ، كما دعاهم الى نبذ طاعته اذا خرج عن هذه الدائرة اى خالف بتصرفاته ما نص عليه فى الدستور الاسلامى . ولا يقول بمثل هـذا القول اعظم ملك دستورى فى هذا العصر

وغنى عن البيان ان هذه المبادىء التى ضمنها ابو بكر خطبته تعد برنامجا سياسيا من افضل البرامج الحكومية فى عصرنا الحاضر ولا تتعارض مع احدث النظريات الدستورية والبرلمانية

٦

الردة

رج موت النبي المدينة رجا ، واقام سكانها واقعدهم ، واثر فى نفوس خاصتهم وعامتهم ، ولا سيما فى نفوس الصحابة من المهاجرين والانصار فصعق بعضهم واغمى على البعض الآخر ، وامتاز ابو بكر عنهم ــ والرجال تعرف عند الشدائد ــ بما ابداه من رباطة جأش ، وقوه عزيمة ، وصبر وتحمل ، فهدأ روعهم ، وبرد لوعتهم وتلا عليهم قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وسرى مفعول هذا التأثير فى جزيرة العرب ، فكان له رد فعل عظيم ، وظن بعض اصحاب المطامع ان وفاته تساعدهم على تحقيق احلامهم بما تحدثه من اضطراب فى بنيان الدولة الاسلامية الجديدة وبما تلقيه من ذعر فى نفوس المسلمين

وكانت مشكلة الخلافة فى مقدمة المشاكل التى واجهت المسلمين بعد وفاة نبيهم ، فقد كاد يجر عدم استخلافه احدا ، الى خلاف داخلى بين المهاجرين والانصار لولا ان تداركه أقطاب الفريقين وحاوه على منوال صينت به الوحدة العامة وارتضته الكافة

ومشكلة جيش اسامة اول مشكلة واجهت حكومة ابى بكر . وخلاصة مايقال فى صددها ان النبي امر ــ قبل ان يمرض مرضه الاخير ــ بتجهيز جيش يزحف الى الشام لاستطلاع حالة الروم ومهاجمة الاطراف (سنفصلها تفصيلا فى الجزء الثانى حين الكلام على فتح الشام) فتجهز هذا الجيش وعدد رجاله ثلاثة آلاف وفيه عدد من كبار الصحابة وعيونهم ، وعهد بقيادته الى اسامة بن زيد بن حارثة وقد استشهد والده فى غزوة مؤته

وضرب الجيش مخيمه فى الجرف (شمالى المدينة وعلى ٥ كيلومترات منها) و بينما هو يعد معدات السفر ، اشتد المرض على النبي ففضل رجاله الانتظار فلما ادركته الوفاة واستخلف ابو بكر ، راجت فى دوائر المدينة فكرة تقول بوجوب العدول عن تسيير هذا الجيش ، خوف الطوارئ ، واذا لم يكن ذلك فى الامكان ، فتبديل قائده على الاقل ، وما كان عمره يزيد على العشرين مع ان تحت امرته عدد من شيوخ الصحابة واقطابهم كعمر بن الخطاب وغيره من السابقين الاولين الذين تجهزوا للسير تحت لوائه ، طبقا للاوامر الصادرة ولم يحل دون ذلك سوى اشتداد المرض على رسول الله ، ورغبة رجال الجيش فى الاطمئنان على صحته قبل سفرهم .

وقاوم ابو بكر فكرة العدول عن تسييره بشدة، كما انكر الاقتراح القائل بابدال قائده بمن هو اكبر سنا ، واكثر حنكة وغضب على مقترحه وقال له « يوليه رسول الله واعزله » ويروى انه امسك بلحية عمر بن الخطاب حينما كلمه فى هذا الشأن وقال له « عدمتك امك وثكلتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله وتامرنى ان انزعه »

ويلوح لنا ان بعض بعيدى النظر من الصحابة خاف ان يؤدى زحف هذا الجيش الى البلقاء ـ ولا تقل المسافة بينها و بين المدينة عن الف كيلو متر لا تقطع فى اقل من ٣٠ يوما ذهابا ومثلها ايابا ـ الى اضعاف قوة المسلمين العسكرية فى المدينة ، لانه كان يضم نخبة ابطالهم ورجالهم المجربين ، ويغرى بعض القبائل بهم ، سيما وهم قريبو العهد بوفاة رسول الله مؤسس الدولة الجديدة وركنها الركين ، فاقترح على ابى بكر ما اقترحه من باب الاحتياط ، لانه ما كان يجهل نفسية رجال البادية ، فاخلاء المدينة من قوة عسكرية كبيرة يطمع هؤلاء وقد يحملهم على مهاجمتها ، وهو ما وقع فعلا ، ومع ما فى هذا الرأى من وجاهة فقد ابى ابو بكر ان يأخذ به ، لاعتبارات جوهرية ربما كان فى مقدمتها اعتقاده بانه ليس من حقه ان ينقض امرا ابرمه الرسول لما فى ذلك من الجرأة ولانه قد يعد سابقة يجرى عليها الخلفاء من بعده ، فينقض كل منهم ما ابرمه سلفه فتقع الفوضى والاضطراب ، وكان ابو بكر عدوا لهما

وفضلا عن ذلك فان عدول المسلمين عن تسيير هذا الجيش بعد ما اتموا اعداد

معداته ، و بعد ما عرفت الغاية من تسييره ، قد يحمل فى نظر القبائل على محمل الضعف والجبن فيزيد فى جرأتها على المسلمين ، اذا كانت تفكر فى احداث حدث ، بدلا من ان يخيفها ويرهبها لانها تقول انه لولا ضعفهم لما استبقوه فتنهض للعمل اذا كانت لاتزال مترددة

وهكذا رجح رأى ابى بكر الآراء الاخرى وتقرر ان يسير الجيش لاتمام مهمته التى انتدبه لها رسول الله . واستأذن الخليفة ، قائده اسامة فى ان يبقى عمر بن الخطاب لديه ليساعده فى بعض المهام ؛ وكان عمر جنديا فى جيش اسامة فسمح له ، وفى هذا الاستئذان مايدل على حب ابى بكر للنظام وشدة احترامه له ، فقد كان فى استطاعته ان يستبقى عمر لديه من دون طلب الاجازة ولكنه فضل ان يطلبها من القائد ، رعاية « لقاعدة التسلسل » وهى من القواعد المحترمة فى الجيوش . ومع انه يتولى بحكم رئاسته منصب القيادة العليا للجيش الاسلامى فلم يشأ ان يطلب ما طلبه بصفة الامر بل بصفة الاستئذان وفى ذلك منتهى التواضع والمجاملة

وصية ابى بكر لاول جيش يسيره

وخرج ابو بكر الى الجرف ، مكان مخيم الجيش ، ليشيع الجند حين سفرهم ، وخرج معه اسامة ، وكان هذا يركب فرسه ، فاراد النزول عنها فيركبها الخليفة ، وهو الشيخ الطاعن فى السن ، فابى عليه ذلك مع انه اصغر من اولاده ، وقال له : ماذا على ابى بكر ان يغبر قدمه فى سبيل الله . وهكذا ظل اسامة راكبا وابو بكر ماشيا ولاشك انه اراد بعمله هذا ان يضرب مثلا لرجال الجيش فى وجوب احترام قائدهم وتعظيمه وتوقيره وذلك من أشد الضروريات لادراك الفوز والنجاح

ولما ازف الرحيل ودع ابو بكر الراحلين وخطبهم خطبة طويلة فى فضائل الجهاد. واوصاهم بالوصية الآتية وهى من الوصايا الخالدة فى التاريخ ولا تزال تكرر فى كل عصر و زمان للعظة والاعتبار وهى تدل على سمو روح ابى بكر وعلى تشبعه بتعاليم الدين الاسلامى الصحيحة قال :

« لا تخونوا ، ولاتغـلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولاتعقروا نخلا ، ولاتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لمأكلة

« وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فـدعوهم وما فرغوا انفسهم له

« وسوف تقدمون على قوم يأتونـكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها

« وتلقون اقواما قـد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا »

تلك هى وصـية ابى بكر لجنده وقواده وهى تنطوى على اشرف المبادىء الانسانية واسماها ، وتختلف اختلافا كبيرا عن نظم الحرب وشرائعها التى كانت نافذة فى ذلك الزمن ، زمن الروم ، وكانوا يعاملون سكان البـلاد التى يغزونها ويفتحونها معاملةالعبيد الارقاء فلهم ان يقتلوهم او يبيعوهم او يستخدموهم كيفما شاءوا وارادوا ، ولا تنطوى شرائع الحرب الحديثة ـ وقد وضعتها الدول الاوربية فى مؤتمر الهاى سنة ١٨٩٩ وتعهدت باحترامهاـ على مبادىء افضل من هذه المبادىء رغم انقضاء ١٤ قرنا على هذه الوصية التى ارتجلها ابو بكر ارتجالا

٧

القبائل التى ارتدت

ما كاد جيش اسامة يبتعد عن المدينـة فى طريقه الى الشمال ، حتى وقع ماخافه بعيدو النظر من الصحابة فارتد بعض القبائل وظهرت بوادر الفتنة فى المنطقة الشرقية خاصة وفى بعض المناطق الاخرى

وقد تجلت هـذه الحركة فى ثلاثة اشكال :

١ ـ فى تجهز بنى عبس وذبيان ـ وينزلون فى شرقى المدينـة ـ لمهاجمتها ونهب اموالها وما فيها اعتقادا منهم بان امر المسلمين قد انتهى بعـد وفاة الرسول فلن تقوم لهم قائمة

٢ ـ فى امتناع بعض قبائل اليمامة وغـيرها من قبائل الشرق ـ وهى لم تسلم الا بعد فتح مكة ـ عن دفع الزكاة ، وطردها الجباة ومحصلى الاموال من ديارها

٣ ـ فى انتشار صيت بعض مدعى النبوة فى نجـد واتساع نفوذهم وانشاء كل واحـد منهم ـ وعـددهم اربعة ـ دينا جديدا وانضمام بعض العامة والغوغاء اليهم وقتالهم معهم

ولا بد لنا من القول ان مفعول الردة او الانتقاض لم يكن واحـدا فى القبائل بل كان يختلف باختلاف الديار والمنازل والبعد عن المدينة والقرب منها ، وصلة القبيلة نفسها بالاسلام والطريقة التى بها دخلت فيه ، وهـل اعتنقته طائعة او اكرهت عليه ، ومقدار تأثيره فى نفوس رجالها وابنائها ، وهل تشربوا تعاليمه ام لم يتشربوها لقرب عهدهم بها ، وهل كان بينها مدع يدعى النبوة ام لا ؟ فان لذلك اثرا لاينكر فى دراسة هذه المشكلة الخطيرة وهى أعظم مشكلة استهدف لها الاسـلام بعد وفاة مؤسسه ونجا منها بفضل اخلاص خليفته ، وقوة عزيمته ، وشدة بأسه

و بين الباحثين اختلاف فى البواعث التى بعثت على الردة والعوامل التى عملت فى تكوينها ، ومع ان بعض المستشرقين يرى ان للعوامل الاقتصادية المقام الاول فى ظهور الردة وان تأثيرها كان اكثر ظهورا فى القبائل التى دخلت حديثا فى الاسلام او اعلنت اسلامها بواسطة الوفود التى اوفدتها الى المدينة بعد فتح مكة و بعد انتشار الاسلام وظهوره بمظهر القوة ، الا اننا مع تسليمنا بوجاهة هذه الاعتبارات نرى فى حركة الردة هذه حركة رجعية Reactionaire وتظهر هذه الحركة فى الغالب عقب كل انقلاب سياسى يحدث فى بلد من البلدان او قطر من الاقطار فيغير نظامه وشرائعه ، ويراد بها الرجوع الى النظام القديم واحيائه والتخلص من النظام الجديد والقضاء عليه ، واى انقلاب سياسى او اجتماعى اعظم من هذا الانقلاب الذى جاء به الاسلام فبث فى جزيرة العرب روحا جديدة ونشر فيها دينا جديدا لم تكن تعرفه ولا عهد لها بمثله قط

فالغاية من حركة الردة فى نظرنا هى الرجوع الى النظام القديم واحيائه والتخلص من الاسلام وما يتطلبه من واجبات ثقل بعضها على نفوس بعض القبائل فقام يطالب بتعديلها آملا بان يعود الى ما كان عليه فى الجاهلية حيث كان يعيش مطلق السراح لايعرف منطقة اوسع من دائرة قبيلته ولا يعد نفسه مكلفا بشىء الا فى داخل دائرتها الضيقة

وهذا بيان باسماء القبائل التى ارتدت وقاتلت المسلمين :

اسم القبيلة	منازلها	ملاحظات
فزارة وعبس	شرقى المدينة على طريق نجد	قاتلت فزارة وعبس واسد المسلمين تحت راية طليحة الاسدى مدعى النبوة
اسد	شرقى المدينة بجوار فزارة	
حنيفة (اليمامة نجد)	شرقى المدينة	قاتلت المسلمين تحت راية مسيلمة الكذاب

اسم القبيلة	منازلها	ملاحظات
البحرين		كانت حركة الردة ضعيفة فى هذه الاقطار فلم يلق المسلمون عناء فى اخضاعها
اليمن		
حضرموت		
عمان		
مهرة		
تهامه		
قضاعة	شمالى المدينة على ساحل البحر الاحمر	خضعت بسهولة
سليم	شرقى المدينة	انقسمت الى قسمين قسم اقام على الولاء وقسم ارتد بيدانه مالبث ان عاد نخضع
هوازن	شرقى مكة	

تلك هى اسماء القبائل والاقطار التى ظهرت فيها حركة الردة ، والواقع ان المسلمين لم يلقوا من العناء فى اخضاع القبائل المرتدة ما لقوه فى اخضاع بنى اسد وحلفائهم من غطفان وكان يقودهم طليحة الاسدى ، و بنى حنيفة وكان يقودهم مسيلمة الكذاب ، مما يدل على تأثير دعوة هذين الدعيين فى نفوس قومهما واتباعهما فلولاهما لم يك قتال يذكر يؤيد ذلك ماحدث فى المناطق المرتدة الاخرى ، فانه لم تكد تظهر خيول المسلمين ، او يشيع بين القبائل ان هؤلاء انتصروا فى بزاخة او عقرباء حتى عادوا الى خضوعهم وطاعتهم . وتختلف حركة اليمن عن حركة طليحة ومسيلمة لان مدعى النبوة فيها قتل قبل موت النبى ، ولذلك كان تأثير حركة الردة فيها ضعيفا بالنسبة لما جرى فى بنى اسد واليمامة

ويذكر المؤرخون اسماء قبائل يقولون انها تأثرت بحركة الردة ، ولكنها لم تشهر على المسلمين سيفا ، وفى مقدمتها قبيلة طيئ الكبرى ، فقد انضم بعض بطونها اليهم غير انه مالبث ان انسحب منهم وعاد الى صفوف المسلمين ، ومثل ذلك قبيلة تميم فانها اسرعت فانضمت الى خالد حينما وصل الى بلادها ، وقد شهد بعض كبار الصحابة بان بني يربوع من تميم اذنوا عند وصولهم اليهم اعلانا بتمسكهم بالاسلام ، وقد انتقدوا على خالد بن الوليد تصرفاته معهم . وكذلك كان شأن قبيلة بنى عامر فانها قدمت الطاعة لخالد عند ما جاء بلادها

وظلت القبائل الاخرى النازلة غربى المدينة وجنوبها وبعض قبائل الشمال والقبائل الضاربة بين الحرمين ومعظم القبائل النازلة حول مكة وشرقيها وفى مقدمتها ثقيف وهذيل ولحيان على الطاعة وقد انضم بعضها الى المسلمين وقاتل معهم ودافع عن المدينة حينما هوجمت

٨

مدعو النبوة وحركة الردة

طليحة الاسدى ـ مسيلمة بن حبيب ـ الاسود العنسى ـ سجاح بنت الحارث

اطمع الفوز العظيم الذى ادركه صاحب الشريعة الاسلامية بعض قصيرى النظر من ابناء القبائل الضاربة فى نجد واليمن ، فظنوا ان فى استطاعتهم ان يبلغوا مبلغه ، وينالوا مكانته بعبارات ينمقونها ، وسجع يرسلونه ، فظهر اربعة منهم فى وقت يكاد يكون واحدا ، فلاقت دعوتهم هوى من نفوس قبائلهم وكان بعضها يحسد قريشا على منزلتها ، فانضمت اليهم ووالتهم ، املا بان تنال على يدهم ما نالته قريش على يد محمد ابن عبد الله

واول هؤلاء الادعياء واعظمهم شأنا مسيلمة بن حبيب الحنفى من بنى حنيفة (نجد) وثانيهم الاسودالعنسى من بنى عنس (اليمن) وثالثهم طليحة الاسدى من بنى اسد (الحجاز) ورابعهم سجاح بنت الحارث وهى تغلبية (العراق) ويقال ان اصلها من بنى يربوع من تميم النجديين

واغتنم بعض هؤلاء فرصة الاضطراب الذى شمل الجزيرة على أثر وفاة النبى ، والجزع الذى استولى على النفوس فنشطوا واستمالوا كثيرين من الانصار والمؤيدين الذين طمعوا فى الفوز على يدهم

على انه ما كاد خالد يضرب طليحة ضربته الكبرى فى بزاخة حتى تفرق انصاره

وعادوا الى حظيرة الدين الاسلامى ، وكان كذلك شأن بنى حنيفة انصار مسيلمة ، اما القبائل الاخرى التى لم يقم فيها نبي ولم يظهر بينها دعى فلم تقاوم مقاومة تذكر بل اسرعت الى الخضوع وتقديم الطاعة حينما طلعت عليها خيل المسلمين وحينما تبين لها انهم لايزالون اقوياء يحطمون رأس كل من تحدثه النفس بالانتقاض عليهم او الخروج على جماعتهم

٩

بزاخة

لئن كان ظهور طليحة متأخرا عن ظهور زملائه الثلاثة وهم مسيلمة بن حبيب والاسود العنسى وسجاح الا ان وقوع بلاده على مقربة من المدينـة ، ومهاجمة بعض انصاره لها و بدء المسلمين بقتاله ، يجعلنا نقـدم « ترتيبه » ونبدأ فى الـكلام عليـه ثم نفصل بعد ذلك حديث زميله الآخر مسيلمة وقد ثنى به خالد بن الوليد بعد انتصاره على بنى اسد فى بزاخة ونذكر بين ذلك حديث سجاح ، فشأنها دون شأنهما ، وان كان يدل على ان المرأة لاتفتأ فى كل عصر وزمان تقلد الرجل وتحرص على ان تحذو حـذوه فى كل عمل يعمله ، ثم نذكر حـديث الاسود العنسى وامره بسيط بالنسبة الى امر صاحبيه

من هو طليحة الاسدى

اذا صح مايقال وهو ان اسدا من تميم ، فيـكون اثنان من مدعى النبوة من نجد ، واذا الحقنا بهما سجاح و يقولون انها من بنى يربوع التميميين فيـكون الثلاثة الذين ادعوا النبوة واوقدوا تلك الفتنة الـكبرى نجديين

ولم تسلم قبيلة بنى اسـد الا بعد فتح مكة ، فقد قدم وفـدها المدينـة فى سنة تسع فاسلموا وقالوا يارسول الله اسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب فنزلت فى حقهم هذه الآية ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَـكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْـكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ و بعد ما اقاموا فى المدينة اياما يتعلمون الفرائض عادوا الى بلادهم

اما طليحة الاسدى نفسه فقد اجمع الرواة على انه شهد حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة فأثر فى نفسه ما رآه من عظمة مقام النبوة ، فلم يتمالك ان نهض يدعيها فى قومه حينما وصلت الاخبار بوفاة النبي

و ينزل بنو اسد على منتصف الطريق بين الحجاز ونجد الى جنوبى جبل شمر وتبعد منازلهم عن المدينة بنحو ٣٠٠ كيلو متر . ويقال فى بعض المصادر انهم اجتمعوا بعد الردة فى السميراء ، ولا يزال هذا المكان موجودا و يظهر فى الخريطة ، و يقدر عدد مقاتليهم بأربعة آلاف ، عدا الذين انضموا اليهم من الاحلاف

ولقد كانت قبيلة غطفان وتتألف من فزارة وعبس وذبيان ـ وتنزل فى شرق المدينة على بعد ١٢٠ كيلو مترا فى الربذة (الحنا كية) ـ اول قبيلة انضمت الى بنى أسد ومالأتهم على المسلمين

ولغطفان ـ جارة المدينة فى الشرق ـ مواقف معروفة ازاء المسلمين فقد اسرفت فى عدائهم وكانت مع الذين انضموا الى الاحزاب يوم الخندق ، فزحفت على المدينة واشتركت فى حصارها ، ولم تسلم الا بعد فتح مكة ، مع ان عيينة بن حصن كان فى جيش الفتح و ورد اسمه فى قائمة قواده ، ولعل ذلك كان قبل ان تسلم قبيلته كلها

وقدمت غطفان لطليحة ٧٠٠ فارس اشتركوا فى المعركة التى دارت بينه و بين المسلمين وكانت تطمع ان تتغلب بواسطته على قريش وتنتزع منها الزعامة والنفوذ ، ولعل هذا هو العامل الاول ـ بعد الحقد الشخصى ـ فى ابرامها الحلف مع جيرانها الشرقيين (بنى اسد) وانضمامها اليهم

و بيان ما وقع ، ان خارجة بن حصن ، اخا عيينة سيد غطفان ، اوقف جابى الزكاة غب وفاة النبي ، وسلبه ما جمعه من صدقات بنى فزارة واعاده الى المدينة صفر اليدين . ولعل ذلك حدث قبل ان يجهر طليحة بدعوته ، فلما جهر بها اسرعت غطفان فانضمت اليه وحالفته لانها كانت فى حاجة الى حلفاء بعد ما آذنت المسلمين

بالحرب وانتقضت عليهم ، لمعرفتها انها عاجزة عن مقاومتهم والتغلب عليهم

وقصد عيينة بن حصن نفسه والاقرع بن حابس ومعهم عدد من وجوه القوم المدينة ، على أثر حادث سلب المال ، فقابل الخليفة الجديد ابا بكر ، وخاطبه طالبا اعفاء غطفان من الزكاة (الضرائب) لفقرها على ان تقيم الصلاة وتؤدى الفرائض الاخرى التى فرضها الاسلام ، فلم يتردد الخليفة فى رفض الاقتراح وابى الدخول فى اى مساومة ، وقال كلته المأثورة « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه رسول الله لقاتلتهم عليه » حينما خاطبه بعض الصحابة مقترحا عليه التساهل واللين لضعف حالة المسلمين

وما كان ابو بكر يجهل سوء نية غطفان وكونها تنشد الشر وتسعى اليه وتطمع فى غزو المدينة واستباحتها ، ولم يخف عليه انها ارادت من ارسال وفدها ان تعجم عود المسلمين ، وتعرف عدد قواهم ، وما يملكونه من معدات فتهاجمهم وتصيب منهم غرة ، يؤيد ذلك دعوته الصحابة الى اجتماع عقدوه فى المسجد على أثر سفر الوفد الغطفانى ، فقد تكلم عن خطورة الموقف واقترح انشاء حرس عسكرى لحماية المدينة يتناوب رجاله العمل فى الليل والنهار خوف مفاجأة العدو وقال لهم فى ما قاله « انكم لاتدرون أليلا تؤتون ام نهارا وادناهم منكم على بريد »

وزيادة فى الاحتياط اقام رجالا فى الابراج لمراقبة طرق البادية ورصد حركات القبائل ، وأعد قوة عسكرية حول المسجد (مركز الحكم والقيادة العليا) استعدادا للطوارىء ولاستخدامها عند الحاجة ، اى انه جعل المدينة فى شكل منطقة عسكرية وأعد عدته للحوادث واقام يرقب سيرها فلا تباغته ولا تأخذه على غفلة ، وكتب الى القبائل القريبة والموالية فلبته وانجدته ، ويقال ان جهينة وحدها ارسلت اليه ٤٠٠ مقاتل

الهجوم على المدينة

ولقد جاء سير الحوادث مؤيدا لرأى ابى بكر ودالا على بعد نظره فانه لم تنقض

ثلاثة ايام على رجوع الوفد الغطفانى الى قومه حتى اسرعوا فأغاروا على المدينـة ليلا ينشدون فرصة للسلب والنهب ، فاكتشفت امرهم العيون التى اقامها ابو بكر ، كما بادر حينما وصل اليه الخبر الى لقائهم ، وسار حتى ذى القصـة (مكان فى شرقى المدينة على طريق الربذة (الحناكية) ولا يعرف مكانه بالضبط وانمـا يرجح ان يكون غـير بعيد من المدينة)

وحاول بعض الصحابة صده عن الخروج بالنفس وناشدوه الله الا يفعل فمقامه فى المدينة اشـد خطرا على العدو فأبى ذلك واقسم ليسيرن اليهم وقال انه لايرى لنفسه ادنى ميزة على المسلمين ، وبر بقسمه فسار حتى التقى بفريق المرتدين من غطفان ، فقاتلهم وهزمهم ، وذلك قبل وصول جيش اسامة ، وشاع ذلك بين القبائل وعرف رجالها ان المسلمين فازوا فى اول معركة دارت فاسرع الأكثرون الى ارسال صدقاتهم بعـد ماترددوا فى اول الامر ولا تزال هذه طبيعة القبائل العربية حتى اليوم فى داخل الجزيرة فيلتزم معظمها الحياد غالبا فى كل نضال ينشب حتى اذا ماكتب الفوز لأحد الفريقين بادر الى الانضمام اليه وتقديم الطاعة له

واستقرت الامور بعض استقرار بعد انتصار ذى القصة او البقعاء ــ وكلاهما اسم لمسمى واحد ــ وزال الخطر الذى كان يهدد العاصمة ، ووصل جيش اسامة عائدا من غزوته من الشمال ، ويلوح لنا انه لم يبلغ البلقاء بل اكتفى بغزو قضاعة ، ودليلنا على ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان مدة غيابه عن المدينـة لم تزد على اربعين يوما ، وهى مدة قصـيرة لاتـكفى لبلوغ البلقاء والرجوع منها ، ويرى بعضـهم ان اقطاب الجيش رأوا ان لا يوغلوا فى زحفهم نحو الشمال بعد ما وصلت اليهم الاخبار بوقوع الاضطراب وبارتداد بعض القبائل فأسرعوا بالعودة بعـد ماضربوا قضاعة ، وعادوا سالمين فقرت بوصولهم عيون المسلمين واصبحوا يملـكون من القوى المنظمة المدربة ، التى اعتادت خوض القتال ، مايضمن لهم الغلبة والانتصار على القبائل المرتدة واعادتها

الى حظيرة الطاعة ، فشتان بين حالة الجيش الاسلامى فى ذلك الحين ـ وقد كان مستكمل المعدات ، موحد القيادة ـ و بين حالة القبائل المرتدة فلا قيادة عامة توحد بينها ولا حكومة تؤيدها وتجمع لها القوى والانصار

وجاءت الاخبار الى المدينة بان قوة من المرتدين تجمعت فى الابرق (وهو مكان لبنى ذبيان فى شرقى المدينة) فخرج ابو بكر بالقوة التى سار بها الى ذى القصة بعد ان انضم اليه فريق من جيش اسامة فباغتهم وكانوا من قبائل عبس وذبيان وكلاب وهزمهم شر هزيمة فارتدوا الى السميراء وانضموا الى المرتدين من بنى اسد وهم جيرانهم اى انهم اوغلوا فى الارتداد نحو الشرق ليبعدوا المسلمين عن مركز تجمعهم ، فعاد ابو بكر برجاله الى ذى القصة ولم يطل المقام فيها بل ابقى فيها قوة كافية لمقاومة المرتدين وصدهم اذا حدثتهم انفسهم بمواصلة القتال ، وعهد بقيادة هذه القوة الى خالد ابن الوليد وكان بين رجاله وعاد هو الى المدينة

واصدر اوامره الى المسلمين بان يقصدوا ذى القصة فتكون مركز احتشادهم فى هذه المرحلة ، فقصدتها جموعهم فلما تكاملوا سار اليهم بنفسه وقسمهم الى احد عشر لواء وعين لكل لواء قائدا وهذه اسماء القواد والمناطق التى انتدبوا للعمل فيها :

١ ـ خالد بن الوليد وقد وجهه الى طليحة الاسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

٢ ـ عكرمة بن ابى جهل الى اليمامة لمقاتلة مسيلمة الكذاب

٣ ـ شرجيل بن حسنة الى اليمامة ايضا فيكون بمثابة قوة احتياطية لعكرمة

٤ ـ المهاجر بن امية الى صنعاء

٥ ـ حذيفة بن محصن الى عمان

٦ ـ عرفجة بن هرثمة الى اهل مهرة (خليج فارس)

٧ ـ سويد بن مقرن الى تهامة

٨ ـ العلاء بن الحضرمى الى البحرين

٩ ـ حذيفة بن حاجز الى بنى سليم ومن معهم من هوازن
١٠ ـ عمرو بن العاص الى قضاعة
١١ ـ خالد بن سعيد الى مشارف الشام

منشور ابى بكر الى المرتدين

وقبل ان يتفرق الناس و يسير الجند ، كتب ابو بكر الى اهل كل قطر تردد او ارتد كتابا يحذرهم فيه من التورط و يقول بعد البسملة والمقدمة :

« وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ما اقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره ، واجابة للشيطان قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

« ولقد انفذت اليكم فلانا « ويذكر اسمه » فى جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته ان لايقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له واقر وكف وعمل عملا صالحا قبل منه واعانه عليه ، ومن ابى امرته ان يقاتله على ذلك ثم لايبقى على احد منهم قدر عليه ، وان يحرقهم بالنار و يقتلهم كل قتلة وان يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من احد الا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله . وقد امرت رسولى ان يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فاذا اذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وان اقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغى لهم »

عهده الى قواده

و بعد ان سير الرسل بالكتب الى الامصار كتب الى قواد جنده الكتاب الآتى وقد ضمنه تعليمات صريحة لهم فى الخطة التى يسيرون عليها و يتبعونها قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من ابى بكر خليفة رسول الله الى القائد (وذكر اسمه) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقى الله ما استطاع فى امره كله سره وعلانيته ، امره بالجد فى امر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى امانى الشيطان ، بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان اجابوه امسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم و يعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن اجاب الى امر الله عز وجل واقر له قبل ذلك واعانه عليه بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا اجاب الى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به

« ومن لم يجب داعى الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من احد شيئا اعطاه الا الاسلام فمن اجابه واقر عليه قبل منه وعلمه ومن ابى قاتله فان اظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما افاء الله عليهم الا الخمس فانه يبلغناه

« وان يمنع اصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم و يعلم ماهم لا يكونوا عونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وان يقتصد بالمسلمين و يرفق بهم فى السير والمنزل و يتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض و يستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول »

عدد الجيش الاسلامى

ويقدر عدد الجيش الاسلامى الذى اجتمع فى ذى القصة بعشرة آلاف مقاتل ، ظل عددهم يزداد تدريجا بما كان الخليفة يرسله اليهم من نجدات وبمن انضم اليهم من ابناء القبائل الاخرى التى لم يطل امد ترددها حتى انضمت اليهم وقاتلت فى صفوفهم حينما رأت ان كفتهم الراجحة حتى قدر عدده عند انتهاء حرب الردة وقد امتدت نحو سنة تقريبا بعشرين الف مقاتل ، احتشد الجانب الاكبر منهم فى نجد وهم الذين انتدبوا بعد ذلك لغزو فارس وفتح العراق فأدوا مهمتهم على الوجه الأكمل ودكوا ملك الاكاسرة واستولوا على ممالكهم وستقرأ كل ذلك مفصلا

١٠
خالد فى حروب الردة

كانت المهمة التى عهد بها الى خالد بن الوليد فى حروب الردة من اشق المهمات واصعبها ، فقد كان عليه ان ينازل المرتدين من بنى اسد وغطفان وفزارة وكان موقف جارتهم طيئ مبهما حتى ذلك الوقت ، وتعد من القبائل الكبرى فى نجد .

والذى عليه الا كثرون ان جيش خالد ما كان يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل فى اول امره اما قوة بنى اسد فما كانت تقل عن أربعة آلاف انضم اليهم الفان من بنى فزارة بينهم ٧٠٠ فارس ، ومعنى ذلك انه كان عليه ان ينازل قوات يبلغ عددها ضعف عدد رجاله فى منطقة واسعة تحدها من الشرق الدهناء وهى الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربى الى الشرق الجنوبى فى شرقى القصيم ، ومن الشمال جبل شمر (بلاد طيئ) وتمتد جبالها من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربي ، وفيها اودية كثيرة من جملتها وادى حايل ويبتدئ من بزاخة طيئ ويفصل بين جبلى اجا وسلمى ، ويحده من الغرب حرة خيبر ومن الجنوب هضبة وادى الرمة وينزل بنو سليم فى شماليها وبنو عامر فى جنوبيها

وينزل بنو اسد فى الساحة الواسعة الى شمالى وادى الرمة وجنوبى فيد واطابة وغربى السميراء والظهران والسليلة ورابية الغمر وهى من اراضيهم وتشرف على وادى الغمر وينبع ماؤه من سفح جبل الوشم الشمالى ويصب فى الكهة ، وتقع بقربه بزاخة وقد دارت فيها المعركة الفاصلة بين خالد والمرتدين

وكان مصير نجد ـ لامصير بنى اسد ـ يتوقف على نتائج هذه المعركة فاذا تغلب خالد عليهم وهزمهم انضمت اليه قبائل طيء الكبرى وتنزل على مقربة من

بني اسد ، ولم تكن حالتها على مايرام . ويؤكد بعض الرواة انه لولا تدخل عدى بن حاتم الطائى وسعيه الحثيث عند قومه لانضموا من اول الامر الى المرتدين فهو لم يوفق الى اقناعهم بالتزام الحياد ترقبا لنتيجة المعارك الاولى الا بشق الانفس ، وكذلك كان شأن تميم تقريبا فكانت مترددة مضطربة ، منقسمة على نفسها ، فمنها من كان يؤيد المسلمين ظاهرا ، ومنها من كان يتردد وينتظر النتيجة

وسلك خالد فى طريقه من ذى القصة الى بزاخة طريق الربذة ووادى الركبة ثم انحدر الى وادى الرمة وقبل أن يصل الى منتصف الطريق مال الى اليسار متظاهرا بأنه يقصد اراضى طيء ، وما كان يريدهم بالذات وانما كان يريد ان يقوم بمظاهرة عسكرية فى ديرتهم فيرهبهم ويمنعهم من الانضمام الى المرتدين ، وقد اثرت مظاهرته هذه تأثيرا حسنا وحملت طيئا على الخضوع لانها اقترنت بالجهود الكبرى التى بذلها عدى بن حاتم سيد طيء فقد حذر قومه من عاقبة التورط فى العداء فطلبو اليه ان يؤخر تقدم خالد حتى يسترجعوا من لحق بغطفان من رجالهم فقابل عدى خالدا فى السيح وطلب اليه ان لا يغادر مكانه حتى يعود الطائيون من بزاخة الى منازلهم ، وارسل الى هؤلاء قومهم يقولون لهم ان خالدا يستعد للهجوم على منازلهم فيجب ان يعودوا اليها ، وتلك طريقة ابتكروها لئلايدعوا وسيلة لطليحة فيحملهم على البقاء ، فلما وصلهم الخبر عادوا الى منازلهم فكان ذلك اول فوز عسكرى ادركه خالد ولم يباشر حربا . ويؤكد بعض الرواة ان بنى طيء قدموا لخالد الف مقاتل انضموا الى جيشه قبل رحيله الى بزاخة

تدابير خالد العسكرية

قدم خالد على طليعته حينما زحف على بزاخة ، عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم فباغت المرتدون الطليعة وقتلوا قائديها ، مما يدل على تأهبهم واستعدادهم ، وكان حبال وسلمة اخوا طليحة يقودان جناحى بنى اسد وقاد عيينة بنى فزارة قومه حين المعركة ووقف طلحة فى القلب وحوله ٤٠ من فتيان بنى اسد يقاتلون دونه

وعبأ خالد جيشه فجعل رجال القبائل فى الجناح الايمن والمهاجرين والانصار فى الجناح الايسر وتولى هو قيادة القلب وفيه فريق من رجال القبائل ايضا

وصدق طليحة وانصاره الحملة فى ابتداء القتال فتغلبوا على جناح المسلمين الايمن وضعضعوه فانسحب الى الوراء وزلزل الجناح الايسر فأسرع خالد فحمل بمن كان معه فى القلب وهو ينادى يا انصار الله فأقبل المتراجعون على ندائه وكروا معه فاشتد القتال واستبسل الفريقان واستقتلوا وترجل خالد عن ظهر جواده وقاتل راجلا وحاول بعض رجاله ان يحمله على الخروج من صف القتال فابى وواصل النضال حتى دارت الدائرة على المرتدين وانهزم جناحاهم وبقى طليحة فى القلب وحوله فتيانه فقتلوا جميعا فانسحب الى الوراء يتحين الفرص للهرب وقد التف بردائه وجاءه عيينة بن حصن حينما ظهر تفوق المسلمين يسأله هل اتاه الوحى ؟

ــ نعم

ــ بماذا

ــ انه يقول « ان لك رحى كرحاه ، وحديثا لا تنساه » فنادى عيينة فى قومه « يابنى فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب » وسقط عيينة نفسه اسيرا فى يد خالد فكبله بالحديد وارسله الى المدينة ليحكم ابو بكر فى امره ، ونجا طليحة على فرس اعدها من قبل واخذ معه امرأته وقال لقومه « من استطاع منكم ان يفعل مثل مافعلت وينجو بأهله فليفعل » فتفرقوا وانهزموا

وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى اقبل الكثير من بنى اسد وغطفان الى خالد يجددون اسلامهم ويعلنون ندمهم ، ويظهرون حسرتهم على مافرطوا وغنم خالد مغانم كثيرة من بنى اسد ، ونزع سلاح هذه القبيلة كلها

وبث من مقامه فى بزاخة السرايا لمطاردة المنهزمين فالتقى بعضها بفريق منهم فى جبل رمان جنوبى جبل سلمى فهزمتهم واسرت كثيرين منهم وغنمت اسلحتهم والتقى غيرها بغيرهم فى الابان الابيض والابان الاسود وهما رابيتان على جانبى وادى الرمة فقاتلتهم واسرت عددا منهم وغنمت اسلحتهم وخيلهم

وغادر خالد بزاخة وسار حتى نزل بين اكناف جبل سلمى واجا ، ولعله اراد من ذلك تهديد بني عامر وكانوا ينزلون فى تلك الديرة وان يفعل معهم مايفعل ببنى طيء ولم يتردد هؤلاء فى ارسال وفودهم اليه لتجديد اسلامهم فقبل ذلك منهم بعد مافرض عليهم كمية من السلاح قدموها الى الجيش ، جزاء ترددهم فى اول الامر و بذلك خضعت هذه القبيلة للمسلمين

وجاءت الاخبار الى خالد بان فريقا من المرتدين اجتمع فى ظفر وهى مكان بالقرب من حوأب على الطريق بين البصرة والمدينة ويقع الى شرق بزاخة جمعتهم ام زمل سلمى وشجعتهم على المقاومة فسار اليهم وقاتلهم وهزمهم وقتلت ام زمل نفسها فى المعركة . ولما انجز امر بنى اسد وغطفان وطيء وعامر واعادها الى الطاعة وتعد من اقوى القبائل واعظمها شأنا اتجه نحو بنى تميم ، وكانت قوة كبرى يخشى بأسها فى الشرق

١١
سجاح

كان لانتصار خالد العظيم فى بزاخة وانضمام طيء وبنى عامر اليه وخضوع غطفان واسد واظهارها الندم ، دوى كبير بين قبائل الجزيرة ، اخافها وارعبها ، فعاد معظمها الى الاسلام ، وقدم الخضوع والطاعة والجند والمال والسلاح فاستعاد المسلمون هيبتهم ومقامهم وعكفوا على انجاز عملهم العسكرى لاخضاع القبائل الباقية التى ظلت فى خارج الحظيرة وفى جملتها بنو تميم

وتختلف حالة بنى تميم عن حالة بنى اسد وغطفان فقد كانوا منقسمين الى بطون وقبائل استحكمت بينها الخلافات ، ونمت الحزازات ففرقت كلمتها والقت العداوة والبغضاء بينها وتنقسم تميم فى الاصل الى اربعة افخاذ :

١ ـ الرباب وهم من ضبة وعبد مناف وزعيمهم الزبرقان بن بدر

٢ ـ عوف والانباء ومقاعش وهم من شعب سعد بن زيد بن مناة وزعيمهم قيس بن عاصم

٣ ـ مهدى وخثعم وزعيم الاولى صفوان بن صفوان وزعيم الثانية سبرة ابن عمرو

٤ ـ حنظلة ويربوع وهم من بنى مالك وزعيم حنظلة وكيع بن مالك وزعيم بنى يربوع مالك بن نويرة

وقدم وفد بنى تميم على المدينة (انظر ص ١٦٢) وفى جملته الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فدخلوا فى الاسلام فعينهم النبى على صدقات قومهم واعادهم الى منازلهم ، فلما توفى ، ارتد بعض القبائل واقام بعضها

على الوفاء للاسلام وفى مقدمتهم الزبرقان بن بدر سيد الرباب وارسل الزكاة ومنهم من تردد وبين هؤلاء مالك بن نويرة سـيد بنى يربوع وكان العداء مستحكما بينه وبين الزبرقان وكان كل منهما يترقب بصاحبه دوائر السوء

سجاح فى نجد

واقبلت على نجد فى تلك الاثناء سجاح بنت الحارث ـ واصلها من بنى يربوع بنى تميم غادرت بلادها ونزلت مع ابيها عنـد بنى تغلب فى الجزيرة وادعت النبوة فى السنة العاشرة للهجرة فآمن بها عـدد من نصارى تغلب ، فزحفت بهم وبآخرين من بنى شيبان واياد تريد الحجاز ويقال انها كانت تحاول من زحفها ذلك بلوغ المدينة والاستيلاء عليها ، لما رسخ فى ذهنها من تشتت المسلمين واضطراب حالهم بسبب حوادث الردة

واتصلت حين مرورها فى نجد بمالك بن نويرة سـيد بنى يربوع وكانوا يقطنون ارض الحزن غربى الدهناء. ودعته وقومه الى الانضمام اليها وتأييدها ، فرأى الفرصة سانحة للتنـكيل بخصمه الزبرقان بن بدر ، فاقنعها بالعدول عن مهاجمة المدينة وبان تغير على بعض احياء تميم الاخرى ، وهو يقصد بذلك الزبرقان وقبيله فانصاعت اليه . واتصلت بعـد ذلك بوكيع بن مالك زعيم بنى حنظلة فتظاهر بتأييدها فضمنت تأييد حنظلة ويربوع من بنى مالك

وغادرت سجاح اراضى بنى تميم من دون ان تعمل عمـلا يذكر الى اليمامة ومعها عدد من أنصارها ، نخاف قدومها مسيلمة الحنفى مدعى النبوة فى اليمامة فاستمالها ثم تزوجها فانصرفت الى الجزيرة من ارض اليمامة وانتهى امرها

خالد عند بنى تميم

ولما وردت الاخبار الى بنى تميم بانتصار خالد فى بزاخة و بزحفه عليهم وعلى اليمامة ، خاف الذين منعوا الزكاة كمالك بن نويرة ومن حذا حذوه و بادروا فأخرجوها وارسلوها اليه ، قبل ان يصل اليهم

ومشى خالد بقواه الكبرى حتى بلغ البطاح من اراضى بنى يربوع لأنهم سبق فتظاهروا بتأييد سجاح وموالاتها وامر مالك رجاله بان يتفرقوا وبان لايقوموا باى حركة عداء ضد المسلمين .

وضرب خالد خيامه فى البطاح (بطاح بنى تميم) واستقر فيها و بث سراياه فى اطرافها فجاءت تميم مستسلمة وفى جملتها مالك بن نويرة مع بعض قومه فأمر بهم خالد فحبسوا ثم قتلوا .

ورأى بعض رجال الجيش وفى مقدمتهم بعض الصحابة ان خالدا خالف بقتلهم اوامر ابى بكر وتعليماته وتقضى بان لا يقتل من يؤذن وقد اذنوا عند وصول الجيش سيما وقد اقترن القتل بتصرف آخر وهو زواجه بزوجة مالك بعد قتله ورفعوا الأمر الى ابى بكر فاسف له كل الاسف وامر بدفع دية مالك كما دفع دية باقى القتلى الى اهلهم .

ولم يحدث سوى هذا الحادث فى منطقة بنى تميم كلها وعادت الى الاسلام كما كانت

١٢

مسيلمة بن حبيب

مسيلمة بن حبيب الحنفى اول من ادعى النبــوة فى جزيرة العرب ، وأول من ابتدع هذه البدعة ، فقد اجمع الرواة عــلى انه ظهر فى السنة التاسعة للهجرة اى قبل ظهور الاسود العنسى وطليحة ، ولم يظهر الاول الا فى أواخر السنة العاشرة ولم يظهر الثانى الا بعد وفاة النبي فى السنة الحادية عشرة ، اما سجاح فقد ظهرت فى العاشرة ايضا وجاءت العراق فى أثناء تلك الغمرة لتدلى دلوها فى الدلاء وما كانوا من قبل ذلك يعرفون شيئا من امرها

مسيلمة يزور النبي فى المدينة

ويقول ابن هشام ان مسيلمة بن حبيب زار المدينــة مع قومه من بنى حنيفة حينما قدموها فى السنة العاشرة معلنين دخولهم فى الاسلام وانضواءهم تحت لوائه ، فجاء معهم الى المسجد وقد ستروه بالثياب ، وكان النبي جالسا مع اصحابه ومعــه عسيب (قضيب) من سعف نخل فى رأسه خوصات ، فلما انتهى الى الرسول كلمه وهو مستور بالثياب فقال له لو سألتنى هــذا العسيب لما اعطيتك اياه

وجهر مسيلمة بعد رجوعه من المدينة بدعوته وأخذ يسجع لقومه الاسجاع فى مضاهاة القرآن كما وضع عنهم الصلاة واحل لهم الخمر والزنا

ولم يقف مسيلمة عند هذا بل كتب الى النبي كتابا يقترح عليه اقتسام البلاد وقد اثبت ابن هشام هذا الـكتاب ونصه :

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله

« سلام عليك . أما بعد فانى قد اشتركت فى الامر معك وان لنا نصف الارض

ولقريش نصف الارض . ولكن قريشا قوم يعتدون »

وارسل كتابه هذا الى المدينة مع رسولين من قومه فسلماه الى النبي وهو فى مسجده فلما قرئ له سأل الرسولين اللذين جاءا به عما يقولانه

ــ نقول كما قال

ــ والله لولا ان الرسل لاتقتل لضربت اعناقكما

ثم أمر فكتب الى مسيلمة الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب

« السلام على من اتبع الهدى . اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقول ابن هشام ان ذلك كان فى آخر السنة العاشرة اى قبل وفاته باسابيع قليلة

واغتنم مسيلمة فرصة موت النبي فاستمال قومه فانضموا اليه وايدوه لاعتبارات يمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ ــ انه وضع عنهم الصلاة والصوم والزكاة واعفاهم من التكاليف التى جاء بها الاسلام

٢ ــ انه كان يسجع لهم سجعا لمضاهاة القرآن ويقول لهم : لقد جئتكم بقرآن كالذى جاء به محمد

٣ ــ ان بنى حنيفة كانوا من ربيعة بعكس قريش فهى من مضر ، ولما كان ظهور الاسلام فى هذه عززها ورفع مكانتها ، ولما كان ذلك لايرضى ربيعة ، ولما كانت تحسد قريشا على ما اتاها الله من فضله ، فقد اقدمت على تأييد مسيلمة رجاء ان يبلغها ما ابلغ محمد قومه من علو المرتبة ، وسعة النفوذ والمجد ، مع العلم ان بنى حنيفة أكثر من قريش عددا واعز نفرا ، ولم يهزمهم خالد بن الوليد إلا بشق النفس وبعد ما كادوا يتغلبون عليه ويهزمونه ويلحقونه بجيشى عكرمة وشرحبيل وقد هزموهما . ومما يؤثر عن زعيم من بنى حنيفة قوله : « اشهد ان مسيلمة كذاب وان محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر »

سجاح فى اليمامة

وقصدت سجاح بنت الحارث ارض اليمامة بعد ماغادرت ديار بنى يربوع واتصلت بمسيلمة ، فصالحها ثم تزوجها واقام معها وانضم رجاله الى رجالها واتباعه الى اتباعها فازداد بهم نفوذا وقوة ، و بينما هم على تلك الحالة وصلت القوات التى جهزها ابو بكر لضرب اليمامة والقضاء على فتنة مسيلمة ودعوته ، وقد انتدب لهذه المهمة قائدين من قواده وهما عكرمة بن ابى جهل وشرحبيل بن حسنة وامرهما بان يتساندا و يتعاونا

وغادر الجيشان ذا القصة فى نفس الوقت ، الذى تجهز فيه خالد لقتال بنى اسد ، وشرع هذا فى العمل فورا ، لان الخطر من ناحية اسد كان اشد لقربها من العاصمة بعكس اليمامة فقد كانت بعيدة عنها . يضاف الى هذا ان بنى حنيفة ما كانوا يفكرون فى مهاجمة المدينة او الاستيلاء عليها ، وقد هاجمتها غطفان وما كانت لتتورع عن دخولها ونهبها لو استطاعت الى ذلك سبيلا

١٣

حرب اليمامة

اسرع عكرمة بن ابى جهل فى زحفه الى اليمامة (مقاطعة الخرج من نجد وتعدمن اعظم مقاطعاتها وا كثرها سكانا وعمرانا وماء) مستهينا بالقوى الملتفة حول مسيلمة ، وطامعا فى ان يفوز بفخر اطفاء فتنته قبل ان يلحق به شرحبيل بن حسنة وقد امرهما الخليفة بالتعاون والعمل متحدين ، مما يدل على انه كان يقدر قوة هؤلاء ، ولا يستهين بها

وهزم ابناء اليمامة عكرمة وتغلبوا عليه وشتتوا شمل جيشه ، وفعلوا مثل ذلك بشرحبيل ايضا ، فساء ذلك ابا بكر ، فانتدب عكرمة الى حضرموت عقابا له ، كما امر خالدا ــ وكان قد اجهز على بنى اسد ــ بان يسير الى بنى حنيفة ، فزحف فى شهر ربيع الاول للسنة الثانية عشرة من البطاح يقصد عقرباء (اول الحدود الفاصلة بين اليمامة ووادى تميم)

وسار خالد على تعبئة منظمة فقدم مقدمة من بنى طيئ بقيادة عدى بن حاتم ، وارسل مكنف بن زيد الخيل واخاه لاستطلاع اخبار القوم كما ترك سليطا مع قوة فى البطاح لتكون ردءا له

وعلم بنو حنيفة بسير خالد اليهم ، فجمعوا قواهم واقاموا فى عقرباء ينتظرون وصول المسلمين لينازلوهم والمسافة بين البطاح وبين عقرباء نحو ٣٥٠ كيلومترا

واستشار خالد اصحابه حينما علم بتجمع الحنفيين فى عقرباء وسألهم عن الخطة التى يسير عليها فاتفقت كلمتهم على القول بوجوب التقدم . ويقدر المؤرخون قوى خالد يومئذ باربعة آلاف مقاتل ويقولون ان قوى بنى حنيفة ماكانت تقل عن عشرة آلاف

وعبأ انصار مسيلمة قواهم وكان محكم بن طفيل وهو من اجل رؤسائهم على الجناح الايمن ، والرجال بن عنفوة على الايسر وشرحبيل بن مسيلمة فى القلب، وكان مسيلمة فى المؤخرة يرقب حركة القتال

وعبأ خالد قواه تعبئة منظمة فاقام ابا حذيفة فى الجناح الايمن ، وشجاع بن وهب فى الجناح الايسر ، وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين ، وثابت بن قيس راية الانصار ، وتقلد اسامة بن زيد قيادة الخيالة

والتقى الجيشان وتصافا ، وبدأت المبارزة فبرز الرجال قائد الجناح الايسر الى الميدان فبرز اليه زيد بن الخطاب وقتله ، وبرز آخرون منهم فقتلوا ايضا فأهاج ذلك انصارهم فحملوا على المسلمين واستحر القتال ، وهبت ريح جنوبية فى وجوه هؤلاء فضعضعتهم فارتدوا ولحق بهم بنو حنيفة فبرز اليهم خالد وكان فى المؤخرة ، ينادى « وامحمداه » فالتف الناس حوله وكروا على العدو فهزموه وردوه

ويورد المؤرخون كثيرا من التفاصيل عما جرى فى هذا اليوم ويقصون قصصا عن ثبات المسلمين وبسالتهم ، ويقولون ان قيس بن ثابت صاحب راية الانتصار كان ينادى اخوانه حينما بدأوا بالتراجع ويقول « بئسما عودتم انفسكم يامعشر المسلمين هكذا عنى حتى اريكم الجلاد » وكان ابو حذيفة قائد الجناح الأيمن يقول « يا اهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » وقال زيد بن الخطاب وكان يحمل راية المهاجرين حينما رأى انفضاض الناس من حوله « والله لااتكلم اليوم حتى نهزمهم او القى الله . فاكلمه بحجتى . عضوا على اضراسكم ايها الناس . واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما » ويقول ابن خلدون ان قتلى الانصار يوم عقرباء زادوا على الثلاثمائة والستين وقتل مثل ذلك من المهاجرين والتابعين ولا تزال قبورهم قائمة الى يومنا هذا قرب وادى حنيفة عند قرية اسمها « جبيلة » ويقدرون مجموع قتلى المسلمين بألف ومائتين فى يوم عقرباء وقتلى اعدائهم بثلاثة آلاف

وحاول قادة جيش اليمامة اضرام نار الحماسة فى صدور قومهم فكان محكم بن الطفيل ينادى قائلا « يامعشر بنى حنيفة : الان والله تستردف الكرائم غير رضيات ،

وينكحن غير حظيات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » وقتل عبد الرحمن بن ابى بكر محكما هذا بسهم رماه به

وسأل اهل اليمامة مسيلمة ، حينما ركبهم المسلمون ودارت عليهم الدائرة عما كان يعدهم به من النصر والتأييد فقال لهم « قاتلوا عن احسابكم »

ولجأ بنو حنيفة الى الحديقة وهو بستان مسور لمسيلمة كانوا يسمونه حديقة الرحمن فدخلوها واغلقوا عليهم بابها فاقترح البراء بن مالك اخو انس على زملائه ان يلقوه فى الحديقة فأبوا فأصر عليهم فاحتملوه حتى اشرف على الجدار فاقتحمها وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين ودخلوها عليهم ، فاقتتلوا اشد قتال

ورمى وحشى بن حرب ، قاتل حمزة بن عبد المطلب يوم احد ، مسيلمة بحربة بين ثدييه وضربه انصارى بالسيف فمات وصاح صائح قتله العبد الاسود فولت حنيفة واخذهم السيف من كل جانب

وتوسط مجاعة بن مرارة من اعيان بنى حنيفة ، وكان اسيرا عند خالد ، اسرته مقدمة الجيش فى طريقها الى عقرباء فصالح باسم قومه خالدا على الشروط الآتية :

١ ـ يعف المسلمون عن الرجال والنساء والذرية

٢ ـ يأخذون الذهب والفضة والسلاح

٣ ـ يأخذون ربع السبى

واوفد ابو بكر ، مسلمة بن وقش بكتاب ، الى خالد ، فوصل بعد المعركةو بعد الصلح يأمره فيه ان يقتل من جرت عليه الموسى من بنى حنيفة ان اظهره الله عليهم ، فلم يشأ نقض عهده لهم وكتب الى ابى بكر يقول : لم اصالحهم حتى قتل من كنت اقوى به ، وحتى عجف الكراع (الخيل) ونهك الخف (الابل) ونهك المسلمون بالقتل والجراح »

وعاد بنو حنيفة الى الاسـلام ، وتبرأوا مما عملوه وقصد خالدا المدينة ومعه ١٧ من زعماء اليمامة فدخلوا على ابى بكر فبادرهم بقوله :

ـ ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل

ـ لقد كان الذى بلغك ممـا اصابنا . وكان امر لم يبارك الله عز وجـل له ، ولا لعشير شيء فيه

وسألهم ايضا عن اسجاع مسيلمة فرووا بعضها

فقال : سبحان الله هذا الـكلام ماخرج من ال ولا بر فاين تذهب احلامكم

١٤
الاسود العنسى

الاسود بن كعب العنسى هو رابع الاربعة الذين ادعوا النبوة وقد انتهى امر الثلاثة الاولين بالفشل والاخفاق كما تقدم ، وكان مصير هذا مصيرهم واسمه الحقيقى عيهلة والاسود لقب له لانه كان اسود البشرة

والثابت من اقوال الثقات ان الاسود هذا ظهر فى حياة النبى وقضى عليه فى حياته ايضا ، فقد روى ابن هشام ان رسول الله ﷺ خطب فقال « ايها الناس : قد رأيت ليلة القدر ثم انسيتها . ورأيت فى ذراعى سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فاولتهما هذين الكذابين صاحب اليمن وصاحب اليمامة »

وخلاصة ما يقال بشأن هذا الاسود انه من قبيلة عنس اليمانية ، ادعى النبوة فى شهر ذى القعدة من السنة العاشرة اى بعد دخول اليمن فى الاسلام و بعد وصول عمال المسلمين لادارتها ، فتبعه قوم من الغوغاء فسار بهم الى نجران فاستولى عليها ثم قصد صنعاء يؤيده عوام مذحج فدخلها وقتل عاملها شهربان واستولى عليها

واضطربت الحالة فى اليمن على اثر هذه الحوادث وانقسم اهلها الى قسمين قسم يوالى الاسود و يؤيده وقسم يتقيه و يحتفظ بدينه . ووصلت الاخبار الى المدينة فارسل النبى بواسطة بر بن يحنس كتابا الى من بصنعاء من الابناء (هم سلائل الفرس الذين ولدوا بصنعاء فى عهد احتلال الفرس لها) يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض الى الحرب والعمل على أمر الاسود وقتله اما غيلة واما مصادمة

واتصل الابناء بقيس بن عبد يغوث المرارى قائد جند الاسود واستمالوه الى جانبهم مغتنمين فرصة خلاف حدث بينهما ودبروا معه مؤامرة لاغتياله ثم ما لبثوا ان استمالوا امرأة اغتصبها الاسود وتزوجها بعد ما قتل زوجها فانضمت اليهم ومهدت لهم

السبيل الى قتله فاغتاله فيروز احـد الابناء فى منزله واذنوا بالاذان عند الفجر وكان معناه انقاذ صنعاء وعودتها الى الحظيرة الاسلامية ، وتولى معاذ بن جبل امرها وكتب الى المدينـة يبشر بقتله فوصلها الرسول صبيحة اليوم الذى قبض فيه النبي

وعادت الحالة فاضطربت فى اليمن حينما جاءت الاخبار بوفاة النبي ، وارتد بعض الزعماء والرؤساء ، فـكتب ابو بكر الى الذين حافظوا على ايمانهم يدعوهم الى مقاومة الردة ، والوقوف فى وجهها ريثما تصلهم النجدات التى قرر ارسالها اليهم . والظاهر انهم كانوا الفريق الاضعف فقد اتفقت كلمة المؤرخين على ان صنعاء سقطت فى ايدى هؤلاء وكان على رأسهم قيس بن عبد يغوث ، قائد جند الاسود العنسى وصاحبه ، وكان يطمع فى ان يخلفه بالسيطرة على اليمن بالاتفاق مع المسلمين فلما خاب ظنه من ناحيتهم وتوفى النبي ، وظهر الاضطراب فى الجزيرة ، نهض فجمع حوله انصاره القدماء فاستولى على العاصمة وانضم اليه عمرو بن معدى كرب فى بنى زبيد ، و بعض رؤساء القبائل

وسار المهاجر بن امية وهو الذى اختاره ابو بكر فى ذى القصة لاسترداد اليمن والقضاء على فتنتها حتى صنعاء فاحتلها من دون مقاومة تذكر ، واسر زعماء الفتنة ولم يرتفع لها رأس بعد ذلك ، وكان فى القضاء على حركة انصار الاسود العنسى فى صنعاء ــ وما حادث الارتداد فى اليمـن سوى مظهر من مظاهرها ــ قضاء على حركة مدعى النبوة فى جزيرة العرب كلها

١٥

حضرموت والبحرين وعمان

وكانت حضرموت والبحرين وعمان وهى فى منتهى حدود الدولة الاسلامية من الجنوب والشرق بين الاقطار التى ظهرت فيها حركة الارتداد لبعدها عن العاصمة ولحداثة عهدها بالاسلام ، فاولالى والاخيرة لم يسلما الا فى السنة العاشرة ، وربما توهم رجالها ان امر الاسلام انتهى بوفاة مؤسسه ، وان قوة المدينة لن تصل اليهم فاحجموا عن دفع الصدقات ، لا كرها منهم فى الدين ولا ابتغاء التخلص منه ــ كما نرجح ــ وانما لظنهم ان امر الدولة الاسلامية قد انتهى

وعهد ابو بكر فى اخضاع هذه المقاطعات ، الى العلاء بن الحضرمى وقد وجهه الى البحرين ، والى حذيفة بن محصن وقد وجهه الى عمان ، وعرفجة بن هرثمة وقد وجهه الى مهرة (عمان ايضا) وامره بان يتصل بحذيفة ويتعاون معه . كما عهد الى المهاجر ابن امية بان يتولى امر حضرموت ويعيدها مع اليمن الى حظيرة الطاعة

ويقول المؤرخون ان قبائل عبد القيس من البحرين عادت من نفسها الى الاسلام ، قبل وصول العلاء فقد دعا الجارود بن المعلى رؤساء القوم وكبارهم ووجه اليهم السؤال الآتى وطلب اليهم الاجابة عليه

ــ هل كان لله انبياء فيما مضى ؟

ــ نعم

ــ فما فعلوا ؟

ــ ماتوا ؟

ــ لقد مات محمد كما ماتوا ، واشهد ان لا إله الا الله وان محمدا عبده ورسوله

وتشهد القوم معه وعادوا الى الاسلام ، وشذت قبيلة بكر بن ربيعة وكانت تنزل فى البحرين بجوار عبد القيس وظلت على ارتدادها وقاد حركتها الحطم بن ضبيعة واستمال اليه بعض قبائل القطيف وهجر فايدوه وناصروه

ووصل العلاء الحضرمى الى البحرين ومعه الجند الذى عهد اليه بقيادته فى ذى القصة ولحق به ثمامة بن اثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم فقاتل الحطم وغلبه وقتله فانتهى بموته امر الردة فى البحرين والحساء وخضعت هذه المنطقة الواسعة للاسلام

ووقع فى حضرموت ماوقع فى البحرين فقد امر ابو بكر عكرمة بن ابى جهل بان يسير اليها ، بعد الفشل للذى لحق به فى اليمامة فقصدها ونازل قبيلة كندة بالاتفاق مع المهاجر بن ابى امية فقد خرج للقتال بعد ماقضى على فتنة صنعاء فأسروا الاشعث بن قيس سيد بنى كندة وارسلوه الى المدينة وبذلك قضى على الفتنة فى حضرموت كما قضى عليها فى عمان ومهرة وانقادت تلك المقاطعات كلها للمسلمين

واذا استثنينا ما وقع فى بزاخة واليمامة ومنشؤه فى نظرنا وجود الدعيين طليحة ومسيلمة فقد خضعت الاقطار الاخرى كلها تقريبا من دون عناء ولا نصب مما يؤيد ان حركة الردة لم يك مصدرها كره الاسلام ومقته والسعى للتخلص منه وانما هو الحقد الشخصى من جهة وما رسخ فى اذهان القوم من انه قضى على الاسلام بموت مؤسسه من جهة اخرى والرجوع الى نظم الجاهلية

ولم ينقض العام الاول على وفاة النبى حتى كانت حركة الردة قد اخمدت وقضى عليها قضاء مبرما تاما فعادت جميع الاقطار العربية الى الطاعة وقام على رأس كل منها امير انتدبه ابو بكر ، كما عادت القبائل الى الطاعة والانقياد ، فاتخذ الاسلام سبيلا جديدا يقوم على مهاجمة الفرس والروم فى شرقى الحجاز وشماليه فنالوا نصرا عظيما وادركوا فوزا كبيرا ستقرؤه مفصلا فى الاجزاء الآتية

فتح العراق وايران

حروب الإسلام والإمبراطورية الفارسية

معلومات جغرافية عامة

كانت مملكة العراق العربية ودولة ايران البهلوية خاضعتين لدولة واحدة عاصمتها المداين (طيسفون) فى جنوبى بغداد ومنهما كانت تتألف دولة الاكاسرة او دولة الساسانيين القديمة التى هاجمها العرب يوم غزو العراق

وكانت حدود العراق فى العهد الفارسي هى نفس حدود دولته اليوم مع تعديل جزئى فحدوده من جهة نجد وخليج فارس و بلاد الشام وتركيا تكاد تكون نفس حدوده القديمة ، اما حدوده من جهة الشرق ، وهى حدود ايران الحاضرة ، فتنتهى عند جبال حمرين شرقى بغداد وكان جغرافيو العرب يسمونه الجبل وهو فاصل طبيعى يفصل بين البلاد التى يتكلم اهلها العربية والبلاد التى يتكلم اهلها الفارسية اليوم

وحدود ايران البهلوية من جهة الشرق والشمال والجنوب فى الوقت الحاضر هى تقريبا نفس حدود المملكة الكسروية فى عهد الساسانيين

الاسلام وفارس

انتهت حروب الردة فى نجد واليمن وارتاح المسلمون من مشاغلها ومشكلاتها ، واستقرت قواعد دولتهم فى داخل الجزيرة ، واصبحوا بلا عمل يعملونه بعد ما اخضعوا العصاة و وصلوا حتى حدود الروم (الرومان) فى شمالى الحجاز ، وحدود الفرس فى شرقيه ، وكانوا يحتلون العراق و يسيطرون عليه وفى جنوبيه وشماليه ، شعب عربى يقدر بالملايين

ومع ان التسلسل الطبيعى للحوادث كان يقضى على ابى بكر بان يبدأ بغزو الشام بعد ماوصل جند المسلمين الى البلقاء واخضع جزءا من الاراضى التى كانت خاضعة للروم كتبوك والجوف ومعان والعقبة والمناطق المجاورة لها الا أن انتهاء المطاف بخالد فى اليمامة (الخرج) ووقوفه عند حدود العراق الفارسية ، جعل ابا بكر يرجح البدء بحرب الفرس وغزو العراق على حرب الروم وغزو الشام ، لان ذلك اسهل وايسر واقرب ، وما كانت المسافة بين مقر هذا الجيش وحدود الفرس فى العراق لتزيد على ٤٠٠ كيلو متر فى حين ان بينه و بين الشام شاسع المسافات ومئات الاميال

والواقع ان غزو فارس واخضاعها للحكم الاسلامى كان من جملة الاغراض التى وضعها المسلمون نصب اعينهم فقد بشرهم النبى بقرب استيلائهم على ملك كسرى وقال لهم ان خزائنه ستحمل اليهم ، وكتب السيرة مشحونة باخبار هذه البشائر والروايات

وكان كسرى بين الملوك الذين كاتبهم ودعاهم الى الدخول فى دينه ودعا عليه بتمزيق الملك حينما جاءه الخبر بانه مزق كتابه ، واذا قيل لنا ان النبى لم يجرد بعثا

عليها ولم يزحف لاحتلال اراضيها كما زحف على اراضى الروم نجيب انه ما كان يوجه بعوثه الا لضرورة مبرمة ، اى انه ما كان يرسلها لمجرد التحرش والاعتداء ، فغزوة دومة الجندل الاولى كانت لتأديب ابنائها لاعتدائهم على تجار الميرة ولانهم كانوا يستعدون للهجوم على المدينة ، وغزوة مؤتة كانت طلبا لثأر رسول للمسلمين قتله الغساسنة ، وغزوة تبوك كانت لملاقاة الروم وكانوا ـ كما نقل الرواة ـ يتأهبون لمهاجمة المدينة ويستعدون للاستيلاء عليها ومعنى ذلك ان المسلمين كانوا فى جميع غزواتهم وزحوفهم على حدود الشام مدافعين لامهاجمين . ولم يقع على حدود العراق ما يستوجب الزحف ولو وقع لما تأخروا ، علاوة على ان قبائل نجد ـ وكانت تنزل فى المنطقة الواسعة الممتدة بين الحجاز والعراق ـ لم تدخل الاسلام الا فى السنة التاسعة ، وبدخولها اتصلت حدود فارس بحدود المسلمين ، والمرة الأولى التى بلغ فيها الجيش الاسلامى حدود العراق كانت بعد حرب الردة ، فلم ير الخليفة ما يستوجب رجوعه ، فاصدر اليه الامر بان يتقدم لاحتلالها والاستيلاء عليها فيحقق بذلك بشارة من بشارات الرسول للمسلمين وما شك المسلمون فى صحتها

ويلوح لنا ان ابا بكر رمى بمشروعه هذا الى ادراك الاغراض الآتية :

١ ـ نشر الدين الاسلامى فى تلك الربوع وتلك هى الغاية الاولى التى وضعها المسلمون فى الصدر الاول نصب عيونهم وقاتلوا لاجلها وماتوا فى سبيلها

٢ ـ تحرير العرب النازلين فى جنوبى الشام وجنوبى العراق من نير الروم ونير الفرس ، فقد كانت دولتا العرب فى بصرى (عاصمة الغساسنة) وفى الحيرة (عاصمة المناذرة) مشمولتين بالنفوذين الفارسى والرومى وكان لقيصر الروم ولكسرى الفرس الكلمة العليا فى تصريف امورهما كما كان قولهما الفصل فى اختيار ملوكهما

وكان تحرير العرب فى جميع اقطارهم وادخالهم ضمن نطاق الدولة الاسلامية الجديدة وحملهم على التدين بالدين الاسلامى مما سعى له مسلمو الصدر الاول وعملوا على تحقيقه فما كانوا يقبلون الجزية من عربى وما كانوا يعفون عنه الا ان يدخل فى الدين الجديد ويندمج فى الهيئة الاجتماعية الجديدة التى انشأوها ، اى ان المسلمين

استبدلوا فى الدور الجديد عصبية القبيلة ، بعصبية القومية ، فكان العرب سياج الدولة الجديدة وحصنها وكانت جزيرة العرب مثابة لها وامنا

٣ ـ اشغال العرب بقتال هاتين الدولتين وكانتا قد هوتا فى درك الانحطاط الاجتماعى والسياسى فلا يعودون بعد ذلك الى الغزو وشن الغارات فى داخل جزيرتهم والغزو وشن الغارات مما الفه العرب واعتادوا عليه ، فاشتغالهم بقتال دولتين عظيمتين متمكنتين فى بلاد غنية عظيمة كالعراق وتعد من أخصب بلاد العالم ، وكالشام وثروتها الطبيعية مما لايستهان به ، يصرفهم عن المنافسات الداخلية وعن التزاحم ، ويريح حكومة المدينة من جهتهم ، كما يدر عليهم اخلاف الكسب والربح وبالفعل فقد جنوا الاموال الطائلة من غزوهم واستولوا على كنوز الاكاسرة وذخائر الرومان فتدفقت انهار الثروة فى المدينة المنورة ، ودخلت جزيرة العرب اموال عظيمة لا عهد لها بمثلها ، وعاش العرب عيشة رخاء لم يألفوها

ذلكم هو بعض ما يخطر ببال الباحث وهو يحاول ان يعلل خروج العرب من الحجاز وانسياحهم فى العراق وفى الشام فبقاؤهم وراء حصون جزيرتهم الرملية وهم لا يكادون يجدون القوت الضرورى فى ربوعها واكتفاؤهم بما فى ايديهم اصبح مستحيلا بعد ما نفخ فيهم الاسلام من روحه وصهرهم ببوتقته فانشأهم نشأة جديدة وكون منهم امة متحدة متماسكة تعتز بدينها وقوميتها وتدرك أن عليها واجبا دينيا وقوميا هو انقاذ البشر ، وتأسيس دولة تقيم العدل بالقسطاس المستقيم ، وتهتدى بهدى القرآن وتنشر تعاليمه السامية

٢
الاكاسرة

دولتان عظيمتان كانتا تسودان معظم الاقطار الشرقية المعروفة عند ظهور الاسلام وتسيطران عليها

دولة الفرس فى آسيا الوسطى ، ودولة الروم فى شرقى اوربا وآسيا الصغرى وافريقية الشمالية وكانتا تجاوران الحجاز وتسيطران على الجانب الغنى المعمور والأهول من بلاد العرب ، فكان الفرس يحتلون اليمن فى الجنوب كما كانوا يحتلون العراق فى الشمال ومثل ذلك الروم وكانوا يحتلون البلقاء وحوران والجوف وتدمر والصحراء وهى أقاليم عربية لايعرف أهلها سوى العربية لهم لسانا

وقد اقتصرت العلاقات بين الاسلام وهاتين الدولتين فى ابتداء ظهوره ، على غارات بسيطة أغارها المسلمون على اطراف المملكة الرومية فى جنوبى الشام فاخضعوا بعض مقاطعاتها القريبة من الحجاز لدولتهم الجديدة ، فلم يثر ذلك كبير اهتمام فى الدوائر السياسية والعسكرية فى انطاكية او القدس لبعد هذه المقاطعات من العمران ولان صلتها بالامبراطورية كانت محدودة لا تكاد تتجاوز دائرة الخضوع الاسمى أو « الشكلى »

وفعل المسلمون هذا الفعل مع الفرس تقريبا فانتزعوا منهم اليمن على اثر دخول عاملها باذان فى الاسلام ولم يقابل عمله باى احتجاج او تدبير فى المدائن لبعد المسافة بينها و بين صنعاء ، ولان العلاقة السياسية كانت محدودة بينهما ، وكان العامل الفارسى يتمتع باستقلال واسع النطاق . وما كان الفرس يهتمون كثيرا لحال اليمن لفقد الاتصال بينهم و بينها وقد رأيت كيف انهم ارسلوا السجناء لفتحها (انظر ص١٧١)

وما قاله ملكهم عند ما ارسلهم مع التبعي لغزوها

وعلاوة على هذه الاعتبارات وهي جوهرية في نظرنا ، فهنالك اعتبارات اخرى لابد من تدبرها ، وفي مقدمتها ظهور اعراض الهرم والشيخوخة على هاتين الامبراطوريتين حين ظهور الاسلام ؛ فقد افنت الحروب المتتابعة بينهما قواهما ، وقد استمرت زهاء ستين سنة اى منذ غزو الفرس الشام للمرة الاولى فى سنة ٥٤٠م بقيادة خسرو الاول حتى سنة ٦٢٣ م وانتهت بفوز الروم فوزا حاسما على الفرس فاعادوهم الى بلادهم واملوا عليهم شروطهم ونحن فى غنى عن القول ان هذه الحروب افقرت خزائنهما وافقرت بلاديهما ونفرت شعوبهما منهما فصاروا يمقتونهما ويتمنون زوالهما لما انزلوه بهما من مظالم ومغارم فقد كانوا يصادرون الاموال ويجندون الناس بالقوة

ولا يتسع المقام هنا للافاضة فى تاريخ الفرس الساسانيين ووصف ماجرى بينهم وبين جيرانهم الروم فامر ذلك يطول كما انه ليس هنا موضعه ، وانما نقول اجمالا ان هذه الحروب مهدت للانتصار الاسلامى وساعدت المسلمين فى القضاء على هاتين الامبراطوريتين وقد مشوا الى قتالهما فى وقت واحد فكانوا يحاربون الفرس فى العراق كما كانوا يقاتلون الروم فى الشام ، وما زالوا يكافحونهم ويناضلونهم فى الميدانين حتى تمت لهم الغلبة فقوضوا ملك الاكاسرة واستصفوا تلك الامبراطورية العظيمة ، وضموها الى دولتهم الجديدة كما قضوا على كل نفوذ للروم فى شرقى البحر المتوسط والبحر الاحمر فانتزعوا فلسطين وسورية وكيليكية وقبرص ومصر وافريقية فى الغارة الاولى ، ثم تتابعت بعد ذلك غاراتهم فاحتلوا الاناضول والقسطنطينية وقضوا على الامبراطورية العظمى كما قضوا على امبراطورية الساسانيين من قبل وورث الاسلام هاتين الامبراطوريتين العظيمتين كما ورث امبراطوريات اخرى فى الهند واواسط آسيا وشرقيها لم يسبق لا للفرس ولا للروم ان بلغوها

وجملة القول ان تتابع الحروب بين هاتين الامبراطوريتين ، — وقد اورثهما الفقر والضعف — كان من جملة العوامل التى مكنت للاسلام وساعدت على انتشاره ، فعمل المسلمون بمطلق الحرية فى داخل الجزيرة فى اول امرهم ، ولم يلقوا مقاومة

من رجال هاتين الحكومتين ، وكان كل فريق منهما منهمكا فى ابتكار الوسائل والاساليب التى تضمن له التفوق على خصمه والتغلب عليه ، لا يهمه امر جزيرة العرب ولا ما يحدث فى داخلها من حوادث ، ولا يرقب مجرى التحول الجديد الذى كانت تتحوله ، والغالب انهم ما كانوا يقيمون له وزنا ، لا ستهانتهم بشأن سكان الجزيرة وقطانها الذين اعتادوا مقاتلة بعضهم بعضا ، فكان اهمالهم وبالا عليهم ، ولم يشعروا بخطأهم الا حينما اخذتهم الصيحة وطرق المسلمون ديارهم واحاطوا بهم من كل جانب فاخذوهم اخذ عزيز مقتدر ، وتلوا عليهم من آيات البطولة والنجدة والشهامة والثبات والتكاتف والتضامن والاستماتة فى سبيل اداء الواجب مايحير العقول والالباب وكانوا من الفائزين ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين

٣

العلاقات بين العرب والفرس

كانت حدود الدولة الفارسية يوم استقر قرار المسلمين على مهاجمتها تمتد من حدود الحجاز جنوبا فالشام وديار الجزيرة غربا فبحر الخزر شمالا فافغانستان شرقا ، وكانت تنقسم الى اربع مقاطعات كبيرة وهي مقاطعة خراسان ومقاطعة اصبهان وفيها اذربيجان ومقاطعة بلاد فارس والاهواز ومقاطعة العراق واقليم الروم

وما كان عدد سكانها يقل عن اربعين مليونا يدين الجانب الاكبر منهم بالزردشتية ويعبدون اللهيب المقدس

وكانت حدودهم الجنوبية والغربية هي نفس حدود الدولة العراقية الجديدة تقريبا فكانت نجد تجاورهم من الجنوب وحدودها نفس حدود الدولة السعودية تقريبا . وتجاورهم بادية الشام من الغرب وحدودها تقريبا نفس حدود دولة سورية الحالية وشرقي الاردن اليوم وكانت ارمينية تجاورهم من الشمال وقد حلت محلها دولة الجمهورية التركية الجديدة والحدود هنا مختلفة بعض اختلاف . فقد كانت نصيبين وماردين واورفا وديار بكر داخل حدود الدولة الرومية ثم دخلت في حوزة المسلمين حين فتحهم العراق وهي اليوم من املاك الترك ومثلها رأس العين وجزيرة ابن عمر (الخابور) فقد ضمتها سورية

دولة المناذرة في جنوبي العراق

وكان العرب الخاضعون للفرس ينقسمون الى قسمين عرب الجنوب (سكان البلاد المجاورة لنجد) ولهؤلاء دولة خاصة بهم ، هي دولة الحيرة ، وعرب الشمال (قبائل ربيعة ومضر والنمر) وكانت تنزل الجزيرة بين دجلة والفرات

وكان الاولون ـ وينزلون على نهر الفرات ـ يتمتعون بشبه استقلال داخلى ودولتهم اقدم من دولة الفرس فى العراق ، فقد انشأوها كما يرى بعض المؤرخين سنة ١٣٨ م فى الحيرة ، اسسها مالك بن فهم التنوخى من قضاعة ، فعاشت حتى سنة ٢٦٨ م ولما توفى جذيمة الابرش انتقل الملك بوفاته الى ابن اخته عمرو بن عدى اللخمى جد المناذرة ومؤسس دولتهم ، وقد عاشت حتى سنة ٦٣٢ م اى حتى غزو المسلمين للعراق

وكانت الحيرة (عاصمة هـذه الدولة فى عهد التنوخيين اللخميين) من المدن الكبرى وقد ضعف شأنها بعد احتلال المسلمين للعراق وسقوط دولة المناذرة ثم انشائهم الكوفة واتخاذها قاعدة لجندهم ، وعلى انقاضها بنيت قرية « الجمارة » فى ايامنا هذه وهى على ١٧ كيلو مترا من شمالى الكوفة ، والى الجنوب الشرقى من مدينة النجف الحاضرة . وتبعد عن بغداد نحو ١١٦ ميلا وعن المدائن (١٣٦ ميلا)

ولقد دخلت دولة الحيرة فى حمى الاكاسرة سنة ٢٢٦ للميلاد باتفاق عقد بين جذيمة الابرش واردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية وقاهر ملوك الطوائف فى ايران . وظلت مقيمة على الولاء لهم حتى جاء الاسلام فاكتسحها واكتسحهم ، وأدالها وادالهم ، ويرى الباحث فى تاريخ هـذه الدولة ان ملوكها كانوا يتمتعون باستقلال ادارى واسع النطاق وانهم كانوا مطلقى التصرف فى شؤونهم الداخلية وشؤون العرب التابعين لهم فلا يتدخل الفرس الا عند الضرورة ، وكانوا يكتفون من ملوكها بما يظهرونه من اخلاص ، ويستقبلونهم بالحفاوة والتكريم حينما يزورون المداين ، ويستنصرونهم فى حروبهم على الروم وقد ادوا لهم خدمات جليلة ليس هنا موضع الافاضة فى الكلام عنها ، كما كانوا يعتمدون عليهم فى رد عادية العربان من الجنوب فلا يهاجمون البلدان ولا يزعجون الناس

ومع ان المؤرخين الذين عنوا بتدوين تاريخ هذه الدولة ودرس علاقاتها السياسية والادارية قد اهملوا الكلام على حدودها الجغرافية الا ان المفهوم لنا من تضاعيف أقوالهم ان حدودها كانت على التقريب كما يلى :

من الجنوب حدود الدولة السعودية الحاضرة فقد كانت نجد (اليمامة وكندة)

تتمتع باستقلال تام وطالما قاتلت المناذرة وازعجتهم وحكم الحيرة بعض ابنائها زمنا غير قصير

من الشمال المنطقة الممتدة على ضفاف الفرات من الحيرة حتى جنوبي الانبار ، ويلوح لنا ان الانبار نفسها كانت تتبع المداين مباشرة ، اما هيت فقد كانت بدون شك من اعمال المداين ولم يك للمناذرة اى صلة بها

من الشرق : بابل ولا تزال انقاضها قائمة وهى بين دجلة والفرات وتبعد بابل نحو ٨ كيلو مترات عن مدينة الحلة اليوم وهى الى شمالها

من الغرب : بادية الشام

تلك هى حدود تقريبية لدولة المناذرة فى العراق وكانت ضيقة الرقعة من الشمال والشرق ومتسعة فى الجنوب والغرب حيث صحراء العرب الواسعة

وهذا جدول باسماء ملوكها وتاريخ جلوسهم استقيناه من افضل المصادر التاريخية

اسم الملك	مدة حكمه			
عمرو بن عدى بن نصر	من سنة	٢٦٨	الى سنة	٢٨٨ م
امرؤ القيس بن عمرو	« «	٢٨٨	« «	٣٢٨
عمرو بن امرىء القيس	« «	٣٢٨	« «	٣٧٧
اوس بن قلام	« «	٣٧٧	« «	٣٨٢
امرؤ القيس بن عمرو الثانى	« «	٣٨٢	« «	٤٠٣
النعمان الاعور بن امرىء القيس	« «	٤٠٣	« «	٤٣١
المنذر بن النعمان بن امرىء القيس	« «	٤٣١	« «	٤٣٧
الاسود بن المنذر بن النعمان	« «	٤٣٧	« «	٤٩٣
المنذر بن المنذر بن النعمان	« «	٤٩٣	« «	٥٠٠
النعمان بن الاسود	« «	٥٠٠	« «	٥٠٤
علقمة ابو يعفر	« «	٥٠٤	« «	٥٠٧

اسم الملك	مدة حكمه			
امرؤ القيس بن النعمان	من سنة	٥٠٧	الى سنة	٥١٤
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء	« «	٥١٤	« «	٥٦٣
عمرو بن هند مضرط الحجارة بن المنذر ابن ماء السماء	« «	٥٦٣	« «	٥٧٨
قابوس بن المنذر	« «	٥٧٨	« «	٥٨٢
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	« «	٥٨٢	« «	٥٨٥
النعمان بن المنذر ابو قابوس	« «	٥٨٥	« «	٦١٣
اياس بن قبيصة الطائى	« «	٦١٣	« «	٦١٨
زاديه	« «	٦١٨	« «	٦٢٨
المنذر بن النعمان المغرور	« «	٦٢٨	« «	٦٣٢

الفرس وعرب الشمال

وما كان عرب الشمال او عرب الجزيرة من تغلب واياد يتمتعون بشىء من الاستقلال الداخلى الذى كان يتمتع به اخوانهم وجيرانهم سكان الجنوب بل كانوا يخضعون للمداين مباشرة ، مع احتفاظهم بنظام القبيلة و بالعادات والاخلاق العربية ، وكان الفرس يجبون الضرائب منهم و يجندونهم فى جيشهم و يعتمدون عليهم فى حروبهم مع الروم

الديوان العربى فى المداين

وكان فى بلاط كسرى ديوان خاص للشؤون العربية ينظر فى امور العرب وقضاياهم وممن اشتهر بين الذين تولوه عدى بن زيد واخوه ابىّ فقد ارسلهما قابوس ابن المنذر ليكونا فى خاصة كسرى و يتوليا الكتابة والترجمة ، وكان هنالك غيرهما

ايضا وكان الفرس يعتمدون على هؤلاء فى كل ماله علاقة بامور العرب و يستشيرونهم ولا يقدمون على اجراء امر من الامور من دون اطلاعهم

ولم تك حالة العراق فى اواخر عهد الدولة الساسانية على ما يرام ففشت الشيوعية والالحاد فى ربوعه وكثرت الاضطرابات الداخلية بسبب الحروب المستمرة والحرب مهما تكن اسبابها وغايتها مهلكة للبلاد ، متعبة للشعب ولذلك لم يلبث المسلمون ان تغلبوا عليها حينما هاجموها فقد تضافرت عليها العوامل الطبيعية والقوى المادية (قوة المسلمين) فاودت بها وقضت عليها

٤

مجلس شورى الصحابة يقرر مهاجمة فارس

يقول بعض المؤرخين الاسلاميين انه لما نضجت فكرة غزو الروم والفرس فى ذهن ابى بكر واعتقد ان مصلحة الاسلام والمسلمين هى فى مهاجمة حدود هاتين الدولتين واثارة حرب عليهما ، دعا اقطاب الدولة الجديدة وجوه الصحابة واعيانهم الى اجتماع عقده للبحث والمناقشة ، لانه لم يشأ ان ينفرد بالامر وحده ، ولا ان يأخذ تبعة على عاتقه ، فلما اجتمعوا بسط لهم مشروعه القائم على مهاجمة الدولتين واستأذنهم فى تنفيذه و بسط لهم ما ينطوى عليه من فوائد فاستصوبوه واقروه ودعوا له بالتوفيق والنجاح . وقال على بن ابى طالب وكان من الذين حضروا مجلس الاستشارة :

« ارى انك مبارك الامر ، ميمون النقيبة ، فانك ان سرت اليهم او بعثت اليهم نصرت ان شاء الله »

ولم يتردد ابو بكر حينما نال هذا « التفويض » فى اصدار الامر الى كبير قواد جيشه فى اليمامة بان يتجه نحو العراق . فقد اجمع المؤرخون انه كتب اليه فى اوائل السنة الثانية عشرة يأمره بان يقصد العراق و يبدأ بالهجوم على ثغر الابلة (لاتزال قائمة حتى اليوم و يسمونها جبلة بتشديد اللام وهى قرب الزبير وطاول البصرة القديمة . وتقع فى منتهى الخليج الفارسى من جهة العراق . ولم تك مدينة البصرة الحاضرة قد اسست وقد اسسها المسلمون بعد ذلك كما لا يخفى)

واصدر ابو بكر فى الوقت نفسه امرا الى عياض بن غنم بان يهاجم شمالى العراق و يبدأ بالمصيخ (ولعله مصيخ بهراء وهو ماء بالشام كما جاء فى ياقوت غير معروف فى الوقت الحاضر) واذا صح هذا فمعناه ان عياضا سار الى العراق من المدينة بطريق

الجوف على ان يقصد منها الى الجزيرة لانه لم يكن بين القواد الاحد عشر الذين انتدبوا لقتال اهل الردة أى انه لم يكن فى نجد مع جيوش المسلمين ليقال انه تلقى الامر كما تلقاه خالد ، فسار الى الجوف على ان يقصد منها شمالى العراق وينقض على الفرس فى الوقت الذى يهاجمهم فيه خالد من الجنوب . ولئن رافق التوفيق حملة خالد فمهدت للسلمين فتح العراق وفارس وكان على يدها انشاء هذا الملك الاسلامى الضخم فى اواسط آسيا ، فقد تخلف التوفيق عن حملة عياض فاجتمعت عليها عربان الجوف و بادية الشام وحالت دون تقدمها فاضطرت ان تستنجد بخالد فاسرع اليها من الانبار وهو مكان فى جوار الفلوجة وتبعد عن بغداد ٦٥ كيلو مترا للغرب وانقذها وفتك بالذين اجتمعوا عليها وفرق جموعهم وقواهم . فانضمت على أثر ذلك الى حملته وقاتلت معه ، واخر عدم نجاحها فتح الجزيرة فلم تخضع للمسلمين الا بعد فتح المداين كما سيأتى تفصيلا

٥

خالد بن الوليد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب ، ابو سليمان وقيل ابو الوليد القرشي المخزومى وامه عصماء (لبابة الصغرى) بنت الحارث بن حزن بن بجيرة بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية ، وهى اخت ميمونة زوج الرسول ، واخت لبابة الكبرى ، زوج العباس بن عبد المطلب ، عمه

كان ابوه الوليد بن المغيرة سيدا من سادات قريش ، وجوادا من اجوادها ، وكان يلقب بالوحيد ، وقيل انه كان يلقب بالعدل ، لانه كان يكسو الكعبة من ماله سنة ، وتكسوها قريش سنة اخرى

وورث خالد عن والده « القبة » وكانوا يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش ، من لباس ومأكل وميرة، وكانت له اعنة الخيل ايضا فكان المقدم على خيل قريش (قائد الفرسان)

واسلم خالد بعد الحديبية ، ولما مال الى الاسلام ، قدم الى المدينة هو وعمرو بن العاص وطلحة بن ابى طلحة العبدرى فلما رآهم الرسول قال لاصحابه « رمتكم مكة بافلاذ كبدها »

وروى الواقدى عن الحارث بن هشام فى سبب اسلامه ما يأتى منقولا عن لسانه قال :

« لما اراد الله بى من الخير ما اراد ، قذف فى قلبي حب الاسلام ، وحضرنى رشدى وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن اشهده الا وانصرف وانى ارى فى نفسى انى موضع فى غير شيء وان محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله

الى الحديبيــة خرجت فى خيل للشركين ، فلقيت رسول الله فى اصحابه بعســفان ، فقمت بازائه وتعرضت له ، فصلى باصحابه الظهر اماما فهممنا ان نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما فى انفسنا من الهجوم به فصلى باصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا وقلت الرجــل ممنوع ؛ وافترقنا وعــدل عن سنن خيلنا فاخــذ ذات اليمين

فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح ، قلت فى نفسى أى شىء بقى ؟ اين المــذهب ؟ الى النجاشى فقــد اتبع محمدا واصحابه آمنون عنده، فاخرج الى هرقل فاخرج من دينى الى نصرانية اويهــودية ، فاقيم فى عجم او اقيم فى دارى فيمن بقى . و بينما انا على ذلك اذ دخل رسول الله فى عمرة القضية وتغيبت فلم اشهــد دخوله ، وكان اخى الوليد قد دخل مع النبى فى تلك العمرة فطلبنى فلم يجدنى فــكتب الى كتابا فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعــد . فانى لم ار اعجب من ذهاب رأيك عن الاســلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله احد ، وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك فقال اين خالد ؟ فقلت يأتى الله به فقال مامثله يجهل الاســلام ، ولو كــان يجعل نــكايته وحده مع المسلمين على المشركين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا اخى ماقد فاتك من مواطن صالحة »

ولمــا جاءنى كتابه ، نشطت للخروج و زادنى رغبة فى الاسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله ثم رأيت فى النوم ، كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلاد خضراء واسعة فقلت ان هــذه الرؤيا حق ، فلما قدمت المدينة قلت لأذكرها الى ابى بكر فذكرتهــا فقال هو مخرجك الذى هداك للاسلام والضيق الذى كنت فيه الشرك

فلما اجمعت الخروج الى رسول الله قلت من اصاحب اليه فلقيت صفوان بن امية فقلت اما ترى يا ابا وهب ؟ اما ترى مانحن فيه ؟ انما نحن ا كلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فان شرف محمد شرف لنا فابى على اشــد

الاباء وقال لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته ابدا فافترقنا فقلت هـذا رجل موتور يطلب وترا قتل ابوه واخوه ببدر

ثم لقيت عكرمة بن ابى جهـل فقلت له مثل ما قلت لصفوان . فقال لى مثـل ما قاله فقلت فاطو ما ذكرت على قال لا اذكره . وخرجت الى منزلى فامرت براحلتى تخرج الى ان القى عثمان بن ابى طلحة . فقلت ان هذا لى لصديق فلو ذكرت له ما اريد ، ثم تذكرت ما قتل من آبائه فكرهت ان اذكره ثم قلت ما على وانا راحل من ساعتى ؟ فذكرت له ما صار الامر عليه . وقلت انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلت لصاحبه فأسرع بالاجابة ، وقال : لقد غدوت اليوم وانا اريد ان اغدو وهـذه راحلتى بفج مناخة واتفقنا ان سبقنى اقام وان سبقته اقمت عليه

وادلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج (مكان على طريق المدينـة يبعد عن مكة ١٢ كيلومترا) فغدونا حتى انتهينا الى الهدة فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال مرحبا بالقوم

ـ وبك

ـ اين مسيركم ؟

ـ ما اخرجك ؟

ـ فما الذى اخرجكم ؟

ـ الدخول فى الاسلام واتباع

ـ ذاك الذى اقدمنى

فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فانخنا بظاهر الحرة ركابنا واخبر بنا رسول الله فسر بنا ، فلبست من صالح ثيابى . ثم عمدت الى رسول الله فلقينى اخى فقال ان رسول الله اخبر بقدومك فسر به وهو ينتظركم ، فاسرعت بالمشى فطلعت فما زال يبتسم الىّ حتى وقفت فسلمت عليـه بالنبوة فرد على السـلام بوجه طلق فقلت انى اشهد ان لا إله الا الله وانك رسول الله ، فقال : الحمد لله الذى هداك

ــ قد رأيت ما كنت اشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق فادع الله ان يغفرها لى

ــ الاسلام يجب ما قبله

ــ على ذلك يارسول الله .

ــ اللهم اغفر لخالد كل ما اوضع فيه من صد عن سبيلك

وتقــدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ، وكان قدومنا فى شهر صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم اسلمت يعدل بى احدا من اصحابه فيما حزبه »

وشهد خالد فتح مكة وما بعده من المشاهد وابلى احسن بلاء فى العراق والشام وسيأتى وصف ذلك كله ، ومات على فراشه بحمص فى سنة ٢١ للهجرة

ولما حضرته الوفاة بكى وقال «لقد حضرت كذ وكذا زحفا وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة بسيف او رمية بسهم او طعنة رمح وها انا اموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت اعين الجبناء »

ومما يؤثر عن خالد قوله وهو على فراش الموت: «لقد طلبت القتل فى مكانه ، فلم يقدر لى الا ان اموت على فراشى وما من عملى شىء ارجى عندى بعد لاإله الا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين بتها وانا متترس والسماء تنهل على وانا انتظر الصبح حتى اغير على الكفار فعليكم بالجهاد »

واوصى بان يجعل سلاحه وفرسه عدة فى سبيل الله . ومات وهو فى الستين و وصفه النبى بانه سيف من سيوف الله

٦

اعمال المسلمين العسكرية فى جنوبى العراق

لم يشأ خالد حينما اقترب من ثغر الابلة (البصرة القديمة) ان يهاجمها غدرا ، وان ينزل سيف النقمة على رؤوس سكانها ، بل كتب كتابا الى هرمز ، عامل كسرى فى ذلك الثغر الفارسى الكبير ، يخيره فيه بين الدخول فى الاسلام او دفع الجزية او الاستعداد للحرب ، وهى الخطة التى اتبعها المسلمون فى جميع حروبهم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد الى هرمز

« اما بعد فاسلم تسلم او اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

واعد خالد عدته للحرب على أثر ارسال هذا الكتاب ، لانه ما كان يجهل الجواب ، وقسم جيشه الى ثلاثة اقسام فسار كل فريق من ناحية وواعدهم الاجتماع بالحفير وهو موضع ماء على ستة كيلو مترات من البصرة على طريق البحرين ، ولما تلقى هرمز الكتاب خرج بقواه للقائهم . ومعنى ذلك انه اراد ان يكون مهاجما لامدافعا فلا يحصره المسلمون فى داخل مدينته ، وكتب الى كسرى بما حدث و بما فعله . و بلغه فى الطريق ان العرب اتعدوا الاجتماع فى الحفير فقصدها و بلغها قبل ان يبلغوها فاحتل ماءها وعبأ جيشه استعدادا للقائهم . وعرف خالد بوصول قوى الفرس الى الحفير فتحول عنها الى « كاظمة » بقرب البصرة وهى احدى الكواظم (مدن قديمة) بينها و بين البصرة نحو ١٢ كيلو مترا

المعركة الاولى بين العرب والفرس

واتصل بهرمز ان العرب احتشدوا فى كاظمة فسار اليهم على الفور وفيها التقى الجيشان . وكانت المرة الاولى التى التقى فيها العرب بالفرس فى الاسـلام وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشه فتبارزا فقتـل خالد مبارزه وشتت جيشه فكان اول نصر ناله المسلمون على الفرس فى الاسـلام فشجعهم وقوى عزائمهم ونشطهم . على ان بعض المؤرخين يقول ان اللقاء الاول كان فى الحفير لا فى كاظمة

المعركة الثانية

وواصـل خالد زحفه نحـو الشمال فعرف ان الفرس جهزوا جيشا للقائه بقيادة قارن بن قريانس وان هذا ـ وقد كان قادما لنجدة هرمز ـ توقف فى المذار (وهو على بعد ٩٦ ميـلا من شمالى البصرة قرب قلعة صالح فى لواء العمارة فى الوقت الحاضر ويبعد عن المدائن ٢٤٠ ميلا الى الجنوب) فاسرع خالد للقائه واشتبك الجيشان واقتتلا قتالا شديدا انتهى بفوز خالد وتغلبه على الفرس فانهزموا بعد ما قتل منهم عددا كبيرا وعبروا دجـلة من ضفته الغربيـة الى الشرقيـة فلم يتمكن المسلمون من اللحاق بهم ومطاردتهم لقلة وسائل المواصلات لديهم

المعركة الثالثة

وأعد الفرس جيشا ثالثا على جناح السرعة للقاء العرب غادر المدائن فلم ينتظر خالد وصوله بل زحف اليه على جارى عادته ـ بعد ما اقام فى المذار قوة لحفظ خط رجعته ـ فالتقى الجيشان فى الولجة (شمالى المذار) ـ ويقولون انها مدينة واسط التى بناها الحجاج وهى تبعد عن مدينة الحى اليوم سبعة اميال ـ فصدم الفرس صـدمة عنيفة وكان قد قسم جيشه الى ثلاث اقسام ولم يلبث ان هزمهم وانتصر عليهم وقتـل فى هـذه

المعركة كثيرون من نصارى العرب من قبائل بكر بن وائل وقد جندهم الفرس لقتال ابناء جلدتهم

الفرس يعبئون جيشا رابعا

وعبأ الفرس جيشا رابعا قاده بهمن جاذويه قائد الجيش الثالث وقد احتشدهذا الجيش فى اليس من قرى الانبار قرب (الفلوجـة) فسار خالد اليهم على جارى عادته وهزمهم وهكذا سحق فى مدة قصيرة اربعة جيوش للفرس

دجلة والفرات

والباحث فى خطط خالد العسكرية والاساليب التى اتبعها فى قتال الفرس بالعراق والطرق التى سلكها يتبين له انه اتبع دجلة فى زحفه من الجنوب الى الشمال ، ويجرى دجـلة من الشمال الى الجنوب ويشق المداين (عاصمة الفرس يومئـذ) واسمها بالفارسية طيسفون وهى مبنية على ضفة دجلة اليسرى وتقابلها سلوقيه على الضفة اليمنى وتبعدان ٢٠ ميلا عن بغداد جنوبا

ويقترن نهر الفرات فى سيره الى الجنوب بدجلة ويؤلفان عند اجتماعهما شط العرب فى القرنة ، من الاقتران (اقتران دجـلة بالفرات) ويتصل بخليج فارس فالمحيط الهنـدى كما لايخفى . ولئن لم يتغير مجرى هذين النهرين الكبيرين فى المناطق العليا الا ان مجراهما فى جنوبى العراق ووسطه قد تغير تغيرا كبيرا فى مناطق شتى . ولا سيما فى المكان الذى يجتمعان فيه

وكان القسم الاكبر من دجلة يتبع مجرى نهر الغراف فى عهد الساسانيين وفى ابتداء الفتح الاسلامى ويصب قليل منه فى المجرى الذى يمر بمدينة العمارة الآن ، وكان يلتقى بالفرات فى جوار القرنة . اما ماء شط الفرات فكان يصب فى البطائح ، ثم يجرى نحو الشرق فيصب فى شط العرب ، وكان هنالك رافد يصل حتى جوار المذار

وكان نهر الفرات يجرى على فرعين فى العهد الساسانى فرع بابل (شط الحلة الآن) وفرع الكوفة (شط الهندية الآن) وكانا يلتقيان قرب السماوة فى الجنوب ويصبان فى البطائح ويتصلان ببحيرات صغيرة صالحة للملاحة تنتهى بشط العرب وترابط المداين بخليج فارس

السواد

وكانوا يطلقون اسم السواد على القسم الممتد من اول حدود العراق الجنوبية حتى سامراء وهيت فيشمل البصرة والحلة والديوانية والعمارة وكربلاء والنجف والكوفة ، ويقال انها سميت سوادا لاشتباك شجر النخيل فيها فكان القادم الى العراق يرى من بعد سوادا فسميت به . اما الجزيرة فتشمل المنطقة الممتدة ، من شمالى سامراء حتى شمالى الموصل على مجرى دجلة وشمالى هيت على مجرى الفرات

الفرس ينقلون ميدان القتال

ورأى الفرس بعد ما هزمهم خالد الهزائم المتتابعة على دجلة ان ينقلوا ميدان القتال الى منطقة الفرات فيبعدوا الخطر عن عاصمتهم ، فاخذوا يحشدون جيشا جديدا فى « اليس » قرب الانبار (والانبار بجوار الفلوجة او هى نفسها وتبعد عن بغداد ٦٥ كيلومترا وهى الى غربيها وتقع على ضفة الفرات الشرقية) وبلغ خالدا احتشادهم فطار اليهم على جناح نعامة ، لانه انما كان يطارد الجيش الفارسى نفسه ويسعى لاضعافه وتمزيق شمله وضربه الضربة القاضية ، ومتى ادرك ذلك استسلمت اليه البلاد وانقادت فالمهم هو تمزيق جيوش العدو لا احتلال مدنه فانه لا يحجم ان ينقض على عدوه عند سنوح الفرص ويتغلب عليه ويخرجه من بلاده ما دامت قواه سليمة

وقاد بهمن جاذويه الفرس فى اليس ، كما قادهم من قبل فى الولجة ، ولم يستطع ثباتا امام خالد حينما دارت رحى الحرب فولى الادبار وارتد بفلوله الى المداين وهكذا سيطر المسلمون على المنطقة الممتدة من جنوبى الانبار حتى شط العرب ، كما كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة من جنوبى الولجة حتى البصرة ايضا اى انهم امتلكوا السواد كله تقريبا

فتح الحيرة

وصلت اخبار انتصار خالد فى اليس الى مرزبان الحيرة (القائد الفارسى فيها ، وكانوا يلقبون كل قائد فارسى بهذا اللقب كما كانوا يلقبون قواد الروم بلقب بطريق وهى تعادل كلمة جنرال عند الاوربيين فى عصرنا) وتقع الحيرة جنوبى الانبار وبينهما نحو ٩٠ ـ ٩٢ ميلا وعرف ان خالدا لابد مدركه فتجهز وأعد معدات الحصار وجمع الجند والقوى وأرسل قوة بقيادة ولده للكشف والاستطلاع . وكان من التدابير التى عمد اليها تفجيره الانهار الآخذه من الفرات فقل ماؤه فرست السفن على الطين ووقفت عن السير وكان خالد يعتمد عليها فى نقل جيشه فى زحفه من اليس الى الحيرة والظاهر انها مما غنمه من الفرس

وسار خالد على الفور الى الحيرة لمنازلة الفرس فنزل قرب قصر الخورنق ويقع شرقى الحيرة فى الطريق بينها وبين النجف ، وهو من قصورها المشهورة وكان على نهر يسمى باسمه وهو على ميل منها ، فنزل وضرب خيامه استعدادا للنضال

وكان ملك الحيرة يومئذ المنذر الخامس بن النعمان الثالث وقد تبوأ الملك سنة ٦٢٨ والظاهر انه لم يكن له من الامر شىء فقد تولى القائد الفارسى (المرزبان) فى اول الامر الدفاع عن العاصمة وحاول صد المسلمين عنها . ولما ظهر عجزه وادرك انه لاقبل له بلقائهم توارى بقواته وراء الاسوار وتحصن مع الذين تحصنوا من اهلها

ونفذ خالد تعليمات ابى بكر فأرسل الى اهل الحيرة رسولا ابلغهم اقتراحاته

المعروفة وخيرهم بين واحدة من ثلاث فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب وامهلهم ٢٤ ساعة ليختاروا واحدة منها . ولما انقضى الموعد المضروب ولم يرد جوابهم امر بالهجوم على المدينة ومضايقتها فنادى القسيسون والرهبان : يا اهل القصور مايقتلنا غيركم . وتظاهر غيرهم من العامة طلبا للصلح فلم ير الرؤساء والزعماء بدا من الاستسلام فطلبوا الى خالد ان يكف الحرب عنهم واخبروه انهم قبلوا المطلب الثانى وهو الجزية وانهم سيدفعونها فورا

اول جزية يقبضها المسلمون

وهكذا دخلت الحيرة (عاصمة المناذرة) فى حوزة المسلمين وقضى على نفوذ الفرس فى بلاد المناذرة وهذه صورة عهد خالد لأهل الحيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة : ان خليفة رسول الله ﷺ ابا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه امرنى ان اسير بعد منصرفى من اهل اليمامة الى اهـل العراق من العرب والعجم وبان ادعوهم الى الله جـل ثناؤه والى رسوله عليه السلام ، وابشرهم بالجنة ، وانذرهم من النار فان اجابوا فلهم ما للمسلمين، وعليهم ماعلى المسلمين، وانى انتهيت الى الحيرة ، فخرج الى اياس بن قبيصة الطائى فى اناس من اهل الحيرة من رؤسائهم ، وانى دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا ان يجيبوا فعرضت عليهم الجزية او الحرب ، فقالوا : لاحاجة لنا بحربك ولكن صالحنا على ماصالحت عليه غيرنا من اهـل الكتاب فى اعطاء الجزية وانى نظرت فى عدتهـم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانه الف رجل ، فاخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى على ستين الفا وشرطت عليه ان عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على اهل التوراة والانجيل ان لا يخالفوا ، ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ان اخذه اشد مااخذه على نبى من عهد او ميثاق او ذمة ، وان خالفوا

فلا ذمة لهم ولا امان وان هم حفظوا ذلك ووعوه وادوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد. وعلينا المنع لهم ، فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم لهم بذلك عهد الله وميثاقه اشد ما اخذ على نبي من عهد او ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، او اصابته آفة من الآفات ، او كان غنيا فافتقر ، وصار اهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبد من عبيدهم اسلم اقيم فى اسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل ، ودفع ثمنه الى صاحبه ، ولهم كل مالبسوا من الزى الا زى الحرب ، من غير ان يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عمالهم منهم ، فان طلبوا عونا من المسلمين اعينوا به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين »

وقبض خالد من اهل الحيرة ٩٠ الف درهم وهى اول جزية يقبضها المسلمون. واهدوا له هدايا امره ابو بكر بان يعدها من الجزية ففعل

خالد يستقر بالحيرة

واستقر خالد بالحيرة وانشأ فيها حكومة اسلامية واخذ يعمل لنشر نفوذ الاسلام فى منطقة الفرات وكان صلوبا بن نسطون صاحب قس الناطف وهو موضع على الفرات الشرقى قرب الكوفة و بينهما نحو ٢٠ كيلو مترا ــ اول من صالح الفاتحين من امراء البلاد المجاورة وهذا نص كتاب خالد له :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطون وقومه انى اعاهدكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد سوى ما على بانقيا و باروسما جميعا على عشرة آلاف.

دينار سوى الجزية القوى على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله فى كل سنة وانك قد نقبت على قومك وان قومك رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت و رضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعنا كم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم »

خالد ينذر كسرى وقواد الفرس

وارسل خالد من مقامه بالحيرة الكتاب الآتى الى كسرى يكرر فيه دعوته له بالدخول فى الاسلام و يهدده بالزحف عليه وتدمير ملكه اذا لم يقبل وهذا كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد الى ملوك فارس

اما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرا لكم فادخلوا فى امرنا ندعكم وارضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان ذلك وانتم كارهون على غلب على ايدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

وارسل الكتاب الآتى من الحيرة الى مرازبة (قادة) الجيش الفارسى قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس

الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، واوهن بأسكم ، وسلب اموالكم وازال عزكم ، فاذا اتاكم كتابى هذا فابعثوا الى بالرهن واعتقدوا منا الذمة ، واجيبوا الى الجزية والا فوالله الذى لا إله الا هو لأسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة و يرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا

ولم يتلق جوابا لا من الملك ولا من هيئة القواد ، وبدلا من ان ينزل هؤلاء على امره و يجيبوا دعوته انصرفوا الى حشد قواهم وتنظيم شؤونهم الداخلية وازالة ما بينهم من ضغائن وخلافات ومنافسات لاريب فى انهـا سهلت مهمة خالد كثيرا وساعدته على نيل اوطاره وبديهى ان فوز المسلمين على الفرس فى المعارك التى نازلوهم فيها وتغلبهم عليهم ـ وقد حكموا العرب وسادوهم مدة

خمسة قرون تقريبا (٢٢٦ ـ ٦٣٢ م) ماعدا فترات قصيرة ـ من الحوادث الخطيرة التى لا يستهان بهـا والمرة الوحيدة التى انتصر فيها العرب على الفرس هى يوم ذى قار (ماء لبكر بن وائل قرب الكوفة يقع بينهـا و بين واسط اى بين الفرات ودجلة) فقد قاتل بنو شـيبان قوى الفرس والعرب الموالية لهم وتغلبوا عليها وهزموهم بفضل انضمام قبيلة اياد الى بنى شيبان وكانوا يقاتلون فى صفوف الفرس حين ابتداء المعركة و يقال انها حدثت فى نفس السنة التى حدثت فيها معركة بدر الكبرى والراجح انهـا كانت بين سنة ٦١٣ و ٦١٨ ولمـا بلغ الرسول خبرها قال (هذا اول يوم انتصف فيه العرب من العجم و بى نصروا)

خطة عسكرية جديدة لخالد

ورأى خالد بعد ما فتح الحيرة واسـتقر فيها واخضع جنوبى العراق ان يلحق بحملة عياض بن غنم ـ وقد ذكرنا من قبل ان ابا بكر وجهها لغزو شمالى العراق فى نفس الوقت الذى امر فيه خالدا بان يغزوه من الجنوب ، وقد رمى من توجيه هاتين الحملتين فى وقت واحد الى تعاونهما فى الفتح فتسـير كل حملة من ناحية وتجتمعان فى الوسط وتعملان متحدتين وفى ذلك قضاء على الدولة الفارسية وفناء لها ، ولم يصحب التوفيق حملة الشمال فلم تعمل عمـلا يذكر فاستقر قرار خالد ان يسير اليها ثم يزحف بها من الشمال الى الجنوب وينفذ ما امر به الخليفة ولو تم ذلك لسهل مهمة المسـلمين فقـد كانت للفرس معاقل وحصون فى هذه المنطقة كالحضر والاخيضر والخراب وهى قصورا وهى حصون معروفة واطلالها شاخصة الى اليوم ، تحول دون اجراء الحركات العسكرية بسهولة

وولى خالد القعقـاع بن عمرو الحـيرة وغادرها الى الشمال للاجتماع بعياض ، فسلك طريق الانبار ـ وكانت لاتزال بيـد الفرس ـ لانه لم يهاجمها بعـد معركة اليس وهى فى شمالها بل اتجـه الى الجنوب فوصـل الحيرة كما تقدم . و بلغ قائد الانبار خروجـه فتهيأ لقتاله ، وحشد الجيوش للقائه ، وامر خالد رماة المسلمين حـين بلغ

الانبار وشاهد اهلها وقد تحصنوا وراء الاسوار بان يرموهم بنبالهم ، ثم امر مشاته بالهجوم عليها

ورأى قائد الحامية انه لاقبل له بالمقاومة فصالحه على ان يسلمه المدينة وعلى ان ينجو ومن معه بارواحهم وتركوا له الاموال والمتاع ونفذت هذه الشروط وتسلم المسلمون الحصون وعين خالد الزبرقان بن بدر قائدا لها

وعلم المسلمون وهم فى الانبار (الفلوجة) ان الفرس والعرب المتنصرة يتجمعون فى (عين التمر[١]) موضع على مسافة ستة اميال من شفاثا و٥٢ ميلا من كربلا بقيادة مهران بن بهرام ، وانهم حشدوا لهم قوى كبيرة ، فزحف الى لقائهم على جارى عادته ليضربهم قبل ان يتموا تجمعهم ورتب جيشه وعبأه استعدادا للنضال والكفاح فلا يؤخذ على غرة

وقال عقبة بن ابى عقبة ـ وكان يقود جموع العرب المتنصرة من تغلب واياد وغيرها وقد اجتمعت فى عين التمر ـ لقائد الفرس : ان العرب اعرف بقتال العرب فدعنى وخالدا فانا له

ـ افعل ما بدالك

ـ اذن ساخرج للقائه واهاجمه قبل ان يهاجمنا

ـ لا مانع

وخرج عقبة بمن تبعه من جموع العرب للقاء خالد ولزم قائد الفرس مكانه انتظارا لنتيجة المعركة

ومكن انقسام جيش الفرس على هذا المنوال وتشتت قواهم خالدا من التغلب عليهم فلم يلبث ان انشب مخالبه فى جيش العرب واخذ قائدهم (عقبة) اسيرا . فرجع قومه الى عين التمر ينادون ويلا وثبورا فاخاف ذلك الفرس وامات القوة

---

(١) كانت من المدن المعروفة فى عهد المناذرة وهى على طريق القوافل بين الشام والعراق وقد دمرت الآن وعفت آثارها ويقال انها كانت بالقرب من ناحية شفاثا (من اعمال لواء كربلاء) وغربى الكوفة

الادبية فى صدورهم فغادر معظمهم الحصن وفى مقدمتهم قائدهم من دون ان ينتظروا وصول المسلمين وهكذا نال خالد فوزا كبيرا فى هـذا الميدان بسوء تصرف القائد الفارسى ، فلو استبقى قواه كلها ونظم صفوفه لاستطاع منازلة خالد وعرقلة حركاته العسكرية على الاقل

و بلغ خالد بعد ذلك عين التمر فضرب الحصار عليها ولم يلبث ان دخلها عنوة وقتل من فيها وسبى نساءها واهلها فسيطر بذلك على طريق القوافل الجنوبى بين العراق والشام وقضى على كل نفوذ للفرس فى هذه الناحية

٧

مصير حملة الشمال

لئن اغفل مؤرخو الاسلام العسكريون الكلام عن حملة عياض ولم يعنوا بتدوين اخبارها – والواقع انها لم تعمل عملا يذكر – فالمفهوم من امرها انها بعد ما غادرت المدينة و وصلت الى الجوف (دومة الجندل) فى طريقها الى شمالى العراق كما رجحنا ذلك من قبل وقفت فيه لقتال نصارى العرب الذين تصدوا لها بالاتفاق مع اكيدر صاحب الجوف والظاهر انه نقض عهد المسلمين مع انه دخل فى طاعتهم على يد خالد فى اثناء غزوة تبوك كما سيأتى فى المجلد الثانى

ولما تبين عياض عجزه عن شق طريق لحملته والتقدم الى شمالى العراق ولما كان خالد اقرب اليه من المدينة كتب اليه يستقدمه اليه فيشتركان فى العمل فوصله الكتاب وهو فى عين التمر . ولا يخفى ان هذه الفكرة خطرت فى بال خالد قبل ان تخطر فى بال عياض ولا ادل على ذلك من وصول رسول هذا اليه وهو فى طريقه للقائه

افتتاح الجوف واستسلام العرب

و واصل خالد زحفه الى دومة الجندل وكان عياض لايزال فى اطرافها وهو يطاول العرب انتظارا لوصول خالد فلما عرف قادة هؤلاء بوصوله اليهم اشار عليهم اكيدر صاحب الجوف بالاستسلام اليه ومصالحته على الشروط التى يقترحها لانه لا قبل لهم بمقاومته والوقوف فى وجهه وقال لهم مانصه « انا اعلم الناس بخالد لا احد أيمن طائرا منه ، ولا اصمد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم ابدا قلوا او كثروا الا انهزموا عنه فاطيعونى وصالحوا القوم » فضربوا بنصحه عرض الحائط ولم يستمعوا اليه فقال

لهم حينما رأى اصرارهم على القتال: «شأنكم وما تريدون» وانفصل عنهم برجاله وهكذا تفرقوا واختلفوا وانقسموا قبل ان يروا وجه خالد وقبل ان يصل اليهم . فتكرر فى الجوف ما وقع فى عين التمر

وواصل خالد تقدمه حتى بلغ الجوف فنزل عندها وكان فيها الجودى بن ربيعة ومن معه من رؤساء قبائل الاطراف (قبائل الشام لا قبائل الحجاز) التى انضمت اليه لقتال المسلمين بتحريض الروم واغرائهم ـ فهاجمهم واشتركت الحملتان فى قتال القوم وهزموهم ولم ينج منهم الا بنو كلب حلفاء بنى تميم فقد اجارهم عاصم بن عمرو التيمى وبهذا خضع الجوف للمسلمين وملكوه وبذلك صاروا يسيطرون على طريق القوافل الشمالى فى الصحراء

الحرب فى شمال العراق

قفل خالد الى الحيرة مع قوى عياض بن غنم ، بعد ما ادب بعض قبائل الشام وضربهم ضربة شديدة ، ولم يذهب الى فلسطين والاردن للاشتراك فى الاعمال العسكرية التى كانت تعمل فيها ، لانه تلقى وهو فى الجوف اخبارا بان الفرس يتجمعون لقتاله ويبعثون القوى لنزاله

وسير بعد وصوله الى الحيرة سريتين الاولى الى الخنافس ـ اسم لارض قرب الانبار كانت تقام فيه للعرب سوق ـ فاوقعت بمن كان فيها من رجال العدو وهزمتهم واحتلتها كما ارسل سرية اخرى الى الحصيد (موقع فى اطراف العراق من جهة الجزيرة) فهزمت العدو واحتلته

وقصد خالد بعد ذلك المصيخ فى شمالى العراق (مجهول الآن) فدارت بينه وبين الفرس معارك انضم فيها العرب من نصارى الشام الى العرب من نصارى العراق وقاتلوا

المسلمين جنبا الى جنب مع الفرس والروم وربما كانت هى المرة الوحيدة التى يتحد فيها الاعداء القدماء ويتعاونون فقد ادركوا ان انتصار المسلمين مؤذن بفناء الامبراطوريتين على السواء . وانتهت المعارك التى دارت فى هذا الميدان بانتصار المسلمين وهزيمة المتحالفين

٨
خالد فى ميدان الشام

وتلقى خالد بعد منصرفه من الشمال كتابا من ابى بكر يوجهه فيه الى قتال الروم فى الشام ومشاركة المسلمين فى نضالهم وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من ابى بكر الى خالد بن الوليد

سرحتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا واشجوا ، واياك ان تعود لمثل مافعلت [١] فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنك ابا سليمان النية والحظوة، فاتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك ان تدل بعمل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »

وغادر الحيرة على الفور مع عشرة آلاف مقاتل وهم نصف جيش العراق وذلك فى شهر صفر سنة ١٣ وسار سيرا حثيثا فادرك المسلمين وهم على وشك الدخول فى معركة اليرموك فقادهم وادارها بكفاءة نادرة ففاز فوزا مبينا وتم على يده فتح الشام كما تم فتح جنوبى العراق وقد فصلنا ذلك تفصيلا وافيا فى المجلد الثانى واسمه « حروب الاسلام والامبراطورية الرومية »

اعمال خليفة خالد

وخلفه على قيادة جند العراق المثنى بن ابى حارثة الشيبانى مع عشرة آلاف من

(١) قصد خالد مكة وهو منصرف من الفراض الى الحيرة فشهد الحج سنة ١٣ وادى الفريضة ثم عاد الى الحيرة من دون ان يستأذن ابا بكر فنهاه عن العودة لمثلها :

الجنود واتصل بهذا ان الفرس يجمعون الجيوش لقتاله وانهم حشدوا حشدا كبيرا فى بابل (قرب الحلة وشرقى الحيرة) فسار اليهم وقاتلهم وهزمهم وطاردهم حتى قرب المدائن ثم عاد الى الحيرة .

واتصل بالقائد الجديد ان الفرس يجمعون جموعا عظيمة ، وابطأت عليه اخبار ابى بكر فرأى ان يذهب بنفسه الى المدينـة للاجتماع به و بسط الحالة عـلى مسامعه والاتفاق معه على خطة ينفذها ـ و بين المدينـة والحيرة نحو ٩٥٠ كيلو مترا و يسلك الحاج العراقى هذه الطريق فى الوقت الحاضر فيسير من النجف قرب الحيرة الى المدينة بطريق حايل ـ فبلغ المدينة وابو بكر فى مرضه الاخير ، وكان قد استخلف فى الحيرة بشير بن الخفاجة

٩

ابو بكر يوصي بفتح فارس

قابل المثنى ابا بكر ووصف له الحالة والح بارسال قوى كبيرة لاتمام فتح فارس والقضاء على ملك الاكاسرة واقترح ان يستعان بمن اظهر توبته وندمه من اهل الردة ـ وكان ابو بكر امر قواد جيشه بان لا يستعينوا باحد منهم و بان لايجندوهم في صفوفهم ـ واقترح اقتراحات اخرى تدور كلها حول تعزيز الجيش العربي في العراق ، فقد كانت قوى المسلمين الكبرى محشودة يومئذ في الشام لمنازلة الروم وكانت خطة ابي بكر تقوم على اتخاذ خطة الهجوم في ميدان الشام (الميدان الشمالي) وانتزاعها من الروم نهائيا ثم الرجوع الى فارس وانجاز امرها وما كانوا يخشون منها بعد ما فتحوا جانبا كبيرا من بلادها وضربوا الفرس ضربات افقدتهم الرشد و زلزلتهم زلزالا شديدا

فلما سمع ابو بكر منه ما سمع ووعى اقتراحاته دعا بعمر بن الخطاب الخليفة العتيد ـ واوصاه بان يحشد القوى و يسيرها على الفور مع المثنى لقتال الفرس و بان يرجع خالدا ومن معه الى العراق متى تم فتح الشام وقال له مانصه :

« استمع ياعمر ما اقول لك ثم اعمل به : انى لارجو ان اموت من يومي هذا . فان انا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن امر دينكم و وصية ربكم . وقد رأيتني توفي رسول الله وما ضعفت، ولم يصب الخلق بمثله . و بالله لو اني انى عن امر الله اوامر رسول الله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا . وان فتح الله على امراء الشام فاردد اصحاب خالد الى العراق فانهم اهله وولاة امره وجنده واهل الضراوة بهم والجرأة عليهم »

١٠

عمر ينفذ وصية ابى بكر

ويكمل فتح العراق وايران

مات ابو بكر ليومه وخلفه فى امارة المؤمنين عمر بن الخطاب صاحبه ووزيره ومستشاره ، وما كاد ينتهى من دفنه حتى مبدأ بتنفيذ وصيته فانتدب المسلمين للجهاد ودعاهم الى التطوع فى قتال الفرس وبين لهم العاجل والآجل من فوائده ومما قاله فى خطبته وهى الاولى بعد بيعته بالخلافة قال :

« ايها المسلمون

« ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله الا بذلك . اين الكبراء المهاجرون عن موعود الله

« سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب ان يورثكموها فانه قال ليظهره على الدين كله والله مظهره ومعزه وناصره ، ومولى اهله مواريث الامم ، اين عباد الله الصالحون ؟ »

المثنى يخطب

وخطب فى هذا الاجتماع ايضا المثنى بن حارثة الشيبانى قائد جيش الحيرة فايد عمر فى دعوته وحض الناس على الخروج معه لقتال الفرس وهون امرهم ومما قاله :

« ايها المسلمون

« لا يعظمن عليكم امر الفرس فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق السواد ، وشاطرناهم ، ونلنا من قبلنا عليهم . ولها ان شاء الله ما بعدها »

قائد جديد لجيش العراق

وكان ابو عبيد بن مسعود الثقفى اول من لبى الدعوة وتطوع للجهاد فى جيش العـراق فولاه عمر القيادة العامة لهـذا الجيش بدلا من خالد لانه سـبق اخوانه من المهاجرين والانصار فى تلبية داعى الجهاد واوصاه الوصية الآتية : وهى اول وصية يوصى بها قائدا من قواده ـ قال :

«اسمع من اصحاب رسول الله واشركهم فى الامر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب والحرب لايصلحها الا الرجل المـكيث الذى يعرف الفرصة والـكف »

وسار ابو عبيد من حينه الى الحيرة مع الجند الذى جهزله وتشمر لحرب الفرس وكانوا قد احكموا امورهم ونظموا شؤونهم وحشدوا القوى الـكبرى لقتال العرب.

١١

عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى من بنى عدى بن كعب بن لؤى وامه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد الرسول ، وكانت اليه السفارة فى الجاهلية ، فكانت قريش تبعثه سفيرا اذا وقع بينهم و بين احد خلاف ، او نافرهم منافر ، او فاخرهم مفاخر

وكان فى ابتداء امره شديد الوطأة على الاسلام والمسلمين ، مقاوما لهم ، ثم اسلم فى السنة السادسة للبعثة ، فاعتز المسلمون به وهو المسلم الاربعون ، فقد سبقه ٣٩ رجلا وامراة الى الاسلام

وقص عمر خبر اسلامه على المنوال الآتى فقال :

« كنت من اشد الناس على رسول الله فبينما انا فى يوم شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة ، لقينى رجل من قريش فقال اين تذهب يا ابن الخطاب . انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الامر فى بيتك

ـ وما ذاك

ـ لقد اسلمت اختك (واسمها فاطمة وقد اسلمت مع زوجها سعيد بن زيد)

فرجعت مغضبا

وكان رسول الله يجمع الرجل والرجلين اذا اسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه و يصيبان من طعامه . وكان قد ضم الى زوج اختى رجلين فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟

ـ ابن الخطاب

فلما سمعوا صوتى ـ وكانوا جلوسا يقرؤن فى صحيفة معهم ـ تبادروا واختفوا ،

وبركوا اونسوا الصحيفة من ايديهم . وقامت المرأة ففتحت لى فقلت ياعــدوة نفسها بلغنى انك صبأت (اسلمت)

قال وارفع شيئا فى يدى فاضربها به فسال الدم فلما رأته بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد اسلمت

فدخلت وانا مغضب فجلست عــلى السرير فنظرت فاذا بكتاب فى ناحية البيت فقلت ماهذا الـكتاب اعطنيه

ـ لااعطيك ، لست من اهله . انت لاتغتسل من الجنابة ، ولا تتطهر وهــذا لايمسه الا المطهرون

ولم ازل بها حتى اعطتنيه فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ثم رجعت الى نفسى فاذا فيها « سبح لله ما فى السموات والارض وهو العزيز الحـكيم » ولما وصلت الى قوله « ان كـنتم مؤمنين » قلت اشهد ان لااله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فخرج القوم يتبادرون بالتـكبير استبشارا بمـا سمعوه منى وحمدوا الله عز وجل . ثم قالوا ابشر يا ابن الخطاب فان رسول الله دعا يوم الاثنين بقوله : اللهم اعز الاسلام باحد الرجلين : اما عمرو بن هشام واما عمر بن الخطاب ، وانا لنرجو ان تـكون دعوة رسول الله لك فابشر

ولما عرفوا منى الصدق سألتهم ان يخبرونى بمكان رسول الله فقالوا هو فى بيت فى اسفل الصفا وصفوه فخرجت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ، فما اجترأ احد منهم ان يفتح لما يعرفونه من شدتى عــلى رسول الله ولانهم لم يعلموا باسلامى

فقال رسول الله افتحوا له فان يرد الله به خــيرا يهده ، ففتحوا لى واخــذ رجلان بعضدى حتى دنوت منه فقال ارسلوه فارسلونى فجلست بين يديه فاخذ بجمع قميصى فجذبنى اليه ثم قال اسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده . فقلت اشهد ان لااله الا الله وانك رسول الله ، فـكبر المسلمون تـكبيرة سمعت بطرق مكة

وسماه الرسول الفاروق لانه فرق فى اسلامه بين الحق والباطل

بويع بالخلافة على اثر موت ابى بكر يوم ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣ وطعن يوم الاربعاء ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة ٢٤ ، طعنه ابو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وهو فارسى الاصل ، بسكين مسمومة ذات حدين فقال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام وكانت خلافته ١٠ سنين وخمسة اشهر و ٢١ يوما

١٢
استئناف القتال فى ميدان العراق

اعمال ابى عبيد العسكرية

لم تكن الضربة التي ضربها خالد الفرس – حينما كان فى ميدان العراق – قاتلة وليس بالسهل القضاء على دولة عظيمة كدولتهم ، لها من الموارد الكبرى والمصادر الكثيرة وسعة الاراضى ووفرة الجند وتنوع السلاح ما يجعلها فى مقدمة دول الشرق فقد قاتلت الروم، اعظم دول ذلك العصر سنين طويلة ونازلتهم فى معارك عديدة وكانت الحرب بينهما سجالا فيوما ينتصر هؤلاء و يوما هؤلاء ، وكان الفرس قد اكتسحوا بلاد الشام وتوغلوا فى الاناضول شمالا توغلهم فى مصر جنوبا

ولقد هزت انتصارات خالد وفتوحاته فى جنوبى العراق وشماليه وتشتيته شمل القوى العديدة التى ارسلت لقتاله ، الامبراطورية الفارسية هزا وزلزلتها زلزالا ، ونبهت عقلاء فارس الى الخطر الذى يهددهم وحفزتهم الى اتخاذ شتى التدابير لاتقاء الكارثة وتوشك ان تنقض على رؤوسهم فتقضى على ملكهم وتجعلهم تبعا للعرب بعد ما كان العرب تبعا لهم

وكان فى مقدمة التدابير التي دبروها انهم وحدوا صفوفهم فى الداخل واختاروا ازرميدخت بنت كسرى ابرويز ملكة لهم وبايعوها على السمع والطاعة والانقياد فاختارت رستم قائدا عاما للجيش الفارسى ومنحته سلطة واسعة واطلقت يده اطلاقا تاما فى قتال المسلمين وفى اتخاذ ما يراه لازما من التدابير فبدأ فحشد قوات عظيمة فى النمارق (وهو موضع قرب الكوفة نزله المسلمون فى اول ورودهم العراق) ولا يبعد

عن الحيرة اكثر من ١٥ كيلو مترا ومعنى ذلك انه جمع جموعه على مقربة من قاعدة المسلمين الحربية لتهديدهم فلا يسيرون اليه كما كان خالد يفعل مع جيوشهم الاخرى ولا يخرجون للقائه

واتصل رستم سرا بزعماء البلاد التى فتحها المسلمون وكاتبهم وحرضهم على الثورة والانتقاض فلقيت دعوته قبولا من بعض هؤلاء وكانوا يعتقدون انه لابد من رجوع الفرس وفوزهم على العرب فى النهاية فمالوا اليه ونصروه وأخذوا يتظاهرون ضد الفاتحين فتبلبل الموقف واضطرب

ولم يخف على قواد المسلمين امر عدوهم وما كانوا يجهلون تدابيره فى السر وما يعده من عدد ولا ادل على ذلك من رجوع خالد على جناح السرعة الى الحيرة بعد ما خاض معارك الجوف وانتصر فيها ثم سفر المثنى خليفته الى العاصمة واجتماعه بالخليفتين (الجديد والقديم) وابلاغه اياهما مايدبره الفرس وما يفعلونه والحاحه بطلب القوى والجند وارسال ابى عبيد ومن معه

ابو عبيد يهاجم الفرس

وصل ابو عبيد الى الحيرة ومعه المثنى و بعض الصحابة والجندوقد قدمواللجهاد فى سبيل الله فاقام فيها اياما درس فيها الحالة عن كثب واحاط بالموقف وعرف ما يحتاج الى معرفته من امر عدوه وارسل العيون فجاءته باخباره فقرر أن يبدأ العمل على الفور وان يكون مهاجما لا مدافعا ، وقد سار المسلمون على خطة الهجوم منذ نزولهم العراق فعادت عليهم باجزل الفوائد ، فجمع القوى والرجال وخرج اليهم فى النمارق فاشتبك الجيشان وكتب الفوز لابى عبيد فكان اول فوز احرزه فى هذا الميدان وكانت مقدمة طيبة شجعته على متابعة النضال و بعثته على الاستهانة بامر اعدائه وجموعهم

ويقول المؤرخون ان اعرابيا من ربيعة اسر جابان (قائد الفرس فى النمارق)

بعد انهزام جيشه قال له انكم معشر العرب اهل وفاء فهل لك ان تؤمنني ؟

ـــ نعم

ـــ خذني الى ملككم حتى يكون ذلك بعلم منه

ـــ لا بأس

وقاد العربي قائد الفرس الى ابي عبيد واخبره بما وقع له معه وانه امنه فاجاره على اجارته

وحاول بعض رجال ربيعة ـ حينما علموا ان المؤمن هو قائد الفرس ان يحملوا ابا عبيد على نقض ما ابرمه وقالوا له انه الرئيس والزعيم وانه يجدر بهم الا يتركوه فأجابهم وماذا ترونى فاعلا به معاشر ربيعة

ـ تعيد النظر فى امره

ـ معاذ الله ان افعل ذلك . ايؤمنه صاحبكم واقتله ؟ كلا ! كلا ! مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

واطلق سراح القائد الفارسى

اول انتصار للفرس على المسلمين

وواصل ابو عبيد مطاردة الفرس وقد لجأوا الى خط الدفاع الثانى وكانوا اعدوه فى كسكر

وكان يقود جندهم فى هذا الخط المرزبان نرس ولديه قوة لايستهان بها اعدها رستم لتكون بمثابة احتياطى لجيش النمارق

والتقى ابو عبيد بنرس ومن معه فقاتلهم وهزمهم واستولى على معسكرهم فدان له جنوبى العراق ورأى سكان السواد ان كفة المسلمين هى الراجحة فسكنوا واستقروا

وامر رستم بتعبئة جيش جديد بقيادة بهمن جازويه ـ وهو قائد الجيش الفارسى الرابع الذى هزمه خالد بن الوليد فى اليس وسلبه راية الفرس الكبرى (درفش كابيان) ويقال ان طولها كان ١٢ مترا وعرضها خمسة امتار ونصف وانها

صنعت من جلد النمر ـ وامره بان يعجل فى لقاء المسلمين وقتالهم

وتجمع الجيش الفارسى الجديد فى البرج والعاقول وهما موضعان وقيل ديران على ضفة الفرات الغربية يبعدان عن بغداد نحو ٩٠ كيلو مترا ـ وكان المسلمون يومئذ على الضفة الشرقية

فسار ابو عبيد اليه حتى نزل المروحة (موضع على شاطئ الفرات الغربى قرب الكوفة بينهما مرحلتان) ومعنى ذلك ان الفرس عادوا فنقلوا ميدان القتال الى منطقة الحيرة ليبعدوا الخطر عن عاصمتهم وان بهمن جازويه (قائد الفرس الجديد) يحاول ان يكون مهاجما لا مدافعا فيشتغل العرب بالدفاع عن قاعدتهم فى الحيرة فلا يواصلون زحفهم نحو الشمال

وكتب بهمن الى ابى عبيد وكان نهر الفرات يفصل بينهما : الفرس على الضفة الغربية والعرب على الضفة الشرقية يسأله هل تعبرون الينا ام نعبر اليكم ؟ فجمع كبار قواده يسألهم رأيهم وهل يطلب الى الفرس ان يعبروا اليه ام يعبر اليهم هو ويباشر القتال ويكون البادئ فى الهجوم كما هى عادة المسلمين فى جميع حروبهم فأشاروا عليه بان يترك الفرس يعبرون اليه فعارضهم فى ذلك لانه ادرك ان الأخذ برأيهم خروج على تقاليد المسلمين العسكرية وأصر على ان يكون هو العابر ولما كان هو القائد الأعلى وله الكلمة العليا نفذت كلمته وتقرر ان يكون المسلمون هم العابرين . وعبروا بعد ذلك ودارت رحى القتال واشتبك الفريقان فى معركة عنيفة كان ابو عبيد نفسه من ضحاياها فاستشهد فى آخر النهار فاضطرب جيش المسلمين لفقده وارتد الى الجسر الذى اقامه فى الصباح ليعبر عليه فادركه رجل من ثقيف فكسره فازداد اضطراب المسلمين فأطمع ذلك الفرس فهجموا عليهم يقتلون ويضربون فرموا بانفسهم فى نهر الفرات . وتولى المثنى امر القيادة بعد مقتل ابى عبيد فصمد للفرس ثم اعاد الجسر فعبر عليه المسلمون وتجمعوا بعد ذلك فى

المروحة وهى على مرحلتين من الكوفة كما اسلفنا وقد فقد منهم فى تلك المعركة نحو اربعة آلاف بين قتيل وجريح وغريق وكانت نكبة شديدة نكبوا بها

وتلك هى المعركة الوحيدة التى انتصر فيها الفرس على العرب فى حروب العراق كلها بتصرف ابى عبيد واصراره على العبور خلافا لما اشار به اصحابه

١٣

عمر يعلن التعبئة العامة

ويعين قائدا عاما جديدا

عاد المثنى بمن بقى معه الى الحيرة وكتب الى عمر بما وقع وألح عليه بارسال النجدات والقوى فأمده بما كان عنده من رجال فعاد اليه نشاطه ، ولما علم بمسير بنى بجيلة اليه من الحجاز كتب اليهم بأن يقابلوه على نهر البويب (كان يأخذ من الفرات قرب الكوفة) وخرج للقاء الجيش الفارسى الجديد الذى سيره رستم بقيادة المرزبان مهران

ولما التقى الجمعان على نهر البويب ارسل قائد الفرس الى المثنى يخيره بين ان يعبر هو او يعبر المسلمون فأجابه بان يعبرهو ، وكان المثنى ممن شهد يوم المروحة ولم يك قد نسيه

وعبر الفرس النهر فتلقاهم المسلمون وكانوا قد نظموا صفوفهم واحكموا مواقعهم ودارت بين الفريقين معركة يقول الرواة انها أشد المعارك التى دارت فى حروب العراق هولا فقد استبسل فيها الفريقان وكانت الغلبة فيها للعرب . و بادر المثنى الى الجسر حينما بدأ الفرس بالفرار فكسره وقطع عليهم خط رجعتهم فرمى بعضهم بنفسه فى النهر وتفرق الآخرون شذر مذر . وقدرت خسارة الفرس فى هذه المعركة بعشرات الالوف وتعد من المعارك الكبرى وقد وطدت نفوذ المسلمين فى جنوبى العراق وعجلت بالقضاء على دولة الفرس

وهال اقطاب دولة المداين انكسار جيشهم وتشتت قواهم فكاتبوا المدن والامصار وعملوا بجد ونشاط عظيمين لحشد جيش جديد كبير ، كما بثوا الدعاة

والمبشرين بين سكان المدن والبلاد التى اخضعها المسلمون ليحملوهم على شق عصا الطاعة والانتقاض فيشغلوهم عنهم

وعرف المثنى ما يدسه الفرس فى السر والجهر فأبلغه الى الخليفة فى المدينة — فجاءه الجواب وكان قد بلغ ذى قار فى جنده سائرا نحو المداين ، يأمره بالانسحاب من بين ظهرانى الفرس والرجوع الى خط الحدود الاصلية والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلاد العرب ، فلا يؤخذ المسلمون على غرة ولا يهزموا ، وذلك ريثما ترد القوى الجديدة التى بدأ بحشدها ، فنفذ امره وجلاوا عن البلاد التى فتحوها وعادوا الى مناطق الحدود من دون حادث يذكر

وغنى عن البيان ان انسحاب المسلمين من هذه الاراضى لم يكن عن ضعف او وهن وانما هو تطبيق لخطة حربية جديدة اراد الخليفة تنفيذها على يد قائد جديد يختاره ، فقد عرف ان امر الفرس لاينتهى على يد بضعة آلاف من الجند يعملون فى منطقة صغيرة محدودة فأراد ان يرميهم بجيوش جرارة ولما كان جمع هذه الجيوش وتجهيزها وتسييرها ليس بالهين — وما كانت المواصلات فى ذلك العهد كما هى اليوم — فقد امر جنده المنتشر فى السواد بالتراجع الى حدود الصحراء فيكونون فى مأمن من الغارات ، وعلى قدم الاستعداد للاشتراك فى الحركات العسكرية الكبرى عند ما يأتى اوانها و يظل زمانها

التعبئة العامة عند المسلمين

و بدأ عمر ينفذ خطته الجديدة فأعلن التعبئة العامة فى بلاد العرب كلها وكتب الى عماله وموظفيه يقول لهم « لاتدعوا احدا لهسلاح او فرس او نجدة الا ارسلتموه الى بالعجل » فجاء الناس من جميع الاطراف ، ماعدا القبائل النازلة على الطريق بين الحيرة والمدينة فقد انضم من كانت منازله ادنى منها الى الحيرة لجيش المثنى اما الاقرب الى المدينة فقد اقبلوا اليها

وغادر عمر المدينة على رأس القوى الكبرى التى حشدها ، وقد كتم امر الغاية من

التعبئة الجديدة عن كل انسان ، ولما بلغ صدا وهو ماء شرقى المدينة ويبعد عنها ٥ كيلو مترات نزل ونادى الصلاة جامعة ، وتلك كانت عادة امراء المسلمين فى الصدر الاول فكانوا اذا ما ارادوا ابلاغ قومهم امرا نادوا الصلاة جامعة فيجتمع المسلمون فى المسجد فيخطبهم الخليفة او الامير ويقول لهم ما يريد ان يقوله ويناقشهم فى المشروع الذى اعتزم تنفيذه اذا كان هنالك مشروع فاما ان يقروه واما ان يعدلوه او يرفضوه ، وتلك هى الشورى الصحيحة.

واستشار عمر الناس بعد الصلاة فيما يفعل وابلغهم انه يرغب فى انجاز امر فارس، وسألهم رأيهم فى الزحف عليها ، وهل يقرون خطته ام لا . فقالوا له سر بنا اليهم ، فنحن على استعداد للقائهم فقال لهم استعدوا واعدوا، اى كونوا على اهبة

وارسل عمر بعد ختام الاجتماع ، فدعا وجوه الصحابة واهل الرأى ، ونسميهم الآن رجال الدولة واقطابها ، فدار البحث على الخطة الجديدة التى تتبع وهل يسير الخليفة بالذات لقتال الفرس ام ينتدب غيره فاتفقوا على ان يبقى فى المدينة يصرف الامور ويعبىء القوى وينتدب صحابيا فيوليه القيادة العليا فاذا وفق وفاز فهو المقصود والا انتدب غيره

وما كاد الاجتماع ينتهى حتى ارسل فدعا الناس الى الصلاة لابلاغهم ما اتفق عليه اهل الرأى وخطبهم خطبة بليغة حدد فيها العلاقات بين الخليفة والرعايا فقال :

« اما بعد ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام اهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد الواحد لايخلو منه شىء من شىء اصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا امرهم شورى بينهم و بين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه و رضوا به لزم الناس وكانوا له تبعا ، ومن قام بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ما رأوا له و رضوا به »

و بينما المسلمون فى شوراهم (برلمانهم) وصــل الى الخليفة كتاب من سعد بن ابى وقاص وكان عامله على صــدقات هوازن مع الف من اهــل النجدة اختــارهم لحرب الفرس فقال بعض المسلمين لعمر لقد وجدته

ـ من

ـ الاسد عاديا

ـ من هو

ـ سعد فابعث له

فأقر رأيهم واختاره للقيادة العامــة على حرب العراق وجهز له ثلاثة آلاف من اليمانيين علاوة على الف هوازن

١٤

سعد بن ابي وقاص

هو سعد بن ابى وقاص واسمه مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشى الزهرى ، وكنيته ابو اسحاق ، وامه حمنة بنت سفيان بن امية بن عبد شمس

كان رابع اربعة دخلوا فى الاسلام فقد اسلم على يد ابى بكر وعمره ١٧ سنة . وكانت صناعته برى النبال وقد روت عائشة ابنته حديث اسلامه كما سمعته منه قال :

« رأيت فى المنام قبل ان اسلم بثلاث كأنى فى ظلمة بحر لا ابصر شيئا اذ اضاء لى قمر فاتبعته ، فكأنى انظر الى من سبقنى الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى على ابن ابى طالب والى ابى بكر وكأنى اسألهم متى انتهيتم الى ههنا قالوا الساعة

« و بلغنى ان رسول ﷺ يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته فى شعب جياد وقد صلى العصر فاسلمت فما تقدمنى احد الا وهم اى تردد

« فلما اسلمت ـ وكنت رجلا برا بامى ـ قالت ياسعد ما هذا الدين الذى احدثت؟ تصد عن دينك اولا آكل ولا اشرب حتى اموت فتعير بى . فقلت لا تفعلى يا امت فانا لا ادع دينى

«ومكثت يوما وليلة لا تأكل فاصبحت وقد جهدت فقلت والله لوكانت لك الف نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشىء ، فلما رات ذلك اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

وسعد بن ابى وقاص اول من اراق دما فى سبيل الاسلام . و بيان ذلك ان

نفرا من قريش ، ظهروا للمسلمين ، وكانوا يصلون مستخفين فى شعب من شعاب مكة ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من قريش بلحى (فك) جمل فشجه ، فسال دمه فكان اول دم اريق فى سبيل الاسلام

وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، شهد مع النبي المشاهد كلها وقاد بعض السرايا ، وكان يحمل يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث ، وقيل انه رمى يوم احد الف سهم ، وجمع له الرسول اباه وامه يومئذ اذ قال له : ارم فداك ابى وامى، ارم ايها الغلام الحزور (القوى)

ولما استشار عمر بن الخطاب الصحابة فيمن يوليه قيادة الجيش الذى ارسل لحرب الفرس ، اشاروا عليه بسعد وقالوا انه الاسد عاديا ، فتسلم القيادة العامة وحارب الفرس فى القادسية فهزمهم واستولى على عاصمتهم

وامتاز سعد بصدق الرواية والحديث ، وكان يضن بالرواية خوف التحريف ، ولما نشب الخلاف بين على ومعاوية اعتزل السياسة (الفتنة) واقام فى منزله بالعقيق بالمدينة وامر بان لايخبروه بشىء حتى يجتمع الناس على امام . ومما يؤثر عنه قوله : ـ حينما جاءه نبأ مقتل عثمان بن عفان واشتداد الفتنة ـ ما بكيت فى الدهر الا ثلاثة ايام : يوم توفى رسول الله ﷺ ، ويوم قتل عثمان ، واليوم ابكى على الحق فعلى الحق السلام .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر قال له : السلام عليك ايها الملك فضحك معاوية وقال : ما كان عليك لو قلت يا امير المؤمنين ؟

ـ اتقولها جزلان ضاحكا ؟ والله ما احب انى وليتها بما وليتها به

ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال كفنونى فيها لانى لقيت المشركين يوم بدر وهى على وانما كنت اخبؤها لهذا . ومات سنة ٥٥ للهجرة . وكان ابن بضع وسبعين سنة ، وهو آخر العشرة الكرام . وترك ثروة حسنة قدرت بربع مليون درهم

١٥

فى طريق القادسية

استعداد العرب واستعداد الفرس

لما قلد عمر سعدا قيادة جيش العراق اوصاه الوصية الآتية قال :

« ياسعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فان الله عز وجل لايمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فان الله ليس بينه و بين احد نسب الا طاعته ، فالناس شريفهم و وضيعهم فى ذات الله سواء : الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية و يدركون ماعنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت النبي ﷺ منذ بعث الى ان فارقنا فالزمه فانه الامر

« هذه وصيتى اياك ان تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين »

ولما ازمع الرحيل جاء لوداع عمر فقال له :

« انى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فانك تقدم على امر شديد كريه لايخلص منه الا بالحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عدة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما اصابك او نابك تجمع لك خشية الله

« واعلم ان خشية الله تجتمع فى امرين : فى طاعته وفى اجتناب معصيته ، وانما اطاعه من اطاعه لبغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه لحب الدنيا و بغض الآخرة

« وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء ، منها السر ومنها العلانية . فاما العلانية فان يكون حامده وذامه فى الحق سواء . واما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على

لسانه و بمحبة الناس فلا تزهد فى التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وان الله اذا احب عبدا حببه واذا بغض عبدا بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى امرك »

وغادر سعد المدينة الى العراق يقود أربعة آلاف مقاتل ، ثلاثة آلاف من اهل اليمن والف من اهل الحجاز وفيهم عدد من السراة والزعماء والفرسان والصناديد ، امثال عمرو بن معدى كرب على مذحج ويزيد بن الحارث الصدائى و بشر بن عبد الله الهلالى ، وشيعهم عمر الى الا حوص فى شرقى المدينة ، وخطبهم ايضا خطبة امرهم فيها بالعدل والرحمة واللين ، وان ينهوا شؤونهم اليه وقال لهم :

«ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب ، فان القلوب ميتة فى صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئا فليعمل به . وان للعدل امارات وتباشير ، فاما الامارات : فالحياء والسخاء واللين . واما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل امر بابا ، و يسر لكل باب مقاما ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال ، والزهد اخذ الحق من كل احد قبله حق ، وتأدية الحق الى كل احد له حق . ولا تصانع فى ذلك احدا واكتف بما يكفيك من الكفاف ، فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شىء

«انى بينكم و بين الله وليس بينى و بينه احد، وان الله قد الزمنى برفع الدعاء عنه، فانهوا شكاتكم الينا ، فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متصنع »

تعليمات عسكرية

تلك هى وصايا عمر الادارية ومواعظه الدينية ونصائحه الحكيمة ، وقد اودعها ثلاث خطب خطبها فى ثلاث مناسبات . اما تعليماته العسكرية فهذا مجملها :

١ ـ امره بأن يقصد زرود (هى رمال بين القلبية والخزيمية على الطريق بين المدينة والكوفة وتبعد عن هذه نحو ٥٠ كيلو مترا) و ينزل فيها

٢ ـ وامره بان لايغادرها حتى تتلاحق به القوى ، وتتم التعبئة ويتلقى امرا بالزحف

نعى المثنى ووصيته

ونعى المثنى بن حارثة الشيبانى قائد الحيرة ، الى سعد بن ابى وقاص وهو فى زرود ، مات متأثرا من جراحه . ولما ادرك هذا انه لن يجتمع بالقائد الجديد كتب اليه كتابا ضمنه خلاصة ما وفق اليه من اختبارات فى حروبه الطويلة مع الفرس فيسترشد بها وينتفع ، وقال له :

« قاتل الفرس على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب وادنى مدر من ارض العجم ، فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وان تكن الاخرى فاءوا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم واجرأ على ارضهم الى ان يرد الكرة الله لهم »

الى شراف

وواصل سعد الزحف بجيوشه بعد ما اتم التعبئة، وقد ضمت نخبة رجال الاسلام وكبارهم وحشدفيها الخليفة كل ماالستطاع حشده من قوى،قاصدا القادسية فبلغ شراف فنزلها واخذ ينظم قواته استعدادا لخوض المعركة الفاصلة الكبرى

تعليمات عسكرية جديدة

وفى شراف تلقى تعليمات جديدة من عمر يأمره فيها بما يأتى :

١ ـ ان يعشر الناس اى ان يجعل على كل عشرة رئيسا يقودهم وينقادون اليه (ولا يزال هذا النظام متبعا حتى الآن فى الجيوش الحديثة ويسمون العشرة فى التركية « مانغه » وفى الاصطلاح العسكرى العربى (حظيرة) ورئيسها عريف ويسميه الترك « اون باشى » وترجمتها رئيس عشرة

٢ ـ ان يقسمهم الى كتائب تؤلف من العشرات.وهذا اساس فى تعبئة الجيوش ويسمونه فى الاصطلاح العسكرى الحديث « الجزء الاصغر » فى الجيش

٣ ـ ان يولى رؤساء المسلمين القيادة على الكتائب بعد تقسيمها وتعبئتها

وقال عمر لسعد فى تعليماته ـ و بعد ان يتم تنظيم الجيش على هذا المنوال و بعد ان يعرف كل جندى عريفه، وكل عريف قائده،وكل كتيبة رئيسها وتنتهى من التعبئة سير كتائبك وهى على اتم نظام، وواعدها الاجتماع فى القادسية؛ وقد اختارها عمر قاعدة لجيش المسلمين فى هذه المرحلة وهى على سيف البادية لا يفصل بينها و بين الصحراء فاصل و بينها و بين الحيرة بضعة كيلو مترات من جهة الشرق . وهذا نص كتابه :

« اما بعد فسر من شراف بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على امرك كله .واعلم انك تقدم على امة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة ، و بأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحور فيوضه ودآدئه الا ان توفقوا غيضا من فيض

« واذا لقيتم القوم او واحدا منهم فابدؤهم الشد والضرب ، وایاكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة وامرهم غير امركم الا ان تجادوهم

«واذا انتهيت الى القادسية ـ والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى اجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وانهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على انقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما

«ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فانهم اذا احسوك انغضتهم،رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم، وحدهم وجدهم، فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابداء الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وان تكن الاخرى كان الحجر فى ادباركم ، فانصرفتم من ادنى مدرة من ارضهم الى ادنى حجر من ارضكم ، وكنتم عليها اجرأ ، وبها اعلم ، وكانوا عنها اجبن ، وبها اجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة عليهم

استعداد الفرس

نشط الفرس فى خلال الفترة المتــدة بين ارتداد الجيش الاسـلامى الى حدود الصحراء وبين قدوم سـعد نشاطا عظيما فحشدوا كل ما استطاعوا حشده من قوى لانهم ادركوا انهم على ابواب معركة فاصلة فاما ان ينتصروا على المسلمين ويستردوا نفوذهم وكرامتهم ، واما ان يفوز العرب فتدور الدائرة عليهم ويندثر ملـكهم

ويقدر مؤرخو الاسلام الاقدمون القوى التى حشدها الفرس فى القادسية بمائة وعشرين الفا من الجند تولى قيادتها رستم اكبر قوادهم واعظم رجالهم ، فغادر المدائن الى الحيرة حينما جاءتهم الاخبار بمسير سعد من المدينة وباستعداد العرب

واستقر رستم فى الحيرة واتخذها مقرا له واقام مراكز على طول الطريق من الحيرة الى المدائن تنقل اخبار جيشه الى الملك يزدجرد بالتفصيل وتطلعه على الحوادث فى ابانها فلا يخفى عليه امرها، ولا يفوته شىء منها، وفعل المسلمون فعلهم ايضا فكانت الرسل تغـدو بين القادسية والمدينـة بلا انقطاع وكان سعد يطلع الخليفة على معظم ما يحدث له ولا يقطع فى الامور الجسام بدون استشارته واخذ موافقته مقدما . وما كان العرب يجهلون خطورة العمل الذى اقدموا عليــه وما يحيط بهم من مصاعب وعقبات ولذلك جمعوا كل ما استطاعوا جمعه من القوى واتخذوا شتى التدابير التى اعتقدوا انها تضمن لهم الفوز فى معركة عظيمة يتوقف عليها مستقبل دولتهم

وغادر رستم الحـيرة الى العقيق حينما علم بدنو المسلمين وعكف يعد المعـدات للمعركة الفاصلة

١٦

المسلمون يعملون لحقن الدم

مفاوضات المداين

لم يشأ العرب ان يحملوا تبعة اراقة الدم ، ولا ان يقدموا على اضرام نار حرب ضروس قبل ان ينذروا الفرس ويبشروهم ويدعوهم الى الدخول فى الاسلام اودفع الجزية والخضوع للدولةالعربيـة الجديدة عملا بخطتهم المأثورة وتنفيذا لاوامر الخليفة

وفد سعد الى كسرى

وعملا بتعليمات الخليفة [١] الف سعد وفدا من امراء جيشه وعيونه وهم النعمان ابن مقرن وبسر بن ابى رهم وحملة بن حوية الكنانى وحنظلة بن الربيع التميمى وفرات بن حيانالعجيلى وعدى بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب والاشعث بن قيس بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة ، فغادروا المعسكر الى المداين لمقابلة يزجرد ودعوته الى الاسلام لئلا يكون له حجة على المسلمين

ورأس الوفد النعمان بن مقرن ، واحسن الفرس استقباله حين وصوله الى

---

(١) هذا نص ما كتبه عمر الى سعد بهذا الشأن : « استعن بالله وتوكل عليه وابعث الى ملك الفرس رجالا من اهل المناظرة والجلد يدعونهم فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم »

عاصمتهم ، وقابله الملك يزجرد ، وهو محاط بوزرائه واقطاب دولته ، بعد ماعقد مجلسا اتفقوا فيه على الاجوبة التى يجيبون بها

وسأل يزجرد النعمان بواسطة الترجمان قائلا :

ـ ما الذى جاء بكم الى بلادنا وحملكم على مهاجمتنا ؟ الاجل اننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا وتجمعتم لقتالنا ؟

ـ ان الله رحمنا فارسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة الا وقار به منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة . ثم امر ان يبتدئ الى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فادخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعنا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم امرنا ان نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح، فان أبيتم فأمر من الشر هو اهون من آخر شر منه وهو الجزية تؤدوها لنا فان أبيتم فالمناجزة (الحرب) . وان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وقمنا ، على ان تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعنا كم والا قاتلنا كم

ـ انى لا اعرف على وجه الارض امة اسوأ حالا من العرب ولا اقل عددا منها وقد نوكل بكم قوى الضواحى فيكفوننا شأنكم . وانى انصحكم بالكف عن محاربة فارس ومنازلتها او الوقوف فى وجهها . واذا كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم واكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم

ورد المغيرة بن زرارة الاسدى عضو الوفد على كسرى فقال :

ايها الملك : ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم اشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ويعظم حقوق الاشراف الاشراف وتفخم الاشراف الاشراف وليس كل ماارسلوا لك به جمعوه لك ولا كل ماتكلمت به اجابوك عليه . وقد احسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبنى لاكون الذى ابلغك ويشهدون على ذلك

ان ما ذكرته من سوء حال العرب صحيح فما كان احد اسوأ منا حالا ، واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات واما المنازل فهى ظهر الارض . لانلبس الا ماغزلنا من اوبار الابل واشعار الغنم . ديننا ان يقتل بعضنا بعضا و يغير بعضنا على بعض وان كان احدنا ليدفن ابنته حية كراهية ان تأكل من طعامنا

نعم تلك كانت حالتنا حتى بعث الله فينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من ارضنا وحسبه خير من احسابنا و بيته اعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه خيرنا فى الحال التى كان فيها ، اصدقنا واحلمنا فدعانا الى امر فلم يجبه احد قبل ترب كان له؛ وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا و زاد ونقصنا فلم يقل شيئا الا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا و بين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله وما امرنا فهو امر الله

قال لنا ان ربكم يقول انى انا الله وحدى لا شريك لى كنت اذ لم يكن شيء وكل شيء هالك الا وجهى وانا خلقت كل شيء والى مصير كل شيء وان رحمتى ادركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها انجيكم بعد الموت من عذابى ولأحلكم دارى ، دار السلام . فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الحق. وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مماتمنعون عنه انفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم ادخلته جنتى ومن بقى منكم اعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر وان شئت فالسيف او تسلم فتنجى نفسك

كسرى يطرد الوفد

فاستاء الملك مما سمعه وقال : لولا ان الرسل لاتقتل لقتلتكم . وقطع

للفاوضات معهم وامر بان يوضع على عاتق اعظمهم حمل من تراب و يساق حتى يخرج من المداين وقال لهم :

لا كلام لكم عندى ، ارجعوا الى قائدكم وابلغوه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه و يدفنكم معه فى خندق القادسية وينكل بكم و به . ثم اعيدكم الى بلادكم حتى اشغلكم فى انفسكم

وغادر الوفد المداين بعد ما حمل عاصم بصفته اعظم رجال الوفد شأنا كيس التراب حتى آتى راحلته فحمله عليها وجاء به الى القادسية

١٧

مفاوضات جديدة بين سعد ورستم

لم تقترن مفاضات المـدائن بنتيجة وعاد الوفد العربى الى معسكر سـعد يقص ما حـدث ، ويعلن انه لم يبق مناص من الحرب ، بعـد ما رفض الفرس اقتراحات المسلمين وابو اجابة مطلب من مطالبهم .

واتصـل برستم ماجرى وعرف ان المفاوضات انقطعت وانه لابد من الحرب ، ويقال فى بعض الروايات انه كان فى المدائن حين وصول الوفد وانه شهد مقابلته ، ولما كان من القائلين بوجوب الاتفاق مع العرب وعقد صلح معهم على منوال يصون به كرامة امته ، فقد ارسل الى زهرة بن الحوية من سادات تميم وكان يعرفه من قبل ، فجاءه فاقترح عليه ان يتوسط لعقد صلح وقال له فيما قاله :

كنتم لنا اخوة وكنا نحن اليـكم ونحفظـكم فلماذا تغيرتم علينا الآن ؟

ـ ليس امرنا الآن كما كان فى السابق . انا لم نأتـكم لطلب الدنيا ، ان طلبتنا وهمنا الآخرة ، وقد كنا كما ذكـرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه ، فقال لرسوله انى سلطت هـذه الطائفة على من لم يدن بدينى فانا منتقم بهم منهم ، واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لايرغب عنه احد الا ذل ، ولا يعتصم به احد الا عز

ـ وما هو ؟

ـ اما عموده الذى لايصلح الا به فهو شهادة ان لا اله الا الله وان محمـدا رسول الله

ـ واى شىء ايضا

ـ اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله؛ والناس بنو آدم وحواء اخوه لاب وام

ـ ما احسن هذا . ثم قال رستم

ارأيت ان اجبت الى هـذا ومعى قومى كيف يكون امركم هل ترجعون الى بلادكم ؟

ـ اى والله نرجع الى بلادنا

ـ لقد صدقتنى

ـ نحن خير الناس

وانتهت هذه المقابلة على غير نتيجة مادية تذكر، بيد ان رستم احب ان يسمع كبار حاشيته من العرب ماسمعه هو فأرسل الى سعد يطلب اليه ان يبعث اليه رجـلا يكلمه و يباحثه. فأراد هذا ان يوفد اليه وفدا فاعترض احد رجاله وقال : متى نأتهم جميعا يروا انا احتفلنا بهم فلا نزدهم على رجل واحد فارسله اليهم

وارسل سـعد المعترض نفسه واسمه ربعى بن عامر فسار على فرسه حتى مخيم رستم فنزل ودخـل خيمته ودنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على البسط والنمارق

اقوال ربعى

ودعا رستم كبار رجاله لشهود هذه الجلسة وسأله بحضورهم عما جاء بهم فكرر اقوال الذين سبقوه وقال لهم لابد لـكم من اختيار واحدة من ثلاث فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب

ـ هل انت سيد قومك ؟

ـ كلا ولـكن المسلمين كالجسد الواحـد بعضهم من بعض يجيز اعلاهم على ادناهم

واستمهل رستم ربعيا ثلاثة ايام وصرفه الى اخوانه

حذيفة بن محصن عند رستم

وارسل رستم الى سعد فى الغداة يطلب اليه ايفاد ربعى فأرسل اليه حذيفة بن محصن فأقبل على فرسه حتى وقف امام المخيم فنزل فسأله لماذا لم يجىء ربعى

ـ ان اميرنا يحب ان يعدل بيننا فى الشدة والرخاء

ودارت بينهما « محادثات » كرر فيها هذا اقوال الذين سبقوه فصرفه رستم

المغيرة بن شعبة عند رستم

وعملا بطلب رستم ارسل سعد اليه المغيرة بن شعبة فجاءه حتى المخيم . ودخل على رستم وحوله هيئة اركان حربه وقواده فأقبل حتى جلس معه على سريره فوثب عليه الفرس وانزلوه عنه فقال لهم :

« قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا ارى اسفه منكم . انا معشر العرب لايستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم كما تتواسى، فكان احسن من الذى صنعتموه معي ان تخبرونى ان بعضكم ارباب بعض ، فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه احد. وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى ، اليوم علمت انكم مغلوبون، وان ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

اقوال الفردوسى فى الشاهنامة

ووصف الفردوسى فى الشاهنامة مادار من مفاوضات بين سعد ورستم فى القادسية وصفا لم نقف على مايشابهه فى ما اطلعنا عليه من اقوال مؤرخى العرب. فاقتبسناه زيادة فى الفائدة ولانه المصدر الفارسى الوحيد الذى عثرنا عليه قال :

«وارسل رستم من مقامه فى القادسية الى سعد كتابا كتبه على الحرير الابيض. وشحنه بالوعد والوعيد وجعل عنوانه من رستم بن هرمزد الى سعد بن ابى وقاص.

وافتتحه بحمد الله والثناء عليه ثم الدعاء ليزدجرد صاحب التاج والتخت ثم قال :
« اعلمنى أنت من دينك ، و رسمك وآيتك ، واخبرنى من سلطانك ، و بمن اعتضادك واعتصامك ، فقد جئت فى عسكر حفاة عراة بلا ثقل ولا رحل ، ولا فيل ، ولا تخت ، ثم بلغ بكم الامر من شربكم البان الابل ، واكلكم ضباب القيعان الى تمنى اسرة ملوك ايران ، فاقبل الى خدمة الملك حتى ترى من اذا تبسم وهب أثمان جميع رؤوس العرب ولاينقص ذلك كنزه شيئا وهو الذى على بابه من السباع الضوارى المعلمة والجوارح اثنا عشر الفا باطواق الذهب واقراطه ، وتزيد نفقاتهم لسنة واحدة على جميع حاصل بلاد العرب » واخذ فى كتابه يرفع امر العجم بالملابس والمفارش ، ويضع قدر العرب بالمطاعم والمكاسب ، ولا يعرف ان المجد وراء ذلك

ثم قال الفردوسى « وحمل فيروز بن سابور احد امراء رستم الكتاب الى سعد فى جماعة من اماثل الفرس ، فى الملابس الخسروانية ، والمناطق المرصعة ، والاسلحة المحلاة بالذهب فاستقبلهم واكرمهم ثم انزلهم فى منزله ، وطرح رداءه تحت فيروز ، واعتذر اليه عن رثاثة الملبوس والمبسوط وقال : انا قوم لا نعول الا على الصفاح والرماح ولا نقول بالديباج والحرير ، والمسك والعنبر ، ولا نفتخر بالمطعم والمشرب ثم سمع رسالته وقرأ كتابه . فكتب الجواب وافتتح الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على محمد خاتم الرسل والهادى الى اقوم السبل الذى هو خيرة الخلق ، والصادع بالحق ، النبى الهاشمى ، المبعوث الى الجنى والآدمى ، وشحنه بالوعد والوعيد ومواعظ القرآن المجيد ، وسائر ما يرجع بالتعظيم لله والتمجيد ، والتقديس والتوحيد ، و وصف الجنة ونعيمها وذكر بعض مافيها من الحور العين ، والماء المعين ، وشجرة طوبى ، وجنات الفردوس الاعلى ثم وصف السعير ، والعذاب والزمهرير ثم قال وان تبع ملككم هذا النبى الطاهر وزين بقبول رسالته الباطن والظاهر ، فملك الدارين له مسلم ، وهو على التاج والتخت مقرر محكم ، وكان رسول الله له شافعا مشفعا . ثم قال مابالة يستعظم هكذا امر تاجه وتخته و يعجب بسواره وطوقه ، و يزهى بماله وملابسه ، الا يعلم ان شعرة

واحدة من حورية خير من جميع ذلك ؟ ولم يربط قلبه بدنيا لا تساوى عنـد العاقل شربة ماء ، فان انتم اتبعتم الامر واسلمتم فالجنة مأواكم ، وان ابيتم وحاربتم فالجحيم مثواكم فاعلمونى بما عنه آراؤكم »

« وارسل سعد كتابه مع المغيرة بن شعبة فاقبل متقلدا سيفه حتى قرب من مخيم رستم فاعلم بوصوله ، فاحتفـل به وجلس فى سرادق وحضر عنـده ستون نفسا من اكابر ايران فى الاطواق والاقراط والمداسات الذهبية ، فاذن للرسول فى الدخول عليه فدخل حاملا سيفه وعليه ثوب ممزق الاذيال ، فما وطئ تلك البسط ولا داسها برجله ، بل سـار على التراب رهوا رهوا لا يلتفت الى احد حتى قرب من رستم فقال ان قبلت الدين فعليك السلام ، فعظمت تحيته على رستم فاعرض بوجهه وتلوى على نفسه . ثم تناول منـه الكتاب ، ولما قرأه قال ما اقول لسعد وشكايتى من طالع لى نحس ؟ ولـكن الموت تحت ظلال السيوف احب الى من حياة فى ذل ، ورد المغيرة وعزمه على القتال[١] »

---

(١) يجب ملاحظة ان هـذا الـكتاب منقول عن الفارسـية وانه لا اثر له فى كتب التاريخ العربية وغيرها ، وهو مما تفرد به الفردوسى ولعله تخيله فـكتبه

١٨

قبل المعركة

كانت زيارة المغيرة لخيم رستم ومحادثته له ، آخر محادثة دارت بين قواد العرب وقواد الفرس فقد رفض هؤلاء رفضا باتا قبول ماعرضه المسلمون من مقترحات فانقطعت بذلك المفاوضات السياسية ولم يبق امام الفريقين سوى السيف يحتكمان اليه بعد ما بذل قادة العرب جهدهم لحقن الدم واجتناب الحرب

وكانت الرسل فى خلال ذلك تغدو وتروح بين رستم والداين ، وكان يزدجرد يلح على قائد جيشه فى ان يسرع بالحملة على العرب وانجاز امرهم ، وان لايدع لهم وقتا طويلا، للاجتماع والاحتشاد، وكان هذا يطاول ويحاول، املا فى أن يصل الى حل سلمى معقول مع العرب يرضيهم ويحل مشكلتهم ، لانه كان يوجس خوفا من الإشتباك معهم كما كان يتشاءم من المصير الذى تصير اليه بلاده اذا هزم وفشل

رواية الفردوسى

ومما يؤيد ذلك مارواه الفردوسى فى الشاهنامة فقد ذكر ان رستم كان منجما وانه كتب قبل المعركة الفاصلة الى اخيه فرخ زاد كتابا مشحونا بالاسف والحزن ، يذكر فيه « انى نظرت فى اسرار الكواكب واستشففت استار العواقب فرأيت بيت ملك الساسانية خاليا ، ورسم سلطانهم عافيا ، واتفقت الشمس والقمر والزهرة فى طالع العرب ، فلن يروا سوى الخير والعلاء ، واما من جانبنا فقد صار الميزان خاليا فلسنا نرى غير العناء والشقاء ، ولقد امعنت النظر و بين ايدينا امر عظيم ، وخطب جسيم والاولى ان اؤثر السكوت وافوض الامر الى مالك الملك والملكوت

« والرسل تختلف بيننا و بينهم وهم يلتمسون ان نقاسمهم الارض فيكون لهم ماوراء الفرات (؟) ويكون لنا ما دونه وان نفتح لهم الطريق الى السوق يدخلون اليها ويتسوقون

« ثم انه يجرى كل يوم وقعة يهلك فيهــا خلق من الايرانيين والذين معى منهم قوم مغترون بشجاعتهم و رجولتهم و وفرة عددهم وعددهم ، ومستصغرون امر العدو القــادر ولا يدرون سر الفلك الدائر ، فاذا وقفت على كتابى هــذا فاجمع اموالك وخزائنك ، وخيلك ورجلك ، وانهض الى اذربيجان ، واعتصم بتلك البــلاد . واشرح لأمى حالى وسلها الدعاء ، فانى واصحابى فى عنــاء وتعب وهم واسف وانا اعلم انى لا اسلم بالآخرة من هذه الوقعة »

والمؤرخون الاســلاميون مجمعون تقريبا على تأييد رواية الفردوسى عن تشاءم رستم وعن رغبتــه فى الاتفاق مع المسلمين ، ويقولون انه سعى كثيرا لاقناع قومه بالتساهل معهم فابوا واصروا على الحرب، وما ذلك الا لانهم كانوا يستهينون بامر العرب ويرون ان فى امكانهم التغلب عليهم وطردهم بدون كبير صعوبة والظاهر ان رستم ما كان يشاطرهم هذا الرأى ولـكنه لم ير بدا من مجاراتهم ومسايرتهم فأقدم على خوض الحرب مكرها

الوفود والغاية من ارسالها

وعلى كل فان تعدد ارسال وفود المسلمين الى الفرس كان من التدابير الصائبة الحـكيمة التى ساعدت المسلمين على التفوق والفوز ، فقد تعرفوا امر عدوهم ودرسوا حالته النفسية وسبروا غوره واطلعوا على كثير من عوراته واسراره ، ولمعرفة هــذه الشؤون ــ فى حالة كتلك الحالة ، فوائد عظيمة لا يدركها الا الذين عانوا الحروب وخاضوها وقادوا الجيوش ونازلوا الاقيال

ولهذه الوفود مهمة اخرى فى نظرنا فقد كانت واسطة لنشر الدعوة الاســلامية بين خاصة الفرس وعامتهــم ، فاستقبال الملك لوفد العرب ومادار بينه و بينهم من

حوار ، لا بد ان ينتشر ويعم ، فيؤثر فى النفوس ويجعل الفرس يحسبون حساب العرب ويهابونهم ، ويقولون انهم لو لم يكونوا اقوياء و واثقين من فوزهم لما ركبوا هذا المركب ، ولما جاءوا يهددون ملكنا فى عقر داره ، وفى وسط قصره ، و بين رجال دولته، وقواد جيشه ، فتخور عزائمهم وتضعف قواهم الادبية ، وعلى هذه القوى المعول فى الحرب فهى من اعظم القوى وافضلها وما فاز العرب الا بها

ويجب ايضا ان تنوه بالموقف الخطير الذى وقفه المغيرة بن شعبة فى مجلس رستم والكلمات التى خاطبه بها وقد تضمنت طعنا شديدا فى نظام الفرس الاجتماعى فقد أثرت ولا شك فى نفوس رجاله الحاضرين فى الجلسة وانتشرت بواسطتهم بين العامة يضاف الى هذا ما كان يصف به رجال الوفود حين انقلابهم الى قومهم الفرس ، فقد كانوا يسهبون فى احاديثهم عن تخاذلهم وانقسامهم فيضرمون نار الحماسة فى الصدور ويهونون شأن العدو فيزيدون القوى الادبية فى صدور اخوانهم قوة وضراما

١٩
المعركة الكبرى

استنفد المسلمون الوسائل السلمية وحاولوا اجتناب الحرب وسفك الدم وحمل الفرس على التسليم باحد المطلبين المعروفين ، ولما لم تجد هذه الوسائل نفعا ، لم تبق سوى الحرب فتشمروا لها واستعدوا لخوض غمرتها

فاصدر سعد الاوامر الى قواد جيشه بان يكونوا على قدم الاستعداد للعمل ، وبان يرتبوا صفوفهم ويهيئوا زحوفهم ويضرموا الحماسة فى صدور الناس ، وكان فصحاء العرب وخطباؤهم فى الجيش يخطبون الناس ويحثونهم على الصبر والثبات ويبينون لهم اجر الجهاد فى سبيل الله وما اعده الله للمجاهدين من اجر عظيم وجزاء كبير . ولما انتظمت الصفوف وتمت التعبئة أذن المؤذن فصلى الناس صلاة الظهر وهم على تعبئتهم ، ولما انتهت الصلاة بدأ سعد تكبيراته بعد ما اتفق مع قواد جيشه على ان تكون الرابعة ايذانا بابتداء القتال (١)

وكبر التكبيرة الثالثة والانظار مشرئبة اليه والقلوب خافقة فبرز اهل النجدات فأنشبوا القتال مع الفرس وحمل المسلمون حملة عامة حينما كبر التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام

واستمر القتال من الظهر حتى انقضاء الهزيع الاول من الليل فوقفت رحاه وعاد الفريقان الى مضاربهم ويسمى العرب هذا اليوم يوم « ارماث » ويعترفون بان كفة الفرس رجحت فيه على كفتهم ، فقد اجفلت فى ابتداء القتال

---

(١) جاء فى بعض الروايات انه ارسل ينذر رستم انذارا نهائيا قبل المعركة طالبا التسليم فاجيب بالرفض

خيلهم من الفيلة التى كانت فى جيش هؤلاء فنفرت ولم يقو اصحابها على ردها فعاقتهم وعرقلت حركاتهم بيد ان الرماة من المسلمين سدوا جانبا من النقص اذ انصرفوا الى مطاردة ركاب الفيلة فقتلوا عددا منهم فشردت وعادت الى اماكنها فخفف ذلك عن خيالة المسلمين بعض ما كانوا يلقونه منها

واعمل المسلمون الفكرة حينما وقفت رحى القتال لابتكار طريقة تقيهم من اذى الفيلة وكانت كثيرة عند الفرس وكانوا يعتزون بها ويعولون عليها ويرون انها ستنيلهم النصر ، والظاهر انها المرة الاولى التى يلقون بها العرب فلم يسبق ان جاءوا بها ولعل اعتقادهم بانها المعركة الفاصلة حملهم على اقتيادها املا فى أن ينصروا بها لان العرب لم يألفوا لقاءها ولا حروبها كما ان الخيل بطبيعتها تنفر منها وتتجنب لقاءها والوقوف امامها

وجاء المسلمون بالابل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وانزلوها الى الميدان فى اليوم الثانى نخافتها الفيلة لانها لم تألفها ونفرت منها فلقى اصحابها عناء كبيرا منها واتقى المسلمون خطرها وشرها

وصول نجدات من الشام

وعملا بأوامر الخليفة عمر بن الخطاب غادر هشام بن عتبة بن ابى وقاص ميدان القتال فى الشام على رأس جند الحيرة الذى ارسل بأمر ابى بكر للاشتراك فى قتال الروم وعدده عشرة آلاف مقاتل ، ليكون عونا للمسلمين فى نضالهم ، فوصل الى القادسية فى يومها الثانى فاشتدت بوصوله عزائم المسلمين

ودارت رحى القتال عند الظهر وبعد مانقلوا الجرحى واسلموهم الى النساء للعناية بهم ودفنوا القتلى ، وادار سعد المعركة فى هذا اليوم كما ادارها امس من شرفة قصره ، فقد كان مصابا بدمامل فى جسمه لا يقوى معها على الركوب فكان يتمدد فى الشرفة ويطل منها على ميدان القتال ويصدر اوامره بأوراق صغيرة يلقيها الى خالد بن عرفطة

وكان الى جنب القائد العام فيبلغها هذا الى القواد للعمل بها ومعنى ذلك ان خالدا كان يقوم بوظيفة رئيس اركان الحرب لهذا الجيش العظيم

واستبسل المسلمون فى القتال هـذا اليوم استبسالهم امس وحملوا على الفرس حمـلة صادقة واشتدت عزائمهم بوصول اخوانهم من الشام وكان هؤلاء مملوئين حماسـة وغيرة واتقى المسلمون خطر الفيلة بالابل التى اعدوها ، وقد امتد القتال فى اليوم الثانى حـتى نصف الليل و يسمونه يوم اغواث لان الغوث جاءهم فيه من الشام . وافترق الجيشان وكفة المسلمين هى الراجحة فنشطهم ذلك وشدد عزائمهم فأيقنوا بقرب النصر والظفر واخذوا اهبتهم لليوم الثالث وهو يوم عماس

واستؤنف القتال ضحى الغـد وحمل العرب وهم يرجون ان ينهوا امر الفرس فى يومهم فقابلهم هؤلاء بحملة مثلها واستقتلوا ايضا لانهم ادركوا ان انهزامهم مؤذن بفنائهم . وظهر الرجحان فى كفة المسلمين من ابتداء النهار حينما تطوع اثنان من ارباب النجدات فصوبا رمحيهما الى عينى فيل فدخلا فيهما ففر وطرح سائسه فضربه احدهما بالسيف فوقع على الارض ثم نهض وما زال يجرى حتى وثب فى العتيق فتتابعت وراءه الفيلة ولم يقو اصحابهـا على ردها فأوقعت الذعر والاضطراب فى صفوف الفرس فأطمع ذلك العرب فاندفعوا فى الحملة عليهم واقبل الليل والمعركة دائرة بشدة لم يعهد لها مثيل وكلا الخصمين يلح فى القتال ويرجو الفوز والنصر واستمرت الليـل بطوله واصبح الصباح ولم يغمض لأحـد جفن ولم يسـترح ساعة . ويسمون هـذه الليلة ليلة الهدير

وقام الخطباء فى جيش المسلمين فى الصباح يحضونهم على الثبات ويقولون لهم ان بوارق النصر والفوز قد لاحت وانها ساعة ثم تنصرون فشددوا الحملة على جناحى الفرس وصـدقوا فى الهجوم فلم يطق رجالها صـبرا فتقهقرا عنـد الظهر وثبت القلب وكان فيـه رستم وعلى رأسـه راية فارس الكبرى فأصدر سعد امرا بأن تشـترك قوى المسلمين كلها فى الحملة عليـه فهجموا هجمة شـديدة فاضطرب جيش الفرس وزلزل . وقصـد اصحاب النجدات (الفدائيون) سرادق رستم فبلغوه فحاول الفرار

حينما شعر بوصولهم فلحق به هلال بن علفة فقبض عليه وقتله ثم صعد على سريره ونادى قائلا : « لقد قتلت رستم ورب الكعبة » فهلل المسلمون وكبروا واندفعوا فى حملتهم فولى الذين بقوا من الفرس فى الميدان الادبار وتهافت المقرنون بالسلاسل فى العتيق

وغنم ضرار بن الخطاب « درفش كابيان » راية الفرس فعوض منها ثلاثين الفا ونفل سعد سلب رستم لقاتله

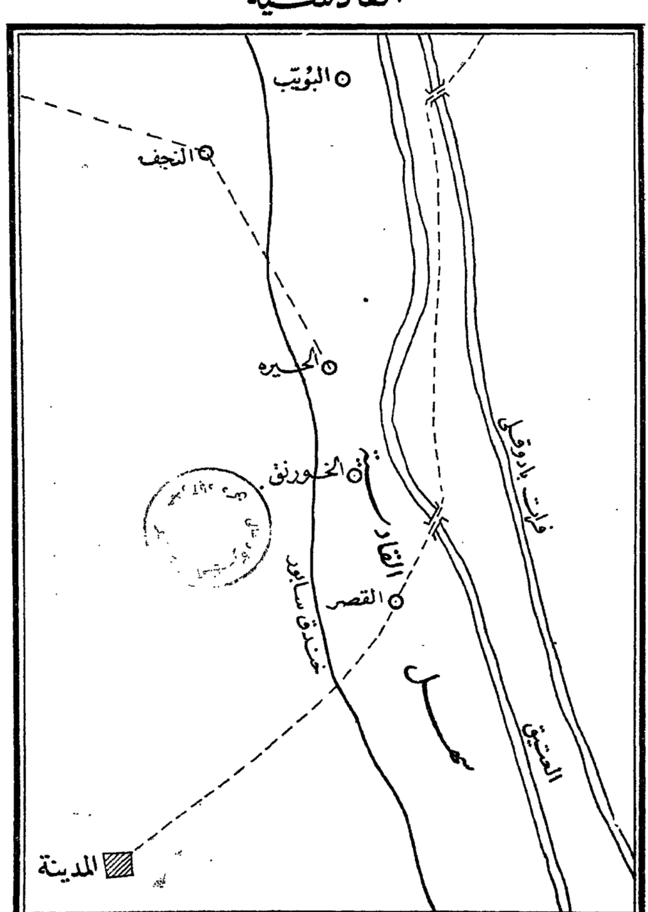
وانتدب سعد القعقاع وشرحبيل بن السمط وزهرة بن الحوية التميمى لمطاردة الفارين فأمعنوا فيهم قتلا واسرا واستأمن منهم كثيرون

وقدر قتلى المسلمين فى القادسية بسبعة آلاف وخمسمائة اما قتلى الفرس فأكثر وأعظم ، وغنم المسلمون غنائم عظيمة اقتسموها بينهم بعد ما استخرجوا لبيت المال نصيبه

المؤرخون والمعركة

وقد اجمع المؤرخون الاسلاميون على ان معارك القادسية وقد استمرت نحو ٦٠ ساعة منها ٣٠ بدون انقطاع ، كانت من اعظم المعارك التى شهدها المسلمون فى حروبهم ، سواء فى داخل الجزيرة ام فى خارجها ، فقد استقتل فيها الفرس وحاربوا حروب الابطال لانهم شعروا بما وراء الانكسار من ذل وهوان وحشدوا لها كل ما استطاعوا حشده من قوى ومعدات وجند وخيل وسلاح وفيلة ، وحفروا الخنادق وانشأوا الخطوط ، ومامعدات فارس ــ وهى الدولة العظيمة الكبيرة ــ بقليلة ، وخصوصا بالنسبة للعرب وما كانوا يملكون فى تلك الايام من العدات والوسائل المادية ما يكاد يذكر فى جانب قوى الفرس ، فضلا عن ان النسبة العددية لم تكن متعادلة ، فجيش رستم فى القادسية ما كان يقل عن مئة الف فى حين ان جيش سعد ما كان يزيد عن اربعين الفا على اكبر تقدير ٣٠ الفا منهم كانوا مع سعد وعشرة آلاف جاءوا من الشام

القادسية



البويب
النجف
الحيره
الخورنق
القصر
خندق سابور
فرات بادقلى
العتيق
المدينة

وصف الفردوسي لمعركة القادسية

ويصف الفردوسى معركة القادسية بالوصف الآتى :

« نشبت الحرب بين الفريقين ثلاثة ايام ، وثقلت على الايرانيين اسلحتهم حتى كادت تحترق اجسادهم تحت الدروع ، وتذوب افئدتهم بين احناء الضلوع ، وغلبهم العطش حتى عصبت اشداقهم ، وغارت احداقهم . و بلغ بهم و بدوابهم الامر ان اكلوا الطين والتراب المبلول ، فلما رأى رستم ذلك بارز سعدا فغلبه سعد وضربه على رأسه ضربة فشظت منه بيضته ، وانفلقت هامته فضربه ضربة ثانية نزلت من عاتقه الى صدره فهلك رستم . وانهزم الفرس فتبعهم المسلمون فقتلوا بعضهم ومات من العطش بعضهم »

هذا مارواه الفردوسى عن معركة القادسية وهو يختلف عما رواه مؤرخو العرب وعما اتفقت عليه جميع المصادر، فالكل مجمعون على ان سعدا كان طريح الفراش يوم القادسية بسبب دمامل فى اليته منعته عن الركوب وانه كان يدير حركة القتال من شرفة قصره ولاتقل هذه الرواية فى غرابتها عن روايته الاولى وهى ان المسلمين عرضوا بان يكون لهم الفرات وما وراءه وان يكون للفرس مادونه فالمسلمون ما جاءوا ايران للمساومة على اقتسام الاراضى وافتتاح الاسواق ، بل جاءوا لغير ذلك وفى كتاب سعد الى رستم واقوال وفد النعمان ليزدجرد ما يغنى عن الافاضة وما اردنا من نقل ما نقلناه عن الشاهنامة الا المقارنة بين اقوال المصادر العربية واقوال المصادر الايرانية وان لم تكن الشاهنامة من الكتب التى يعول على روايتها تاريخيا

٢٠

كيف ابلغ خبر الفوز الى المدينة

كان اهل المدينة ينتظرون بفارغ الصبر ورود اخبار القادسية و يتشوقون لمعرفة ما انتهى اليه امر الفرس ، وكان الخليفة يخرج كل يوم الى خارج العاصمة و يسير كيلو مترات على الطريق الشرقى يتنسم الاخبار ، و يسال الركبان و يقضى ساعات فى الانتظار لا يكاد يقر له قرار لانشغال فكره بما يدور فى القادسية من معارك يتوقف على نتائجها ، الى حد كبير استقرار الاسلام وثباته لا فى جزيرة العرب وحدها بل فى العالم كله

ولقى عمر رسول سعد الى العاصمة ، على الطريق خارج المدينة ، فسأله عن امر القادسية وعما لديه من اخبار المسلمين فقال له وهو مجد فى السير على ناقته انهم انتصروا ، ولم يقف لمحادثته لأنه كان يود الوصول الى المدينة مسرعا ليبلغ البشرى الى الخليفة و يسلمه رسالة سعد ، وما كان يدرى ان الذى يكلمه هو الخليفة نفسه . وكان قد خرج على جارى عادته فى ذلك الصباح يتنسم الاخبار وكان يومها فى قلق فكرى واضطراب نفسى ، فقد ازعجه انقطاع الاخبار وما كان لدى سعد ما يكتبه اليه فى اثناء الموقعة ، فلما اتم الله له النصر ارسل اليه رسولا وامره بان يعجل فى السير فالتقى به على المنوال الذى وصفناه ، ولم يك مع هذا احد من الخدم بل كان يسير لوحده كاحد عامة المسلمين

وجد الرسول بالسير على ناقته ، وعمر يجرى و راءه على رجليه ، وهو يكرر عليه الاسئلة و يسترّ يده ايضاحا عن القادسية وما جرى فيها وقد اطمأن قليلا بما سمعه منه حتى دخلا المدينة ومشيا فى الاسواق فسلم الناس على عمر بامارة المؤمنين فاستوقف ذلك نظر الرسول فالتفت اليه وقال له :

ـــ لماذا لم تعرفنى عافاك الله بنفسك وتقول لى انك امير المؤمنين فاسلمك الكتاب ؟

ـــ لا عليك يا اخى

ثم تناول الكتاب منه ، وكان الناس قد التفوا حولها واقبلوا من كل جانب لسماع اخبار جيشهم ففضه عمر وتلاه عليهم وهذا نصه :

« اما بعد فان الله نصرنا على اهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من اهل دينهم بعد قتال طويل و زلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلى طعون الآجام وفى الفجاج واصيب من المسلمين رجال (وهنا سرد اسماءهم)

ثم قال « واصيب غيرهم لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة اذ لم تكتب لهم »

وكان يوم وصول خبر الانتصار يوم سرور فى المدينة ففرح الناس وابتهجوا

٢١
فتح المداين

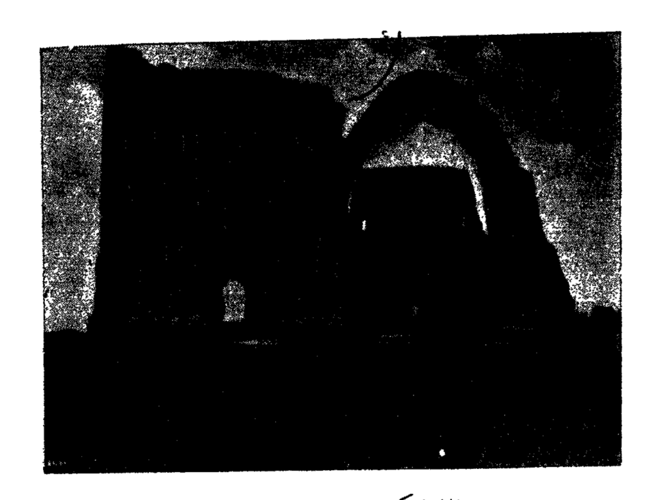
عكف سعد بعد انتصاره العظيم فى القادسية على تنظيم امور البلاد التى استسلمت اليه ودخلت فى طاعته ، فقد دان له سواد العراق غربه وجنوبه وشرقه ، ولجأ الفرس الى المداين[1] عاصمتهم واقاموا فيها يجمعون فلهم

ودارت فى خلال هذه المدة مكاتبات بين الخليفة والقائد العام لتقرير الخطة التى تتبع فى معاملة اهل السواد (فلاحى العراق) ولا سيما الذين نقضوا منهم عهد المسلمين ومالأوا الفرس فى حربهم الاخيرة وانتهت المكاتبات بصدور امر الخليفة بعد ما استشار رجال شوراه بالرجوع الى عهود المسلمين القديمة (عهود خالد بن الوليد) باعتبار ان اهل السواد بانضمامهم الى الفرس كانوا مجبرين وانذار الذين جلوا منهم فمن عاد الى ارضه واقام فيها فله الذمة وللمسلمين الجزية ومن لم يعد فأرضه غنيمة للمسلمين فعاد اكثرهم

وتلقى سعد — وهو فى القادسية امر عمر — بأن يزحف الى المداين وتبعد عن القادسية نحو ١٣٠ ميلا الى الشمال فزحف بعد شهرين من القادسية اى بعد

(١) ذكر مؤرخو العرب ان المداين سبع مدن لم يعد ياقوت سوى اسماء خمسة منها وهى : المدينة العتيقة (طيسفون) ومدينة اسبانير وهى اعظمها وتقع فى جنوبى المدينة الاولى وبقربها روميه ، وفى الضفة المقابلة بهرسير وهى محرفة عن كلة بهير اردشير وفى جنوبها مدينة ساباط كسرى وهى محرفة عن بلاسى اباد

ويقول ياقوت ان ايوان كسرى كان فى اقسام مدينة اسبانير وكان القصر الابيض من اقسام المدينة العتيقة



بقايا ايوان كسرى فى المداين (قرب بغداد)

ما ارتاح الناس من متاعبها واهوالها . وقاد الطلائع زهرة بن الحوية فالتقى فى برس « مكان بين القادسية والحلة » بقوات للفرس بقيادة الهرمزان وهو من كبار قوادهم ويعادل رستم فى الرتبة وكانت لهما الزعامة العسكرية فى ايام يزدجرد ، فهزمها فارتدوا الى بابل (شمالى الحلة)وتبعد عن القادسية نحو ٣٩ ميلا وكانوا قد اعدوا فيها خط دفاع وحصنوها فقصدهم سعد وهزمهم

وانقسمت فلول الفرس بعد معركة بابل فسار قسم منهم الى الاهواز اى انه اتجه نحو الجنوب وسار قسم آخر الى الشمال فلحق بالمداين وكان الملك فيها ، وسار القسم الثالث نحو الشرق فلجأ الى نهاوند .

ونزل سعد فى بابل وقضى فيها اياما ثم سير المقدمة الى المداين اذ لم يبق للفرس قوات فى هذا الميدان يحسب حسابها فوصل الى بهرسير وهى على ضفة دجلة اليمنى امام المداين العليا وتقوم غربى دجلة . ومعنى ذلك ان المسلمين ساروا فى تقدمهم الى المداين غربى دجلة

وخندق الفرس فى بهرسير (ساوقية) وكانت لديهم قوات كبيرة وتحصنوا فى داخلها فضرب سعد الحصار عليها ونزل حولها . ولما رأى الفرس انه لاقبل لهم بمقاومته عبروا الى الضفة الاخرى وقطعوا الجسر فاحتلها سعد بعد حصار دام شهرين واتخذها قاعدة له واخذ يعد المعدات للعبور من مخاضة دله عليها اهل البلاد . ولما تمت المعدات عبر الجند تحت حماية الرماة بدون عناء ولم يشعر سكان طيسفون الا وقد طلعت عليهم خيل المسلمين فذعروا واستسلم اكثرهم وانهزم الباقون

وكان الملك يزدجرد فى مقدمة الفارين فقصد حلوان (قرب قصر شيرين على الحدود بين العراق وايران فى الوقت الحاضر) وكانت مدينة كبيرة عامرة خربت فى بعض القرن الثامن ، مع رجال دولته واهله ، فدخل سعد المداين وقصد القصر الابيض (ايوان كسرى) ونزله وكان يتلو قوله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانوا فيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ وصلى فيه صلاة الفتح واتخذه مسجدا

رواية الفردوسي عن احتلال المدائن

وتختلف رواية الفردوسى عن رواية المصادر العربية ، فهو يقول ان المسلمين واصلوا الزحف بعد القادسية ليل نهار حتى وصلوا الى بغداد وكان فيها يزدجرد فغادرها الى خراسان وهذا ماقاله : وركب المسلمون صهوات النصر راكضين ليلا ونهارا فى عسكر كالسيل (الليل) حتى نزلوا بغداد (ولم تك بغداد قد بنيت فى تلك الايام) فعبر فرخ زاد اخو رستم المقتول دجلة وتبعته عساكر المدينة فلقيهم المسلمون فى الكرخ (دجلة الغربية) وجرت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفرس ، وجرح منهم خلق آخرون . فانصرف فرخ زاد ودخل على يزدجرد . وقال : « لا تقم بهذه المدينة فقد اصبحت هاهنا وحيدا وحواليك من العدو مائة الف فاخرج الى خراسان حتى تجتمع عليك العساكر هناك نخلا يزدجرد بأصحابه وفاوضهم فيما اشار به فرخ زاد فاستصوبوا رأيه فتردد فى ذلك ثم صمم العزم على السير وقال الاصوب ان نسير الى خراسان فان لنا فيها جماعة من المماليك واذا وصلت هنالك لامحالة يأتينا رسل الخاقان ، واكابر الصين فتجرى بيننا و بينه المصاهرة ونعتضد به ثم نشتغل بنكاية العدو وايضا فان صاحب مرو المسمى ماهوية يمدنا و يؤثر معاضدتنا ومظاهرتنا فانه كان من رعاة خيلنا

« ولما اصبح من الغد خرج من بغداد وأخذ فى طريق خراسان فتبعه اهل المدينة يبكون و يضجون ، فوقف ساعة و ودعهم ، وكان ذلك آخر عهده بهم ، وسار يواصل السير بالسرى الى ان وصل الى الرى فأقام بها اياما حتى استراح وأراح فارتحل منها وسار الى بست وكتب كتابا الى ماهوية يذكر له ماجرى عليه وعلى

عساكره فى قتال المسلمين ويقول له انى اذا وصلت الى نيسابور ولا اقيم فيها اكثر من اسبوع وساقدم مرو فأعد واستعد وطيّر بهذا الكتاب راكبا الى مرو وكتب ايضا الى والى طوس والى سائر ولاة البلاد المتاخمة لها يعلمهم بحاله ويأمرهم بالاجتماع والاحتشاد

٢٢

جلولاء

ولى عمر بن الخطاب سعدا المداين وما غلب عليه من ملك الا كاسرة وامره بأن يمضى فى قتالهم . وكان قوادهم وجنسدهم قد انتهوا الى جلولاء (قزلرباط فى الوقت الحاضر) وهى من اعمال لواء ديالي ـ شرقى بغداد ـ تبعد عن بغداد ٩٦ ميلا بسكة الحديد الى الشرق وتبعد عن جنوبى خانقين ١٤ ميلا على الطريق السلطانى (الجادة الكبرى) بين العراق وكرمنشاه وفارس وهى طريق القوافل فى القديم والحديث.

وقزلرباط او جلولاء على نهر يسمى باسمها ويتفرع عن ديالى وهى تقريبا فى منتهى السهل الممتد من شرقى المدائن حتى غربى سلسلة جبال حمرين آخر حدود العراق الشرقية فى الوقت الحاضر، واول حدود ايران . ومعنى ذلك ان قواد الفرس اختاروا للقتال فى المرحلة الجديدة اماكن تصلح للدفاع من الوجهة العسكرية فحشدوا قواهم فى سفح جبال حمرين.

ولا يخفى ان العرب كانوا من ابتداء هجومهم على الابلةحتى واقعة المذار فالحيرة فالقادسية فالمداين يقاتلون فى ارض سهلية لاجبال فيها ولا عوارض طبيعية مما سهل مهمتهم العسكرية كثيرا ، فانتقال ميدان القتال من السهل الى الجبل لا يخلو من صعوبة بالاجمال ، وكان الفرس يعلقون آمالا كبيرة على هذه الناحية لان العرب لم يألفوا الحرب فى الجبال

وكتب سعد الى عمر يخبره باحتشاد الفرس فى جلولاء وانشائهم الخنادق فأبلغه بان يجهز عليهم حملة بقيادة هشام بن عتبة وهو قائد النجدة التى جاءت من الشام يوم القادسية فغادر هذا المداين فى شهر صفر سنة ١٥ يقود اثنى عشر الف مقاتل حتى

بلغ جلولاء (قزلرباط) فحاصرها ، فصمدت حاميتها للمسلمين وقاتلتهم قتال المستميت وقضى المسلمون شهرين حولها وهم فى نضال عنيف فلم ينالوا منها منالا ولما طال عليهم المطال عقد امراؤهم جلسة عسكرية قرروا فيها القيام بهجوم عام واحتلالها بأية طريقة كانت . وعملا بما تقرر صدر الامر للجيش بان يكون على قدم الاستعداد للهجوم وعين القعقاع بن عمرو قائدا له ، فباشر القتال وحمل المسلمون حملة صاقة على الفرس فاقتحموا الخندق وغلبوا عليه ففر الفرس الى الجبال ، فتعقبهم القعقاع حتى حدود قصرشيرين الحالية لان اوامر عمر العسكرية الى سعد كانت تقضى بالوقوف عند حدود السهول الشرقية للعراق و بعدم الزحف فى الجبال ، وتعد هذه الجبال الفاصل الطبيعى بين العراق ذى السهول الفسيحة و بين غرب ايران و يؤثر عن عمر قوله فى هذا الصدد « وددت لو ان بين السواد (العراق) و بين الجبل (جبال حمرين) سدا لا يخلصون (اى الفرس) الينا ولا نخلص اليهم ، حسبنا من الريف السواد ، انى آثرت سلامة المسلمين على الانفال والغنائم »

٢٣

الاعمال العسكرية فى الشمال

علم سعد وهو فى مقامه بالمداين ان الفرس جمعوا قوات جديدة فى تكريت (بلدة معروفة فى العراق) وهى على ضفة دجلة اليمنى تبعد عن بغداد الحالية ١٠٩ اميال وعن شمالى المداين ١٢٩ ميلا وعن جنوبى الموصل ١٦٠ وكانت قلعة حصينة بناها الروم مدة تغلبهم على العراق على ماذكره جغرافيو العرب ، فسير عليهم حملة بقيادة عبد الله بن المعتم فتحصنوا فى القلعة ومعهم عدد كبير من عرب الديرة (اياد وتغلب والنمر) وتنزل فى ديار الجزيرة قرب تكريت ، فحاصروهم ودارت بين الفريقين ٢٤ معركة من دون جدوى ، واتصل عبد الله بن المعتم بزعماء العرب المحاربين فى جيش فارس واقنعهم بالانضمام اليه و وعدهم بالعفو والامان فمالوا اليه واتفق معهم على ان يحملوا على الفرس من ورائهم حينما يسمعون تكبير الجيش . ونفذ هؤلاء الخطة فكبروا حين كبر المسلمون فظن الفرس انهم هوجموا من الوراء فأقبلوا على ابواب الحصن للخروج فأخذتهم سيوف المسلمين وفتكت بهم واستولى هؤلاء على الحصن واقاموا فيه حامية منهم

وارسل سعد حملة ثالثة من المداين قادها ضرار بن الخطاب لفتح كورة ماسبذان (نرجح انها منطقة لواء كركوك فى الوقت الحاضر) وهى ايضا فى سفح جبل حمرين الى الشرق الشمالى من المداين فاحتلها . فكان ذلك خاتمة حروب الفرس فى العراق ، فقد ارتدوا بعد هذه المعارك الى الغرب وتحصنوا فى الجبال الفاصلة بين ايران والعراق (جبال حمرين) فانتهى بارتدادهم الدور الثانى من ادوار حروب الاسلام

والآمبراطورية الفارسية . وقد تم فى خلاله انتصار سعد على جيش فارس الاكبر فى القادسية واحتلال المداين والمناطق المجاورة لهـا فى الشرق والشمال والجنوب ، وبذلك اصبح المسلمون يسيطرون على العراق العربى كله ، ولا يستثنى منه سوى الموصل وقد فتحت بعد ذلك

٢٤

الاهواز

يظهر من سياق الحوادث ، ومما رواه المؤرخون ان ثغر الابلة – ويسمونه الآن جبلة بتشديد اللام ، وكان ثغرا عظيما للفرس فى زاوية الخليج الفارسى – عاد الى ايدى الفرس حينما جلا المسلمون عن الاماكن التى احتلوها فى جنوبى العراق ، استعدادا لمعركة القادسية الكبرى .

ولما تم للمسلمين النصر فى هذا الميدان ، وهزم الفرس ، وتقلص نفوذهم عن جنوبى العراق امر عمر سعدا ، وكان فى القادسية ، بان يسير قوة الى الابلة لاحتلالها ليحول دون وصول مدد للفرس من ناحيتها ، حفظا لخط رجعة الجيش من جهة الجنوب ، وكان الفرس فى الاهواز

وسار عتبة بن غزوان بجيشه حتى بلغ الابلة فاختط مدينة البصرة الحاضرة وانشأها وانزل فيها الجند والقوى ، وكان ذلك سنة ١٤ واتخذها المسلمون عاصمة لجندهم فى منطقة الاهواز والخليج الفارسى . ثم عادوا فى سنة ١٧ فأنشأوا الكوفة بأمر الخليفة عمر واتخذوها قاعدة لجيشهم فى منطقة الفرات ودجلة وهى على مسافة ٦٠ ميلا من الحيرة وقضت عليها تدريجيا

وكتب عتبة الى عمر بان الهرمزان وهو من كبار قادة الفرس وصنو رستم وكان ينزل الاهواز (مقاطعة خوزستان او عربستان الايرانيــة كما تسمى فى الوقت الحاضر وعاصمتها قصبة المحمرة الواقعة شرقى شط العرب) يغير من وقت الى آخر على البصرة و يزعج المسلمين و يستأذنه فى قتاله فأذن له وكتب الى سعد بأن يمده بجند من عنده فأمده واشترك مع جند البصرة ، وكان مستقلا عن جند الكوفة وما عرف العرب مبدأ (الوحدة الادارية) فى تاريخ حكمهم فكان لكل بلد من بلدانهم عامل

مستقل فى الغالب لا يتصل بعمال البلدان المجاورة بل يكاتب الخليفة مباشرة و يتلقى اوامره وتعليماته وكان الامير او العامل هو قائد الجند والحاكم السياسى وكان لهم فى العراق والجزيرة وخليج فارس بعد ماأتموا فتحها اربع وحدات ادارية

١ ــ الكوفة وكانت تشمل منطقة بغداد الحاضرة او منطقة دجلة و بعض مناطق الفرات

٢ ــ البصرة وكانت تشمل منطقة البصرة الحاضرة والاهواز

٣ ــ البحرين ومقرها فى البحرين وتشمل منطقة الخليج

٤ ــ الجزيرة وكانت تتبع عمل الكوفة فى اول الامر ثم انفصلت عنها

الهرمزان فى الميدان

وحمل عتبة بجنده وجند الكوفة على الفرس فلقوه بين مناذر ونهر تيرى فهزمهم حتى جاز شاطىء نهر دجيل الجنوبى فصار حدا بين المسلمين والفرس فى الجنوب وكان العرب يطلقون اسم نهر الدجيل على نهر الكارون

ثم صالح الهرمزان المسلمين على مقاطعة الاهواز كلها ما عدا ما أخذوه عنوة وكانت مناذر ونهر تيرى من بنادر البصرة . وتجدد الخلاف بين المسلمين والهرمزان فكتب عتبة الى الخليفة يستأذنه فى حربه فأذن له وارسل اليه النجدات فنازله عند جسر سوق الاهواز وهزمه فسار الى (رامهرمز) شرقى الاهواز واستولى المسلمون على معظم اجزاء هذه المقاطعة

وعاد الهرمزان بعد قليل الى حرب المسلمين فكتب عمر الى عتبة امير البصرة بأن يرسل اليه وفدا يتألف من عشرة ليحقق معهم فى البواعث التى تبعث الهرمزان على الثورة والانتفاض ــ لما تبادر الى ذهنه وهو انه لو لم يكن مظلوما لما ثار ولما لقى من الناس تأييدا وتعضيدا ــ فأرسل اليه الوفد فلما دخل عليه ، وجه الكلام الى الاحنف بن قيس « سيد بنى تميم » وكان فى الوفد وقال له اصدقنى القول هل ثار اهل الذمة لظلم نزل بهم ام لغير ذلك ؟

ـ لقد ثاروا لغير مظلمة والناس على ماتحب

ـ انصرفوا اذن الى رحالكم « اى عودوا على الفور ولا تتوقفوا »

فعاد الوفد وكتب عمر الى عتبة يقول له :

« اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم او بغى فانكم انما ادركتم بالله ماادركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم فيما اخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على امره يكن لكم عونا وناصرا »

واستأنف الهرمزان غاراته على المسلمين وعاد الى نقض عهدهم وأمده يزجرد بقوات كبيرة جندها من داخلية ايران ، فاجتمع الفرس فى عدد كبير فى الاهواز لقتال المسلمين ، و بلغ امير البصرة وهو يومئذ ابو موسى الاشعرى ما يعده هؤلاء فكتب الى عمر فأمر هذا سعدا بأن يرسل حملة قوية بقيادة النعمان بن مقرن كما كتب الى ابى موسى بأن يرسل جندا يقوده سهل بن عدى و ولى القيادة العليا لهذه الحملة ـ حملة جنوبى فارس ـ ابو سبرة بن ابى رهم

واتجه الجيشان ـ جيش البصرة وجيش الكوفة ـ الى الاهواز فالتقيا بالهرمزان فى رامهرمز وقد خرج بجموعه لقتالهم فنازلوه وهزموه فانسحب الى تستر فلحقه الكوفيون بقيادة النعمان وحاصروا تستر ثم وافاهم جند البصرة فاتحدا واستبسلا فى القتال ودارت بينهما ٨٠ معركة فى خلال شهر واحد فاز المسلمون فى ختامها واستولوا على تستر واستسلم الهرمزان اليهم مشترطا عليهم ان يفصل عمر فى امره

وارسل ابو سبرة قائد الحملة العام الى جنوبى فارس الهرمزان مع وفد من وجوه المسلمين الى المدينة فلما وصلوا اليها ودخلوا المسجد وجدوا عمر نائما على الارض ودرته « كرباجه » معلقة فى يده

وجلس رجال الوفد فى انتظار يقظته ، فسألهم الهرمزان وكان لايعرفه

ـ اين عمر ؟

ـ هذا هو النائم على الارض

ـ اين حرسه وحجابه وخدمه وحشمه ؟

ـ لاحرس ولا حجاب ولا خدم له ، بل هو الذى يخدم ارامل المسلمين وايتامهم

ـ يجب ان يكون نبيا

ـ ليس بنبي ولـكنه يعمل عمل الانبياء

واستيقظ عمر بعد ذلك فقدموا له الهرمزان قائلين انه ملك الاهواز فقال له :

ـ كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة امر الله

ـ كنا وايا كم فى الجاهلية وكان الله قد خـلى بيننا و بينـكم فغلبنا كم ، فلما كان معكم غلبتمونا

ـ انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

ثم قال له

ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد اخرى ؟

ـ اخاف ان تقتلنى قبل ان اخبرك

ـ لا تخف

ـ اريد ماء

فأمر عمر ان يؤتى له بمـاء فجاءوه به فى قدح غليظ فلما رآه قال لو مت عطشا لم اشرب منه

فأمر عمر ان يؤتى له بالماء فى غيره فجاءوا باناء يرضاه فادركته الرعشة وارتجفت يداه وقال اخاف ان اقتل وانا اشرب

ـ لابأس عليك حتى تشرب

وأ كفأ الهرمزان الماء على الارض حينما سمع كلة عمر ، فامر هذا بأن يؤتى له بالماء ثانية وقال لهم لا تجمعوا عليه بين الموت والعطش ، فأبى ان يشرب وقال لا حاجة لى به وانما اردت ان استأمن

ـ انى قاتلك

ـ لقد امنتنى

ـ كلا

وتدخل الحاضرون واشتركوا فى المناقشة ، وقال انس بن مالك وكان حاضرا

ـ لقد صدق ياامير المؤمنين فقد امنته

وايد هـذا الرأى الباقون وقالوا للخليفة لقد امنته حتى يشرب فضحك عمر حينئذ وقال للهرمزان :

ـ لقد اردت ان تخدعنى وانا والله لا انخـدع الا لمسلم فاسـلم فذلك خير لك ، فاسلم ففرض له مالا فى بيت المال وانزله فى جواره بالمدينة

عمر يبحث عن اسباب الانتقاض

واغتنم عمر وصول الاحنف بن قيس فى جمـلة الوفد الذى صحب الهرمزان الى المدينة وسأله عن اسباب انتقاض اهل الاهواز وكثرة الفتن بينهم فقال له :

« نهيتنا عن التوسع فى البـلاد وامرتنا بالاقتصار على مافى ايدينا ، وملـكهم لايزال حيا بين اظهرهم ، ولا يزالون يساجلوننـا مادام حيا بينهم ، ولم يجتمع ملـكان قط ولا بد لاحدهما ان يخرج صاحبه . وقد رأيت انا لم نأخذ شيئا بعد شيء الابانبعاثهم ، وملـكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنهاجمهم فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملـكته وعز امته »

٢٥
اصطخر

كانت البحرين فى مقدمة الاقطار التى خضعت للمسلمين فى خليج فارس ودخلت فى طاعتهم ، ومع ان بعض قبائلها ارتد ، فى ابان حركة الردة ، (انظر ص٢٣٦) الا ان العلاء بن الحضرمي مالبث ان قضى على هذه الحركة بمساعدة بعض قبائلها الاخرى وقبض على زمامها

ولما غزا المسلمون العراق ونالوا ما نالوه من نصر عظيم ، وافتتحوا المدن والعواصم ، اراد العلاء بن الحضرمى ، عامل البحرين ان يساهم فى الغزو ، وان يهاجم الفرس بحرا ، وذلك بان يسير من ضفة الخليج الغربية الى ضفته الشرقية ، وهى مأهولة بالفرس وكانت هنالك مقاطعة اصطخر ، فيحتلها و ينال فخر فتحها ، و يؤدى خدمة لوطنه وقومه

وحيث ان عمر ما كان يأذن لاحد بركوب البحر عملا بالقاعدة التى وضعها وهى انه لايريد ان يفصل بينه و بين المسلمين فاصل ، وحيث ان استأذانه فى غزو اصطخر بحرا معناه عدم الرغبة فى الغزو لانه سيجيب بالرفض فقد اعد العلاء قوة قالوا ان عددها بلغ ١٢ الف مقاتل وهيأ السفن اللازمة لنقلها ثم خرج بها للقتال من دون ان يحصل على تصريح من الخليفة بذلك

وصمد الفرس لاهل البحرين حينما جاءوهم وحالوا بينهم و بين الرجوع الى سفنهم فاستبسل العرب فى القتال وشقوا لهم طريقا فى اتجاه البصرة برا بعد ما استحال عليهم الرجوع الى مدينتهم بحرا فقطع الفرس خط رجعتهم وشددوا فى مضايقتهم

و وصلت الاخبار الى المدينة وعرف عمر بما فعله العلاء و بما اصاب المسلمين على

يده ففصله عن عمله فورا وامره بان يلحق بجيش سعد و ينضم اليه ، كما اصدر امرا
الى عتبة بن غزوان عامل البصرة بان يسير بالناس الى انقاذ اخوانهم فانتدب منهم
١٢ الف مقاتل ساروا بقيادة ابي سبرة بن ابي رهم فسلك طريق الساحل حتى
ادرك اهل البحرين فانقذهم وجاء بهم الى البصرة ومنها رجعوا الى مدينتهم .

٢٦

الجزيرة

يطلق العرب اسم الجزيرة على الجزء الشمالى من الاراضى الواقعة بين الفرات ودجلة ، وتسمى ايضا جزيرة اقور او اشور وكانت ربيعة فى العهد الفارسى ، تنزل جنوبيها وعاصمتها نصيبين ، وتنزلها اليوم قبيلة شمر ، كما كانت مضر تنزل فى غربيها ، وكانت ديارها تمتد على ضفة الفرات الغربية وكانت الرقة عاصمة لها

وكانت مقاطعة ديار بكر (تتبع تركيا فى الوقت الحاضر) تعد من مقاطعات الجزيرة وتقع فى القسم الاعلى بين دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة كلها خاضعة للساسانيين فى العراق وكانت تتصل بحدود الروم الشرقية (حدود سورية)

وكان لكل من الدولتين قوى عسكرية كبيرة فى هذه المنطقة ، منطقة الحدود فلما انتهى المسلمون من فتح جنوبى العراق ـ وكانوا لا يزالون فى حرب مع الروم فى الشام ـ امر عمر سعدا بان يجهز حملة لفتح الجزيرة وكان يرمى من ذلك الى غرضين : اولهما : التخفيف عن جيش المسلمين فى الشام وحمل الروم على ارسال قوى الى حدودهم الشرقية للدفاع عنها ، ثانيا ضم هذه البلاد العظيمة وهى مأهولة بعدد غير قليل من العرب الى المملكة الاسلامية والقضاء على البقية الباقية من النفوذ الفارسى فى شمالى العراق والاتصال بالشام فتتوحد اجزاء المملكة الاسلامية ويتصل العراق بالشام و بالحجاز اتصالا مباشرا

وعملا باوامر الخليفة وتعليماته جهز جيش الكوفة ثلاث حملات لافتتاح الجزيرة : قاد الحملة الاولى سهيل بن عدى ووجهت لفتح الرقة (عاصمة مضر)

وقاد الحملة الثانية عبد الله بن عتبان ووجهت لفتح نصيبين (عاصمة ربيعة)

وقاد الحملة الثالثة عقبة بن الوليد ووجهت لاخضاع الاجزاء الاخرى

وعين عياض بن غنم وهو الذى انتدبه ابو بكر لغزو شمالى العراق يوم انتدب خالدا لغزو جنوبيه لجاء حتى الجوف وفيها التقى بالروم فاستنجد بخالد ثم انضم اليه (انظر ص٢٧٠) قائدا عاما لهذه القوى لخبرته فى شؤون هذه البلاد ، فقد سبق له ان جاسها

فوز عياض

وقصد عياض الرها (اورفة اليوم وهى من ممتلكات تركيا) فحاصرها فصالحه اهلها على الجزية وكان أكثرهم من النصارى ثم قصد حران وهى واقعة فى شمالى الرقة وفى جوارها ينبع نهر البلبخ من عدة عيون ووديان صغيرة فصالحه اهلها على الجزية ايضا ثم قصد نصيبين (وهى اليوم من ممتلكات تركيا)وتقع على حافة جبل طور عابدين الجنوبية وفيها منتهى سكة حديد بغداد وتبعد عن الموصل نحو ٩٦٠ ميلا ففتحها ثم فتح ديار بكر

وابى عرب الجزيرة الاشتباك فى حروب مع المسلمين لانهم ادركوا ان لاطاقة لهم بهم فاوغلوا فى ارض الروم . واخيرا و بعد مراسلات تم الاتفاق بينهم و بين السلطة الاسلامية على ان يعفوا من الخراج مقابل دفعهم الصدقات المفروضة مضاعفة لانهم بنفرون من ذكر كلة الخراج وعاد العرب الى بلدانهم وقاموا على زراعتها

وكان سعد قد وجه بعد افتتاحه المداين حملة بقيادة عمر بن مالك لافتتاح قرقيساء وكانت واقعة على ضفة الفرات الغربية فى شمالى ملتقى نهر الخابور بالفرات فافتتحها واقر اهلها على الجزية كما افتتح فى مسيره « هيت » وهى مدينة قديمة واقعة على ضفة الفرات اليمنى ولا تزال على حالها ، وهى فى شمالى الفلوجة وتبعد عنها ٥٦ ميلا

٢٧

اكتساح ايران

ظل النضال بين العرب والفرس حتى اواخر سنة ١٧ للهجرة مقتصرا على المنطقة الواقعة غربى جبل حمرين وجنوبيه وتشمل الاراضى العراقية العربية ومقاطعتى الاهواز واصطخر فى الجنوب وكان هنالك ثلاثة ميادين يتقاتل فيها الفريقان :

١ ـ ميدان الاهواز ـ البصرة (الميدان الجنوبى)
٢ ـ ميدان المداين ـ جبال حمرين (الميدان الشرقى)
٣ ـ ميدان الجزيرة ـ ارمينية (الميدان الشمالى)

ولقد بسطنا فى ماتقدم رأى الخليفة عمر بن الخطاب فى قضية « التوسع » وقلنا انه كان يقول بوجوب الاكتفاء بالمنطقة الممتدة من سفح جبل حمرين الشرقية حتى الفرات وهى المنطقة السهلية العظيمة التى تقوم فيها دولة العراق الحاضرة ، وترك الايرانيين وشأنهم وراء الجبل اى فى شرقيه ، لانه الحد الطبيعى الفاصل بين هذين الاقليمين ، ومما يؤثر عنه قوله « وددت لو ان بين السواد والجبل سدا فلا يخلصون الينا (اى الفرس) ولا نخلص اليهم ، حسبنا من الريف السواد »

وكان الخليفة لاينى يصدر الاوامر الى قواد جيشه بالاقتصار على مابأيديهم وبعدم التوسع فى الفتح ويحظر عليهم الا يغال فى الجبال ، فلا يستهدفون للمخاطر فى بلاد جبلية وعرة ، لا يكادون يعرفون عنها شيئا ، بعكس العراق فقد كانوا يعرفونه لانه كان مثوى لكثير من القبائل العربية النازلة على الفرات وعلى دجلة وفى المنطقة الواسعة الممتدة بينهما

وعلم قادة الجيش الاسلامى فى « جلولاء » آخر الحدود العراقية الشرقية من

ناحية ايران ، بان يزجرد حشد قوات عظيمة لقتالهم ، وانه يستنفر الناس ويجمعهم من هنا وهنالك ، وانه يرجو ان ينتصر على العرب ويهزمهم ، فقالوا فى كتابهم الى سعد (القائد العام للمنطقة) بان قعود العرب عن مهاجمة هؤلاء قد لايخلو من اخطار وطلبوا منه ان يستصدر امرا من القيادة العليا بمنازلة الفرس وتمزيقهم قبل ان يستفحل شرهم ، وقبل ان ينتقض الناس على الحكم الجديد ، فقد ارسل هؤلاء رسلهم فى البلاد يغرون الناس بالانتقاض على الفاتحين ومقاومتهم ويعدونهم النصر والتأييد ، ويقولون لهم ان امر العرب صائر الى الزوال وانه يجب عليهم ان يعملوا لانقاذ وطنهم واحياء قوميتهم

ولم يشأ سعد ان يبت فى الامر بل كتب الى عمر يبسط الحالة ويستأذنه فى لقاء الفرس وقتالهم — ويقول المؤرخون ان القوة التى حشدها يزجرد ما كانت تقل عن ١٥٠ الف مقاتل — لانه ما كان يجهل ما قد يجره الايغال فى بلاد ايران ، وفتح ميدان جديد فى مناطق نائية ، واماكن قاصية ، من مخاطر يستهدف لها المسلمون ولم تك قواعد دولتهم الجديدة قد توطدت واستقرت

ودعا عمر مجلس شورى الصحابة الى الاجتماع فاجتمع فتكلم عن الموقف العسكرى فى شرقى العراق وذكر ان الجيش بلغ فى تقدمه سفح جبال حمرين ووقف عنده وقال ان يزجرد جمع جموعا غفيرة فى الجبل وانه يوشك ان ينقض على المسلمين بجيشه العظيم وسألهم ان يشيروا عليه بما يرونه : هل يأذن للجيش المرابط على الحدود الجديدة بان يهاجمهم ويطاردهم وراء الجبل ام يلزم خطة الدفاع ؟

وبعد ما تكلم بعضهم وابدى واعاد خطب عثمان بن عفان فاقترح على الخليفة ان يكتب الى اهل الشام فيسيروا من شامهم والى اهل اليمن فيسيروا من يمنهم قال : ثم تسير انت باهل هذين الحرمين (الحجاز) الى المصرين (الكوفة والبصرة) فتلقى جموع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك ومن عندك ، قل فى نفسك ماقد

تكاثر من عدد القوم وكنت اعز جندا واكثر نفرا . ثم قال :

يا امير المؤمنين :

انك لاتستبقى من نفسك بعد العرب باقية ! ولا تتمتع من الدنيا بعزيز ، ولا تكون منها بحريز ، ان هذا اليوم له مابعده من الايام ، فاشهد برأيك واعوانك ولا تغب عنه ـ اه

وتكلم على بن ابى طالب فاقترح اقتراحات عسكرية خطيرة الشأن نقض بها اقتراحات عثمان ومماقاله :

يا امير المؤمنين :

انك ان اشخصت اهل الشام (اى جيش الشام) من شامهم ، سارت الروم الى ذراريهم ، وان اشخصت اهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة الى ذراريهم ، انك وان اشخصت من اهل هذه الارض (الحجاز) انتقضت عليك الارض من اطرافها واقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك اهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات

اقرر هؤلاء فى امصارهم واكتب الى اهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق :

١ـ فلتقم فرقة لهم فى حرمهم وذراريهم

٢ ـ ولتقم فرقة فى اهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم

٣ ـ ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مددا لهم

ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا هذا امير العرب واصل العرب ، فكان هذا اشد لكلبهم ، وألبتهم على انفسهم

واما ماذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر

ورد عمر على اقوال الخطباء والمتكلمين فقال :

اجل والله : لئن شخصت من البلد (الحجاز) لتنتقضن على الارض من اطرافها واكنافها ، ولئن نظرت الى الاعاجم لايفارقن العرصة ، وليمدنهم من لم يمدهم ، وليقولن

هذا اصل العرب ، فاذ اقتطعتموه اقتطعتم اصل العرب فاشيروا على برجل اوله ذلك الثغر غدا واجعلوه عراقيا (اى من جيش العراق)

ـ انت افضل رأيا واحسن مقدرة وانت اعلم باهل العراق

ـ اما والله لاولين امرهم رجلا ليكونن لاول الاسنة اذا لقيها غدا

ـ من هو ياامير المؤمنين ؟

ـ النعمان بن مقرن المزنى

ـ هو لها

٢٨

جبال حمرين

طاردت جيوش سعد الفرس المنهزمين من المداين فأثخنت فيهم قتلا وجرحا ثم عادت الى قاعدتهـا الجديدة من دون ان تفكر فى الاستيلاء على المراكز المنيعة فى الشرق وتركتهم وشأنهم فجمعوا جموعهم فى جاولاء قزلرباط (انظر وصفها فى ص ٣٢٠) واستعدوا للغارة على العرب فوصلت اخبارهم الى سعد فارسل القوى لقتالهم فكانت معركة جاولاء الكبرى وقد انتهت بفشلهم وهزيمتهم فتسلقوا جبال حمرين وهى الجبال الفاصلة بين ايران والعراق فى الوقت الحاضر ، وان شئت فقل هى الحد الطبيعى بين بلاد العرب و بلاد ايران ، ورابطوا فيها واخذوا يجمعون جموعهم فى اواسط هذه الجبال ، ويهدد المرابط فيها السهول المؤدية الى بغداد لانها بحكم وضعها الطبيعى مشرفة عليها ، فلم ير قادة الجيش العربى بدا من السير اليهم واجلائهم عن الجبال ودفع الخطر المحدق بالمداين ، فاستأذنوا الخليفة فلم يأذن لهم الا بعد ماجمع مجلس شورى الصحابة ونال اجازته

وعملا بالاوامر الصادرة من المدينة ، تحرك جيش الكوفة من مقره ، فجاء الى المداين سالكا الطريق السلطانية القديمة المعروفة بينهما ومنها اتجه الى جاولاء (قزلرباط) ثم سار الى خانقين وتبعد عن بغداد ١١٢ ميلا الى الشرق وتقوم على نهر الوند و بينها و بين قصر شيرين «وهى اول حدود الدولة الفارسية البهلوية فى الوقت الحاضر» بضعة عشر كيلو مترا فصعد فى الجبال من دون مقاومة مواصلا السير على الطريق السلطانى « الجادة الكبرى بين بغداد وخراسان » حتى بلغ نهاوند فى قلب هذه الجبال ، وكان الفرس قد احتشدوا فيها وحصنوها ، فنزل امامها وضرب مخيمه حولها ، فكانت اول جبال يخترقها العرب فى زحفهم الى ايران

وجبال حمرين تتكون من رواب رملية ترابية وهى قاحلة فى الوقت الحاضر لا نبت فيها ولا ماء وهى سلسلة تحد منطقة جبال لورستان من الغرب ويبتدىء فرعها الشمالى من شمالى مندلى الغربى ويقطع نهر دياله – احد روافد دجلة فى شمالى بغداد – بين قزلرباط « جلولاء » ودلى عباس – مركز ناحية من لواء ديالى فى العراق وتقع على نهر الخالص الغربى – فى خط مواز من وادى نفط درة ويجتاز شط العظيم فى جوار دمير قبو فيستمر فى اتجاهه نحو الشمال الغربى وهنالك يجتاز دجلة ويتصل بجبل مكحول وينتهى بنهر الثرثار . ويؤلف فرع حمرين الشمالى . اما فرع جبل حمرين الجنوبى فيمتد من جنوبى مندلى ويقطع « آب شونكولا » فى شرقى بدرة وراء خط الحدود بين العراق وايران عبارة عن سلسلة جبال متوازية تمتد على اتجاه واحد من الغرب الى الشرق. وتؤلف جبال لورستان المنيعة ولاغابات فيها الآن

اما قصر شيرين وهى اول مدينة على الحدود الايرانية فى الوقت الحاضر ، فهى من المدن القديمة التاريخية وهى على نهر حلوان وقد سميت باسم القصر الذى بناه كسرى ابرويز لامرأته شيرين ، ولاتزال اطلاله قائمة فى شمال شرقى المدينة وكانت مدينة حلوان بقربها وقد خربت وبادت الآن

ويطلق الفرس على الجبل الواقع غربى قصر شيرين اسم « كوه باطاق » اى الجبل ذو الطاق وتقع نهاوند فى داخل هذا الجبل فى المنطقة الممتدة بين قصر شيرين وكرمنشاه والمسافة بينهما نحو ١٠٠ كيلو متر وفى هذه المنطقة ايضا خرائب الدينور . وتبعد همدان عن كرمنشاه وهى الى شرقيها نحو ١٥٠ كيلو مترا ومن همدان الى طهران الرى فخراسان

هذا وصف جغرافى موجز لحالة المنطقة الجبلية التى كان على الجيش العربى ان يعمل فى داخلها خلال المرحلة الجديدة . فقد كان عليه ان يصعد فى جبال حمرين ويجتاز مسافة واسعة لايقل طولها من الغرب الى الشرق – وكان جيش العرب يسير فى

هـذا الاتجاه اى من الغرب الى الشرق ـ نحو ١٠٠ كيلو متر ليبلغ نهاوند وهى معروفة الآن وقد ضعف شأنها فى هذه الايام وحلت محلها كرمنشاه فهى عاصمة هذا الاقليم ـ اقليم غربى ايران ـ وهو من اعظم اقاليم هذه المملكة الزراعية واعظمها شـأنا

الحملة تزحف

تقلد النعمان القيادة العامة للحملة الجديدة وانصرف الى اعـداد معدات المعركة الفاصلة التي تقرر ان يخوضها لتقرير مستقبل العراق وايران على السواء ، فقد كان انتصار العرب فيها مؤذنا بسقوط بلاد ايران فى ايديهم كما ان انتصار الفرس – لو تم – ينعش آمالهم ، ويجدد نشاطهم ، فيواصلون الزحف غربا لاسترداد ما فقدوه واضاعوه

وكان العرب يقدرون خطورة شأنها تقدير الفرس له ، وقد حشروا لها كل قواهم وجموعهم وقرروا بذل كل ما يستطيعونه للانتصار فيها

وارسل عمر بن الخطاب قوة جديدة من اهل الحجاز الى النعمان قادها المغيرة بن شعبة وتواردت عليه النجدات من كل جانب ، وحرص الذين لم يشهدوا القادسية ولم ينالوا فخر الاشتراك فيها على شهود نهاوند ولم تـكن دونها شأنا ، وكما مكنت تلك العرب من احتلال المداين والاستيلاء على العراق فقد مكنتهم هذه من الاستيلاء على ايران ، ولم تـكن المعارك التي دارت بعدها سوى معارك موضعية لاتذكر فى جانبها

طليحة الاسدى يقود المقدمة

ولما ازمع النعمان الزحف ، قدم على مقدمته طليحة الاسدى وامره ان يتقدم حتى نهاوند ليستطلع اخبار القوم ويرود الاماكن ، فقام هذا بمهمته على الوجه الاكمل وعاد يقول للنعمان انه ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه ، فليسر على بركة الله

وعبأ النعمان جنده ، ويقول بعض المؤرخين انه كان يتألف من ٣٠ الف مقاتل ، فجعل على الجناح الايمن حذيفة بن اليمان وعلى الجناح الايسر سويد بن مقرن ، وولى المقـدمة نعيم بن مقرن ، وولى المشاة القعقاع ، وقاد المؤخرة مجاشع بن مسعود ، وتولى هو قيادة القلب

المعركة الاولى

وواصل الجيش العربى مسيره فبلغ نهاوند من دون مقاومة ، وكان الفرس قد تحصنوا فيها ، فنزل حولهـا ، فخرجوا للقائه فدارت بينهم المعركة الاولى ، ولم تقترن بنتيجة

واستؤنف القتال فى الغـداة ، وظهر العرب فى اليوم الثانى على الفرس فلجأوا الى خنادقهم وحصونهم ، فأحاط العرب بها ، وضربوا نطاقا حولها

مجلس النعمان العسكرى

وطال الحصار وامتدت ايامه ، فعقد النعمان مجلسا عسـكريا حضره كبار قواد الجيش نذكر منهم حذيفة بن اليمان والمغيرة بن شعبة وعتبة بن عمرو وطليحة الاسدى و بشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وربعى بن عامر ونعيم بن مقرن وجرير بن عبد الله الحميرى والاقرع بن عبد الله الحميرى وجرير بن عبد الله البجلى والاشعث بن قيس الكندى ووائل بن حجر وغيرهم من اعيان العرب وكبار قوادهم وسألهم رأيهم فى الخطة التى يجرى عليها بعد ما طال امد الحصار ، و بعد ما امتنع القوم وراء حصونهم ؛ فعرضت اقتراحات شتى واشار كل واحد بما اعتقد انه الافضل ، وكان الرأى الذى اتفق الحاضرون على الاخـذ به وتنفيذه رأى طليحة الاسدى ، ومؤداه ان ينشب المسلمون معركة فى الغداة مع الفرس ثم يتظاهرون بالانكسار ويرتدون فيلحق الفرس بهم ، فيخرج عليهم فريق من العرب يكمن فى الليل ويأتيهم من ورائهم فيضعهم العرب بين نارين ، وينصرف فريق منهم الى نهاوند فيحتلها ويرفع راية العرب عليها

ونفـذ الجيش الخطة فى الغـداة فباشر القعقاع بن عمرو القتال ، وقاد النعمان بنفسه القوة التى كمنت للفرس ، وتراجع القعقاع امامهم متظاهرا بالهزيمـة فبرزوا اليه كأنهم جبال وقد تعاهـدوا ان لايفروا والقوا وراءهم حسك الحديد لئـلا ينهزموا

وما زال ينسحب حتى عرف انهم اصبحوا فى داخل الكمين ، فوقف امامهم وصعد لهم ، وانقض عليهم النعمان من الوراء بقواه بعد ما كبر ودعا لنفسه بالشهادة ، فكانت من اشد المعارك هولا ، وساح الدم حتى زلقت به الدواب وزلق فرس النعمان فى الدم خلال المعركة فسقط ومات ، وقيل انه قتل برمية سهم فتناول الراية نعيم بن مقرن ودفعها الى حذيفة بن اليمان ، وكتموا خبر موت القائد لئلا تضعف القوة الادبية فى الصدور واستمرت المعركة حتى الليل وانتهت بفوز العرب وتمزيق جيش الفرس ، وطاردهم العرب حتى همدان فاستولوا عليها ، واسر نعيم بن مقرن الفيرزان قائد جيش الفرس العام

فتح الفتوح

ويسمى العرب نصر نهاوند ، فتح الفتوح ، فقد ضمن لهم الاستيلاء على ايران وانالهم كنوز كسرى وتحفه

بشرى الفتح فى المدينة

ولما تم الفتح خرج طريف بن سهم اخو بنى ربيعة الى المدينة يحمل بشرى الانتصار ، وكان عمر على عادته يتنسم الاخبار ويسال الركبان ، فلما جاءه وبشره بالفتح سر ؛ وبكى ، حينما نعى اليه النعمان حتى اخضلت لحيته وترحم عليه . ثم قام الى المنبر فبشر المسلمين بما آتاهم الله من نصر

خضوع اهل الجبال

ولما تم فتح نهاوند خضعت همدان والمناطق المجاورة لها وقدمت الطاعة وقبلت ان تدفع الجزية فكتب حذيفة ــ وقد حل محل النعمان فى القيادة العامة ــ العهد الآتى الى اهل ماه دينار (الدينور) وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اعطى حذيفة بن اليمان اهـل ماه دينار ، اعطاهم الامان على انفسهم واموالهم واراضيهم ، لايغيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم و بين شرائعهم ، ولهم المنعة ما ادوا الجزية فى كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما ارشـدوا ابن السبيل واصلحوا الطرق ، واضافوا جنود المسلمين من مر بهم فأوى اليهم يوما وليلة ونصحوا ، فما غشوا و بدلوا فذمتنا منهم بريئة

شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب فى المحرم سنة ١٩ »

٣٠

فتح ايران

كانت معركة نهاوند ـ وكان العرب يسمونها فتح الفتوح ـ خاتمة الاعمال العسكرية العربية الكبرى فى ايران وكما فتحت معركة القادسية لهم الطريق الى المداين وجعلتهم يسيطرون على شطر الامبراطورية الفارسية الغربى ، فقد فتحت لهم معركة نهاوند الطريق الى نصفها الشرقى وسهلت لهم سبل الاستيلاء عليها واستصفائها

واستقر الجيش العربى فى نهاوند بعد افتتاحها واتخذها قاعدة له فى الدور الجديد ، وارسل قواه فحاصرت همدان وفتحتها كما فتحت ماه دينار (الدينور) وقد فتحها ابو موسى الاشعرى

واصدر عمر بن الخطاب التعليمات من المدينة الى قواده فى البصرة والكوفة بمتابعة الاعمال العسكرية فى ايران والقضاء على سلطة الحكومة الامبراطورية لانه تحقق ان لا استقرار فى ايران مادام يزدجرد فيها ، يثير الناس على العرب ويغريهم بهم ويؤلبهم على قتالهم . ولا بد لنا من الاعتراف بأن هذا الملك بذل الجهد وما فوقه لانقاذ بلاده ، والدفاع عن قومه ؛ ولئن خانه الحظ وسقط صريعا فى نهاية المعركة وخسر حياته كما خسر تاجه فالذنب ليس ذنبه ، وانما هى النواميس الطبيعية والاجتماعية قضت بما تم . والبقاء للافضل والاصلح فى هذا الوجود . وبذل الشعب الفارسى نفسه كما بذل الامبراطور ولم يحجم عن النضال وقاتل على كل شبر ارضا تقريبا من بلاده ، واستسلم اخيرا للاقدار وخضع للفاتحين

خطط العرب العسكرية فى هذه المرحلة

ويلوح للباحث فى خطط العرب العسكرية فى المرحلة الجديدة انهم زحفوا على ايران من ثلاث جهات :

١ ــ من الجنوب وقد باشر الاعمال العسكرية فى هذه المنطقة جيش البصرة ، فتقدم من الاهواز واصطخر لفتح جنوبى ايران

٢ ــ من الوسط وقد باشر الاعمال العسكرية فى هذه المنطقة جيش الكوفة اى جيش نهاوند ووجهته خراسان

٣ ــ من الشمال وقد تولى العمل فيها جيش الكوفة ايضا وكانت وجهته اذربيجان والايغال فى الزحف حتى ارمينية والقوقاس

وتقلد قيادة جيش الجنوب عبد الله بن عبد الله بن عتبان فسار من البصرة حتى اصبهان فاحتلها وصالح اهلها على الجزية وشهد ابو موسى الاشعرى (قائد جيش البصرة) هذا الفتح وتقلد نعيم بن مقرن قيادة جيش الوسط (نهاوند) فسار حتى خراسان وفتح فى طريقه قزوين

وتقلد قيادة جيش الشمال عتبة بن فرقد وبكر بن عبد الله وقد مشى اليها كل منهما من ناحية فسار الاول من الموصل وسلك طريق اربيل ــ راوندوز ــ رايات الحالى ، وهو ايضا من طرق المواصلات الكبرى ويبلغ طوله نحو ٢٦٨ ميلا ويتألف من المنطقتين الآتيتين :

١ ــ الموصل ــ اربيل والمسافة بينهما ٦٦ ميلا

٢ ــ اربيل ــ راوندوز ــ صاوجبولاق ــ تبريز (عاصمة اذربيجان) ومسافته ١٩٢ ميلا

ومشى الثانى من حلوان (منطقة قصر شيرين) الحاضرة قاصدا اذربيجان فسار الى الجنوب الشرقى حتى منطقة السليمانية فحلبجة فكرمنشاه ومنها اتجه الى اذربيجان موغلا فى قلب ايران ولقى هذان الجيشان مقاومة شديدة فأمر عمر نعيم بن

مقرن ان ينجدهما بسماك بن خرشة الانصارى فلحق بهما وتم لهم فتح اذربيجان وكتب لهم عمر كتاب الصلح

وانتشرت جيوش العرب فى كل ناحية من ايران تفتح وتخضع حتى بلغت بحر الخزر شمالا وحدود افغانستان شرقا وظلت تطارد يزدجرد وقواه حتى وصل الى بلخ ومات شريدا بعد ذلك سنة ٣٠ فى خلافة عثمان قتله رجال ماهوية حاكم خراسان كما يقول مؤلف الشاهنامة فى مرو ورموا بجثته فى النهر (نهر جيحون) وكان ذلك خاتمة امره كما كان فيه انقراض الدولة الساسانية وافول نجمها

وقوف حركة الفتح الاسلامى

و وقفت جيوش العرب الزاحفة فى خراسان وكان يقودها الاحنف بن قيس عند نهر جيحون وهو الحد الفاصل بين ايران وافغانستان كما وقفت فى الشمال عند جبال قفقاسيا ، وكان ذلك فى سنة ٢٢ للهجرة ، وابى عمر ان يأذن لقواده بعبور نهر جيحون والزحف على بلاد الترك والافغان ومنازلة الارمن وكانت لهؤلاء دولة فى الشمال وكان العرب بلغوا تفليس واحتلوها وامرهم بان يلزموا البلاد التى فتحوها و يعنوا بتنظيم امورها ، وغزيت غزوات وفتحت فتوحات فى عهد عثمان بن عفان سنعود الى تفصيلها فى مكانها

تلخيص وتعليق

ارخنا فى هذا الجزء خمس حوادث من تاريخ الاسلام السياسى وهى :

١ ـ نشأة الدولة الاسلامية

٢ ـ فتح الحجاز وجزيرة العرب

٣ ـ مشكلة اليهود

٤ ـ حرب الردة

٥ ـ فتح العراق وايران

وعملا بالطريقة التى سرنا عليها فى تدوين كتاب الثورة العربية الكبرى نريد ان نلخص هنا بايجاز تاريخ هذه الحوادث ونعلق على كل واحدة منها ونبدى ملاحظات قد يساعد ايرادها على فهم كثير من حقائق تاريخنا ويميط اللثام عن بعض خفاياه فنقول :

١ ـ نشأة الدولة الاسلامية

لم تنشأ الدولة الاسلامية العربية ، طبقا للاساليب التى تنشأ بها الدول فى عصرنا ، ويعنى علم الحقوق الاساسية بدرس تحولها وتطورها ، ونظمها واوضاعها ، ولم تتكون كما تكونت ، وربما كان هذا التباين فى النشأة بين الدولة العربية الاسلامية الأولى ـ وقد ولدت من ١٣٥٤ سنة ـ وبين دول العصر الحاضر ، هو مصدر ما بين الباحثين من خلاف على حقيقة وجودها السياسى ، فمنهم من ينكرها وهم اقلون . اما الاكثرية فتؤمن بقيامها وتقول بوجودها

والطرق المتبعة فى انشاء الدول وتكوينها مختلفة متباينة فى عصرنا الحاضر فاما أن تجتمع هيئة قانونية سياسية ، تمثل امة من الامم ، فتعلن استقلال الامة التى تمثلها وتأسيسها دولة تذكر اسمها واسم عاصمتها ، ثم تبلغ ذلك الى الدول فتعترف بها رسميا وتنشىء علاقات سياسية معها . واما ان تغير حكومة من الحكومات على قطر من الاقطار فتقتطعه من جسم الدولة التى كان خاضعا لها ثم تمنحه الحرية والاستقلال

فينشيء دولة خاصة به ويبلغ الدول خبر ظهورها فتعترف بها ، وقد حدث هذا فى خلال الحرب العظمى وفى ختامها ، فقد اعترفت دول الحلفاء بدول جديدة ظهرت فى اثناء تلك الحرب وهى دولة بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر وغيرها ، ويمكن القول بان معظم الدول الحديثة التى نشأت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ تكونت على هذا المنوال . واما ان يثور شعب على حكومة تحكمه ويحاربها وينفصل عنها فتعترف باستقلاله مرغمة كما فعل الحجاز فى ابان الحرب العظمى

وهنالك ايضا طرق واساليب اخرى فى نشأة الدول وتكونها يعرفها من درس القانون الدولى وعلم الحقوق الاساسية وليس هنا موضع التبسط فيها

وبديهى ان الدولة الاسلامية العربية الجديدة فى بلاد العرب ، لم تنشأ هذه النشأة ولم تتكون هذا التكون ، لان انشاءها لم يكن الغاية من الدعوة الاسلامية التى دعا اليها نبينا العظيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربى الهاشمى صلوات الله وسلامه عليه ، فهو لم يأت لتأسيس الدول ولا لفتح الممالك ولا للبسطة فى الملك ، كما اثبتنا ذلك فى متن الكتاب ، وانما جاء مبشرا ونذيرا ومرشدا وهاديا الى الناس كافة ، لا الى عنصر من العناصر او شعب من الشعوب ، والقرآن وكتب السنة مشحونة بالآيات والاحاديث التى تؤيد هذه النظرية تأييدا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فنشر الدين الاسلامى وتعميمه اذن هو الغرض الاصلى للحركة التى تحركها المسلمون فى ابتداء امرهم ، اما انشاء دولة خاصة بهم ، فقد جاء عرضا ولضرورة من الضرورات الاجتماعية ، ومعظم حوادث الكون هى فى الغالب وليدة هذه الضرورة مع العلم ان الدين لم ينفصل عن السياسة الا بعد النهضة الحديثة

لقد كان المسلمون فى مكة اقلية ضئيلة مجردة من كل حول وطول ، وعرضة لكل ظلم واضطهاد ، وكانت قريش تحول بينهم وبين ممارسة شعائرهم الدينية وتسعى لحملهم على الارتداد عن دينهم . وغنى عن البيان ان طائفة هذا شأنها ، لاتفكر فى تأسيس الدول والحكومات ، لانها ليست ذات كيان اجتماعى مستقل ، واقصى همها

ان ترد الهجمات الموجهة اليها ، وتحتفظ بكيانها فلا تذوب وتتلاشى

وتبدل الحال حينما نزل المسلمون المدينة ، فتمتعوا بقسط وافر من الحريات واخذوا يجهرون بآرائهم ومعتقداتهم الشخصية لايخافون عقابا ولا اضطهادا كما اخذوا يؤدون فروضهم الدينية فى مسجدهم الجديد ، ولم يتسن لهم مدة ثلاث عشرة سنة ان ينشئوا مسجدا مثله فى مكة ، وتلك هى الحرية الدينية ، وكانوا يجتمعون ويتناقشون فى الخطط التى يسيرون عليها لنشر دينهم ويعقدون العقود والمعاهدات مع القبائل المجاورة لهم وتلك هى الحرية السياسية . ولقد اتاح اجتماع هذه الحريات وتفاعلها نشوء حياة اجتماعية جديدة توفرت فيها الشروط والمزايا التى يشترطها علماء الاجتماع المعاصرون فى تكون الهيئات الاجتماعية وهى :

١ ــ وحدة المثل الاعلى
٢ ــ التجانس
٣ ــ التاريخ المشترك
٤ ــ اتحاد الذكريات
٥ ــ الاتحاد العنصرى

ولما كان لابد لكل هيأة اجتماعية مهما كان نوعها وشكلها وغرضها من حكومة تدير شؤونها وتنظم امورها ، وتدبر مصالحها ، وتصون مرافقها ، بدأت الدولة الاسلامية تظهر تدريجيا وتكونت بالفعل قبل ان تتكون بالقوة او قل انها نشأت عمليا قبل ان تنشأ نظريا ، وهو ما كان يحدث غالبا فى تكون معظم الدول فى القرون الاولى والوسطى

لقد صار المسلمون يؤلفون الاكثرية المطلقة فى المدينة وكانوا يتألفون من ثلاثة عناصر رئيسية :

١ ــ المهاجرون المكيون وكان عددهم فى ازدياد
٢ ــ الاوس
٣ ــ الخزرج

وكانوا جميعا يدينون بالطاعة لصاحب الرسالة الاسـلامية ، وينقّادون لأوامره ، ويرجعون اليه فى شؤونهم الخاصة والعامة ، ويتبعون اوامره ونواهيـه ، فينظر فى امورهم ، ويفصل فى قضاياهم وينصفهم فيطيعونه ، ويتبعون كل ما يصدره اليهم من الاوامر والتعليمات ، وتلك هى وظائف الحكومات فى كل عصر ودهر : تسوس الناس وتدبرهم ، وتضرب على يد الباغى وتؤدبه ، وتقيم الاحكام وتنفذها ، وتوزع العـدل وتنظمه ، وتسهر على المصالح العامة وتسيرها ، وهو ما كان النبى يباشره بالذات فى عهده ، وهو ما سار عليه خلفاؤه من بعده

فالدولة الاسـلامية نشأت وتكونت عمليا من اليوم الذى وصل فيـه النبى الى المدينـة ، وتسلم زمامها واصبح صاحب السلطان الاعلى فى ربوعها ، نعم ان المسلمين لقوا فى ابتداء امرهم معارضة من ابن ابى ، ومقاومة من اليهود ، ما لبثوا ان ذللوهما (المعارضة والمقاومة) وتغلبوا عليهما فتفردوا بالسيادة و بسطوا نفوذهم على شمالى الحجاز ثم اتبعوه بجنوبيه ، وكان النبى يعين عاملا (حاكما اداريا) من قبله على كل بلد يفتتحه اويدخل فى الاسـلام سلما كما فعل فى مكة وتيماء وعمان والبحرين واليمن ، وكان هؤلاء العمال يتلقون منـه التعليمات مباشرة وينفـذون اوامره ، ويقيمون احكام الاسـلام ، واى دليـل مادى يصح الاستشهاد به على ان النبى انشأ حكومة ثابتة اقوى من هذا الدليل ، ولا سيما متى ذكرنا ان القبائل فى الحجاز ما كانت فى حروبها وغزواتها تعنى بالاستيلاء على الاراضى ولا بافتتاح المدن ولا ببسط النفوذ ، بل كان اقصى همها السلب والنهب والحصول على المال ، ثم تعود بعد ذلك الى ديرتها الاصلية تاركة البلاد لاهلها . وقد تنزه الاسلام عن هذا وما كان المسلمون يمدون أيديهم بسوء الى القبائل التى تدخل فى دينهم ، بل كانوا يرحبون بها ويدمجونها فى جامعتهم وهيئتهم الجديدة ، اما القبائل اليهودية التى صالحتهم بعد ما حملوا عليها فقد اكتفوا منها بالجزية طبقا لما جاء فى دستورهم (القرآن)

٢ — فتح الحجاز وجزيرة العرب

ولقد اعتبرنا انتصار المسلمين فى بدر ـ وان لم يخرجوا فى الاصل ، للقاء قريش ولم يسعوا لقتالها ـ فاتحة الحروب التى انتهت باخضاع الحجاز ، ففى بدر ظهر المسلمون عسكريا ، وفى بدر أثبتوا انهم ذوو قوة ، وفى بدر تغلبوا على قريش وهزموها ، وكان عددها ضعف عددهم على اقل تقدير . كما كانت قواها المادية الاخرى تزيد على قواهم اضعافا مضاعفة . وبديهى ان الغنائم التى غنموها منها ، والسلاح الذى استولوا عليه ، واموال الفداء التى قبضوها ، ساعدتهم على توسيع نطاق جيشهم ، فازداد ونما فاخضعوا به الحجاز ثم جزيرة العرب ـ ولكن بالسلم لا بالحرب ، فقد خافت القبائل بأس جيشهم الجديد الموحد القيادة والغاية ، وحسبت حساب نشاطه وسرعته ، فاقبلت وفودها الى المدينة تعلن دخولها فى الاسلام وانتظامها فى الهيئة الاجتماعية الجديدة ، فاستقبلها المسلمون بالترحاب واستعانوا بها فى عملهم العظيم ، وهكذا كان عددهم ينمو بدون انقطاع ، وما دخل الاسلام قلبا وخرج منه

فطريقة «السلم المسلح» ـ وتسير عليها دول اوروبا فى عصرنا الحاضر ، متنافسة فى الاكثار من المعدات الحربية ، وبناء الاساطيل ، لاعتقادها انها انفى للحرب ـ هى الطريقة التى اتبعها المسلمون فى فتح جزيرة العرب فقد عملوا فى السنوات الاولى ، على استمالة القبائل وضمها اليهم ، وادخالها فى دائرتهم ، ولما كثر عددهم وازداد سوادهم اصبحوا بطبيعة الحال يؤلفون اكبر قوة فى داخل الجزيرة ، فهابتهم القبائل الاخرى والقت اليهم الزمام وجاءتهم طائعة مختارة لئلا يسيروا اليها او يحملوا عليها ، لانها شعرت بعجزها عن لقائهم ومقاومتهم، وهكذا فشا الاسلام فى الجزيرة ودانت به القبائل فافادها فى حاضرها ومستقبلها ، وانقذها من حالتى الفوضى والجهالة ، وضمن لها الاستقرار والهدوء ، فلا تفاخر فى الانساب ، ولا تعاظم بالآباء ، ولا غزوات ولا غارات ، ولا نهب ولا سلب ، فقد ابطل ذلك الاسلام والغاه ، واقام مقامه نظام حكم جديد مطابق لحالة البلاد الاجتماعية كما انشأ حكومة قوية بسطت نفوذها على بلاد العرب كلها

وارسلت عمالها وموظفيها فانتشروا وسيطروا يؤيدهم جيش قوى ، جنـده المسلمون كافة ، وقائده الاعلى الرسول وامراؤه الصحابة . ومعنى ذلك ان النبى لم يقتصر على نشر الدين واذاعة تعاليمه بل انشأ بالفعل دولة هـذه اركانها وعناصرها :

١ ـ دستور مسنون كامل حاو لجميع الاحكام « القرآن »

٢ ـ حكومة منظمة لهـا ديوان « سكرتارية » وجنـد وشرطة نشرت نفوذها فى الداخل وإنشأت صلات خارجية مع بعض الدول فى خارج الجزيرة واتصلت بعضها ببعض

٣ ـ جيش ينفذ دستورها واوامرها ، وقد كان المسلمون كافة جند هذا الجيش

٤ ـ موارد مالية ثابتة (اموال الصدقات والخراج والجزية) وقد جبا المسلمون الصـدقات فى عصر الرسول من القبائل كما جبوا الجزية من اليهود والنصارى الذين خضعوا فى شمالى الحجاز وفى اليمن

٥ ـ شعب يطيعها وينفذ اوامرها ويلتف حولها

٦ ـ وطن ثابت ذو وحدة جغرافية ؛ فقد خضعت جزيرة العرب لهذه الدولة ، ولم يكن لها حتى ختام العهد النبوى ، رعايا اجانب ، بل كان رعاياها من ابناء العرب انفسهم

وخـلاصة القول انه توفرت لهـذه الدولة جميع العناصر التى يشترط توفرها فى هذا العهد لقيام الدول وفى مقدمتها الوطن « الارض » والوحدة الجغرافية ؛ فقد قامت فى بلاد عربية ؛ والوحدة العنصرية ، فقد كان جميع رعاياها من العرب اى انها منهم واليهم ؛ والموارد المالية ، وقد ضمنها لهـا نظام الزكاة والصدقة والجزية ؛ ووحدة الغاية وسنستوفى البحث عن اوضاع هذه الدولة ونظمها فى الكتاب الثالث واسمه « نظام الحكم فى الدولة الاسلامية »

٣ ـ مشكلة اليهود

ومشكلة اليهود كانت من المشكلات الخطيرة التي واجهت المسلمين فى ابتداء ظهورهم ، وابان نشأتهم ، فقد ساء النازلين منهم فى المدينة وحولها ـ وكانوا يؤلفون قوة كبيرة قوية فى شمالى الحجاز ـ أن يعظم أمر المسلمين ، وان ينتشر نفوذهم ، وان ينتزعوا منهم السيادتين الاقتصادية والسياسية على بلاد الشمال ، فعكفوا على مقاومتهم سرا وعلنا ، املا بان يتغلبوا عليهم ، ويقضوا على نفوذهم

ولقد دل النضال الذى دار بين المسلمين واليهود على تفكك عرى الروابط الاجتماعية بين ابناء هذا العنصر ، وعلى ان شأنهم ما كان يختلف عن شأن القبائل الاخرى القاطنة فى بوادى الحجاز ، فقد انقسموا الى شيع واحزاب ضعفت بينها الروابط (الصلات) ولم يخف أمرهم على المسلمين فهاجموا قبائلهم الواحدة بعد الاخرى بادئين بالاصغر والاضعف ، فقضوا عليهم وسلبوهم ما كان لهم من نفوذ وسلطان ولذلك لم ير يهود خيبر وتيماء ووادى القرى بدا من الخضوع للمسلمين حينما هاجموهم بعد ما كانوا يتمتعون بنفوذ عظيم ، وبعد ما كانوا يقولون انهم الناس ، ورأى عمر بن الخطاب فى عهده ان مصلحة المسلمين السياسية والاجتماعية تقضى باجلاء البقية الباقية من هؤلاء فاجلوا مع النصارى ايضا ، فلم يبق فى الحجاز ، سوى الدين الجديد ، وبقيت فى اليمن والعراق والشام ولا سيما فى حوران وفلسطين طوائف كثيرة من النصارى واليهود اقرها الاسلام على دينها ، ولم يتعرض لها ، واكتفى منها بالجزية وكانت تسقط عن كل من يدخل فى الاسلام من افرادها

وطبيعى ان الغنائم التى غنمها المسلمون من يهود الحجاز ، والاسلحة التى صادروها منهم ، والاراضى التى وضعوا يدهم عليها ـ وكانت لليهود زراعة نامية حول يثرب وفى خيبر و بقية المناطق التى ينزلونها ، واطم منيعة كما كانت لهم تجارة واسعة ـ ساعدتهم فى عملهم العسكرى وفى توطيد بنيان دولتهم الجديدة ، وفى نشر نفوذهم ، فهابتهم القبائل الاخرى ، وكانت تحسب حساب اليهود ، وتظن ان المسلمين

لن يقدروا على اخضاعهم والاستيلاء على ارضهم وحصونهم ، فلما صار أمرهم الى ماصار اليه ، وتلاشت قواهم العسكرية والمادية كانت قريش فى مقدمة من خضع للمسلمين وانقاد اليهم . وقد كان فتح مكة بعد خيبر ؛ وتلا ذلك خضوع قبائل نجد واليمن وحضرموت ، ومعنى ذلك أن انتصار المسلمين فى خيبر وانجازهم امر اليهود اوقع الرعب فى قلب قريش ، وكانت تتوهم ان سفينة الاسلام لن تلبث ان تتحطم حين ارتطامها بحصون اليهود فلما هاجموا خيبر وفتحوها وعادوا سالمين ، اسقط فى يد قريش ولم يجد المسلمون كبير مقاومة حينما حملوا حملتهم الكبرى عليها فاستسلمت اليهم ودخلت فى طاعتهم ومن تحصيل الحاصل القول بان فتح مكة زاد فى نفوذ الاسلام زيادة عظيمة فهو فضلا عن فائدته الادبية ، ضمن للمسلمين تأييد قوة قريش عسكريا وماليا واقتصاديا فانحازت اليهم ، ووضعت فى مواردها تحت تصرفهم ، وشدت ازر الدولة الجديدة ، وقد كان مديروها وولاة امورها من ابنائها ورجالها وشجعانها ، لانها ادركت ان عزها فى عز هذه الدولة ، سيما ولم يبق ما يستوجب الخلاف والنزاع ، بعد ما ارتضت دين الاسلام ، ونبذت عبادة الاوثان ، واستقبلت حياة جديدة وعهدا جديدا كان ايمن من العهد القديم وابرك واجزل ، فقد انالها التفوق والسيادة لاعلى جنوبى الحجاز وحده ــ وما كان نفوذها المادى فى الجاهلية يتجاوزه ــ بل على الشرق كله فانقاد اليها ، وخضع لابنائها ، فحكموه وتولوا قياده مئات السنين

٤ ــ حرب الردة

ولئن تسنى للمسلمين حل مشكلة الخلافة بسهولة وبدون عناء وقد نشأت بسبب وفاة النبي فذلك لم يتيسر لهم فى مشكلة الردة ، والباحثون من المؤرخين متفقون على أنه كان لعزيمة ابى بكر ، وقوة ايمانه ويقينه اعظم تأثير فى اخمادها والقضاء عليها

لقد كانت فتنة الردة طعنة نجلاء وجهت الى قلب الدولة العربية الاسلامية ، وكان فوز دعاتها معناه الرجوع الى نظام الجاهلية واستعادة كل قبيلة من القبائل ما تفقده من استقلال داخلى بخضوعها للدولة الجديدة ، ورجوعها الى ما كانت

عليه قبل الاسلام حيث لم يكن سلطان فوق سلطانها ولانفوذ يعلو نفوذها

فالردة حركة سياسية وان اصطبغت بالصبغة الدينية فى الظاهر وقد وصفناها فى متن الكتاب بانها ثورة رجعية يراد بها القضاء على نظام الحكم الجديد والتخلص من الواجبات التى يقضى بها دستور الدولة الجديدة (القرآن) والعودة الى عهد الفوضى القديم

وقد تجلت الردة فى صور واشكال شتى ، ومعنى ذلك ان القبائل المرتدة لم تكن على وفاق بينها وان كلا منها كان يعمل منفردا مما سهل للمسلمين التغلب عليها واخضاعها ، ولولا ذلك لكانت المهمة اصعب واشق . ومما يستحق الذكر انه كان بين ابناء القبائل التى ارتدت اناس اقاموا على التمسك بدينهم واخلصوا له وانفصلوا عن المرتدين ولم يسبحوا فى تيارهم و بينهم ابناء عمومتهم ، وهذا نادر فى تاريخ القبائل ، وقد اعتادت ان تجعل العصبية فوق كل اعتبار فيشد ابن العم ازرا بن عمه ويخوض المنايا تأييدا له ، وهذه احدى نتائج رسوخ عقيدة الاسلام فى صدور هؤلاء الذين شذوا بقعودهم عن الفتنة حركة دعاتها بين قومهم ، وكانوا عونا للمسلمين كما كانوا عيونا لهم يطلعونهم على الجليل والحقير من أحوال قبائلهم

وكذلك يجب ان لا ننسى ما كان لادعاء النبوة من اثر فى اذكاء نار هذه الفتنة السياسية ، ومما يستوقف النظر بوجه خاص ، ان ثلاثة من ادعيائها هم من اهل نجد ، وكان الرابع يمانيا وقد ظهر وقتل والنبى فى قيد الحياة ، اى انه لاعلاقة لحركته بحركة الردة ، وخاض بعض انصاره فتنتها مع الخائضين يوم قام سوقها ، ولم يلق المسلمون كبير عناء فى القضاء على حركتهم واستئصال شأفتهم

وثمة اعتبار محلى خاص ، لا نشك فى انه أثر أثره فى بعض قبائل نجد ، وحملها على ان تقف من حكومة المدينة الموقف الذى وقفته ، فقد كبر عليها ان تظل خاضعة لحكومة ابى بكر القرشية ــ الانصارية ــ المضرية ــ وان تؤدى اليها الزكاة ، وهى لا ترى نفسها دونها فى القوة والعصبية ولذلك لم تتردد فى تأييد طليحة الاسدى ومسيلمة الحنفى ، حينما قاما يدعيان النبوة ، توهما منها ان النبوة هى الوسيلة الوحيدة لادراك

السيطرة والنفوذ ، املا بان تنال على يد هذين الدعيين ما نالته قريش على يد محمد ابن عبد الله ، وقد جهر بذلك احد اقطاب بنى حنيفة حينما صرح بانه وان كان لا يشك فى كذب مسيلمة وصدق محمد الا إن كذب هذا احب اليه من صدق ذلك لانه من ابناء قبيلته ؟ واستمات بنو اسد و بنو غطفان فى الدفاع عن قضية طليحة ، استماتة بنى حنيفة فى الدفاع عن قضية مسيلمة ، ولو اتفقت قوى هؤلاء وهؤلاء وانضم اليهم بنو تميم و وحدوا القيادة ، لما تسنى لجيوش ابى بكر اخضاعهم بسهولة سيما وهى لم تتغلب عليهم وهم متفرقون الا بعد عناء عظيم ، وقد وصفنا ما لقيه خالد يوم عقرباء وكيف ان الدائرة كادت ان تدور عليه ، وقد اعترف المؤرخون الاسلاميون بانه كان بين بنى حنيفة انفسهم من ثبت على الاسلام ، وكان عونا للسلمين فى نضالهم مع مسيلمة وانصاره . وما كان هؤلاء يقاتلون مع مسيلمة حبا فيه ، وانما كانوا يسعون للتخلص من سلطة المدينة ، وقد ظنوا ان موت النبى مؤذن بزوالها ، فلما استخلف ابو بكر ، وظهر ان المسلمين يعتزمون السير على سنته ، وتنفيذ ما جاء به من احكام قاموا وثاروا يريدون نقض هذا النظام والتخلص منه ، والرجوع الى ما كانوا عليه من نظم الجاهلية والتمتع بالاستقلال الداخلى المطلق ، وتلك هى « الرجعى » السياسية ، وهذا هو معناها فى الاصطلاح العصرى

فاذا قيل لنا ان هنالك قبائل ، لم تحاول الخروج على النظام كله ، وانها طلبت وضع الزكاة عنها ، اى اعفاءها من دفع الضرائب ، المفروضة عليها لخزينة الدولة وان غيرها طلب وضع الصلاة ، نجيب ان اختلاف المظاهر لا يؤثر وانه لو تساهلت حكومة المدينة ، مع قبيلة من القبائل او اظهرت شيئا من الضعف والاستكانة لأطمعت الآخرين فيها ، وحملتهم على طلب المزيد ، وما كانت غايتهم الحقيقية سوى التخلص من النظام نفسه ، لأنه لا يتفق مع ما اعتادوه من استقلال ولا مع الانفة التى شبوا عليها فى احضان قبيلتهم

وجملة القول ان المسلمين لقوا عناء عظيما فى اطفاء فتنة الردة فكلفهم القضاء عليها دماء غالية ، وافقدهم عددا كبيرا من رجالهم ، فعدد من قتل منهم فى معركة

عقرباء وحدها يزيد كثيرا على عدد الذين قتلوا فى سبيل فتح الحجاز و بلاد العرب الاخرى ، وما ذلك الا لان بنى حنيفة استماتت فى الدفاع عن قضيتها ، وكانت تقاتل دون ظعنها ونسائها ومالها ، ولو كتب للحنيفيين الفوز فى يوم عقرباء لواصلوا الزحف حتى المدينة ، ولارتفع شأن مسيلمة ، ولعظم نفوذه ولتبدل تاريخ جزيرة العرب ولسار فى اتجاه غير الاتجاه الذى سار فيه

وكانت معركة عقرباء هذه خاتمة للمعارك التى دارت فى بلاد العرب بين انصار النظام الجديد و بين خصومه ، فلما انجلت عن اندحار هؤلاء وفشلهم واستقرت قواعد الدولة الجديدة وخضعت القبائل ، وقد تردد بعضها فعلا لمعرفة نتيجة النضال الدائر ، فينضم الى الفريق الغالب وهو ما جرى فعلا فى اثناء النضال بين المسلمين وقريش ، وهو ما يتكرر فى جزيرة العرب حتى الآن بدون انقطاع تقريبا ، فمن دأب قبائلها ان لا تشترك فى نضال يدور بين قوتين من قواتها تتنازعان السيادة والنفوذ الا اذا اضطرت ، لانها تأبى المغامرة وتنفر منها ، فى حين انها لاتتردد فى الانضمام الى الغالب وتقديم الطاعة له ، وسيان عندها فاز هذا ام ذاك مادام كلاهما عربى وما دامت لا تطمع بان تحوز السيادة والنفوذ لنفسها

وحدث بعد عقرباء ما حدث بعد فتح مكة ، فقدمت القبائل كلها الطاعة والخضوع لحكومة ابى بكر ودفعت الزكاة ، واقامت احكام الدين ، ولولا ثبات ابى بكر ومن معه من الصحابة واستبسالهم فى القتال والنضال ، لما انتشر الاسلام بمثل ما انتشر به من السرعة الزائدة ، ولما انشأ المسلمون تلك الامبراطورية العظيمة ، ولحرمت الحضارة من الخدمات الكبرى التى اسداها لها العرب بنقلهم الحضارتين اليونانية واللاتينية

وكانت بلاد فارس وقد وقف جيش خالد بعد انتهائه من حروب الردة وفراغه من امر نجد على حدودها ، فى مقدمة الاقطار التى اقدم المسلمون على مهاجمتها فى المرحلة الجديدة لاعتبارات عديدة ايجابية وسلبية بسطناها فى متن الكتاب وسنلم ببعضها هنا

٥ ـ مهاجمة الامبراطورية الفارسية

كانت هنالك عوامل عـدة تغرى المسلمين بمهاجمـة فارس وتدفعهم الى قتالها واقتحام حدودها بعضها سلبي و بعضها ايجابى وهى :

١ ـ ما بشرهم به رسـولهم من انهم سيفتحون بلاد كسرى و يستولون على خزائنه وايوانه

٢ ـ كتابه الى كسرى بالدعوة الى الاسلام و رفض هذا قبول الدعوة ، وتمزيقه الـكتاب ، وقول النبي حينما نقل اليه ذلك « مزق الله ملـكه »

٣ ـ رغبة ولاة امور المدينـة فى فتح ميدان جـديد للعـرب يقاتلون فيـه و يكافحون بعـد ما انتهى امر الجزيرة كلها وخضعت للدولة الجديدة ، فالحرب والغزو من « العادات المحلية » عند العرب

٤ ـ وفود بعض ابناء العراق من رعايا الامبراطورية الفارسـية الى المدينـة ومقابلتهم ولاة امورها وطلبهم تجهيز حمـلة على العراق لانقاذ العـرب من سكانه وتحريرهم ، وضمهم الى الدولة الجـديدة باعتبارهم ذوى عصبيتها ، فالعـربى ابن عم العربى حيثما كان وانى وجد ، وذلك شعار العرب فى كل زمان ومكان

٥ ـ الرغبة فى امتلاك العراق ونشر الاسلام فى ر بوعه و يعـد من اخصب بلاد العرب ، وا كثرها ثروة وغنى

ولا بد لنا بهذه المناسبة من الاعتراف بان نظام تو زيع الغنائم الذى جاء به الاسلام ـ و يقضى بتوزيع اربعة اخماس الغنيمة او ٨٠ فى المئة على الجيش المحارب ، واستبقاء العشرين الاخرى لبيت المال (خزينة الدولة) لانفاقه على المصالح العامة ـ كان له كبير الأثر فى تنشيط حركة النضال وفى حمـل العرب على مواصلته ، فهو فضـلا عن الثواب الاخروى الذى يضمنه للمجاهـدين الاحياء منهم والاموات ولا سيما الذين يسقطون صرعى فى الميدان فانه يضمن فائدة مادية لمن يظل حيا فى حالة النصر والفوز وهو سهم من الغنيمة و يناله بنسبة عادلة بعد اخراج سهم بيت المال وهو مخصص للمصالح العامة كما قلنا

ولقد نسخت الشرائع الحديثة هذا النظام فحل محله نظام التجنيد الاجبارى ، ويجعل الجندى المحارب تحت كفالة الدولة وتقدم اليه كل ما يحتاج اليه مدة وجوده فى الجيش وتساعد عائلته اذا كان له من يعوله اذا سقط صريعا فى ابان الخدمة ، اما فى صدر الاسلام فما كانت الدولة مسئولة عن حاجيات الجندى وشؤونه ، ماعدا السلاح وكانت تقدمه لمن لا يملكه فكان هو الذى يبتاع فرسه ويقدم له علفه ، وكانوا يسهمون لاصحاب الخيل باكثر من سهم المشاة عند توزيع الغنائم ، وكان الجندى نفسه يتدارك طعامه وشرابه وكسوته ايضا ، واشترط المسلمون حينما افتتحوا البلدان فى الشام وفلسطين ومصر على سكانها فى عقود الصلح ان يقدموا لمن يمر بهم من جند المسلمين الطعام لمدة ثلاثة ايام ، وهى مدة الضيافة المقررة عند العرب لا يسأل فيها الطارق عن المكان الذى يقصده ، والقصد من ذلك ان تترك له فرصة يستريح فيها من عناء السفر ويطلع على ما هو فى حاجة الى الاطلاع عليه من شؤون القطر الذى يزوره ، ويقف على المعلومات التى يحتاج اليها ، فيسير على هدى بعد انقضاء مدةالضيافة ويدبر نفسه بنفسه من دون تعب ولا نصب . على ان نظام التجنيد عند المسلمين طرأ عليه تحول كبير فى عهد عمر بن الخطاب واصبح من المصالح الكبرى التى يعنون بها ويسهرون على تنظيمها ، وسنفصل أخباره فى الكتاب الثالث حين الكلام على نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين

ولقد اصاب ابو بكر فى غزو العراق اغراضا شتى فحقق للمسلمين ما بشرهم به نبيهم من امتلاك ايوان كسرى كما نشر الدين الاسلامى فى تلك البلدان الغنية العظيمة واوجد مورد رزق لسكان الجزيرة ، وقد أثرت فيهم حروب الردة والغزوات المتتابعة التى غزاها المسلمون فى خلال عشر سنوات ودر عليهم ارباحا طائلة فتدفقت انهار الثروة فى المدينة وعاش الناس مترفين منعمين ، يؤيد ذلك ما نشرناه فى سيرة سعد بن ابى وقاص فقد ترك يوم توفى ثروة قدرت بربع مليون درهم ، وهو مبلغ عظيم ، لا نظن ان عربيا امتلك مثله فى الحجاز قبل الاسلام وما كانت ثروة الموسر الواحد من بنى مخزوم وكان يضرب بهم

المثل فى الاثراء فى مكة تزيد عن ٦٠ الف درهم واذا قيل لنا ان سعدا جمع هذه الثروة لانه كان قائدا من كبار القواد نقول ان هنالك آخرين اثروا ايضا كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف والنسبة محفوظة بين القواد والجنود فى كل حال . وهى تدل على نمو الثروة بعد غزو العراق والشام

تلك هى الإسباب الايجابية التى دفعت المسلمين الى غزو العراق و بعثتهم على مهاجمة امبراطورية كانت تعد من اعظم الامبراطوريات فى عصرها وكانت تنافس الامبراطورية الرومية وكانت باتفاق الآراء اعظم امبراطورية عرفها التاريخ القديم وتجاذبها حبل المجد والفخار ، ولطالما اكتسح جندها بلاد الروم ولطالما دوخوهم وهددوا عاصمتهم ، ومعنى ذلك ان قوى الفرس العسكرية كانت عظيمة ، وكل نسبة مفقودة بين قوتهم وبين قوى العرب التى هاجمتهم فى الشرق وانشبت اظافرها فى جسم دولتهم وما زالت بها حتى قوضت بنيانها ودكت اركانها وورثت ارضها وديارها والملك لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وبين الباحثين من العلماء خلاف فى تعليل الاسباب المادية التى ضمنت النصر والتفوق للمسلمين ومكنتهم من اخضاع فارس وانتزاع ملك الاكاسرة ، ويورد كل واحد منهم اسبابا وعللا يعتقد انها لاسواها هى التى عجلت فى فوز خالد والمثنى وسعد والنعمان والاحنف . وينتحى كل واحد من هؤلاء (الباحثين) ناحية خاصة يعكف على دراستها ، فيتمسك بعضهم بالعامل الاقتصادى ، ويجعله السبب المباشر فى غزو العرب للعراق وفى انهزام الفرس ، ويتمسك آخرون بالعامل الاجتماعى ، ويرون ان ماغشى فارس فى الفترة التى تقدمت ظهور الاسلام من غواش وما تسرب اليها من فساد واضطراب ، نتج عن انتشار الالحاد والاباحية ساعد على سقوط هذه الامبراطورية تحت سنابك خيل العرب

ويقول آخرون انه كان للاضطرابات السياسية الداخلية وقد نمت وكثرت فى تلك الفترة فتعدد سقوط الملوك وقيامهم وازدادت المؤامرات والدسائس اثر كبير فى اضعاف الدولة وتسرب الخلل اليها وانفضاض القلوب من حولها ، وملاشاة

نفوذها ، سيما وقد سبق الغزو العربي غزو رومى فقد بلغ هرقليوس المداين بجيوشه واحتلها بعد ماهزم الجيش الفارسى وشتت قواه وأملى على الفرس شروط الصلح الذى ارادها فانصاعوا مضطرين وبديهى ان هذا الانكسار المريع انهك قوى الفرس ، فلم تستطع ثباتا امام المسلمين الذين تدفقوا من غربى جزيرتهم يحملون دينا جديدا ، وتعاليم جديدة ويسيرون تحت قيادة جمعت شملهم ووحدت صفوفهم وانشأت منهم امة جديدة تطمح الى المجد وتطمع فى امتلاك العالم واخضاعه

ولقد مرت المعارك التى دارت بين المسلمين والفرس فى خمسة ادوار :

١ ـ الدور الاول وهو دور الحروب غير النظامية وقد امتد سنة واحدة تقريبا وكان بطل هذا الدور خالد بن الوليد فقد اكتسح جنوبى العراق وفاز على الفرس فوزا مبينا وهزمهم فى المعارك التى دارت بينه وبينهم وظل يتقدم حتى الانبار (الفلوجة) وانتهى هذا الدور بالاستيلاء على الحيرة قاعدة المناذرة

واشتدت الحروب فى ميدان الشام ، وحشد الروم قوة كبيرة للمسلمين ، فأرسلت القيادة العامة من المدينة امرا الى خالد بان يقصد الشام بنصف جيشه ويترك النصف الآخر بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ، لنجدة الجيش المحارب هنالك ، فسار على الفور وقاد العرب فى المعركة الفاصلة وكان قدومه من العوامل التى ضمنت الفوز لهم فانتصروا على الروم وانتزعوا منهم الشام وفلسطين ومصر وما زالوا يطاردونهم حتى جبال طوروس

وجلا العرب بعد سفر خالد عن الاماكن التى فتحوها ورابطوا على حدود الصحراء لان القوى التى بقيت فى هذا الميدان لم تعد تكفى لصد الفرس والتغلب عليهم . واخذوا يحاربون حرب عصابات اى حربا غير نظامية ، مكتفين بشن الغارات على مراكز اعدائهم وازعاجهم من دون ان يشتبكوا معهم فى معركة فاصلة ، لعدم تكافؤ القوى . على ان الحال تحول قليلا بعد وصول ابى عبيد وقد غلبه الفرس وهزموه . فلم ير الخليفة بدا من مواصلة الحرب فى هذا الميدان ، على منوال جديد ، وكانت معركة اليرموك قد انتهت بانتصار المسلمين وفوزهم ، فأعد جيشا جديدا فى

المدينة اختار لقيادته سعد بن ابى وقاص من اقطاب المهاجرين وكان عاملا على هوازن (عتيبة) فاستقدمه وسيره الى فارس فكان ذلك مستهل الدور الثانى وقد ابتدأ بنصر القادسية وانتهى بفتح المداين

ولا بد لنا من التنويه بالاعمال الجليلة التى عملها المثنى بن حارثة الشيبانى فى الدور الاول فقد ابلى احسن بلاء وكان من كبار العاملين على تحرير العراق و بسط نفوذ العرب عليه

ويرى بعض المؤرخين ، ان المثنى هذا وهو من بكر بن وائل اى من عرب العراق هو اول من اهاب بالمسلمين الى مناجزة فارس ، فقد دأب هو وقومه على مهاجمة اطراف العراق فسمع به ابو بكر فاستقدمه اليه فلما قابله اقترح عليه ان يوليه غزو فارس ، وسهل امرهم عنده ورغبه فى حربهم ، فكتب له عهدا بذلك فعاد الى مناطق الحدود و باشر العمل : ولما انتهت حروب الردة وتم النصر لخالد ، امره ابو بكر ان يسير الى العراق بجيشه وان يكون على صلة بالمثنى ، كما سير عياض بن غنم بطريق الجوف لمهاجمة شمالى العراق فيكون الزحف من الجانبين « الشمال والجنوب» ، وحالت حوائل عسكرية دون تقدم عياض ، فادركه خالد وانقذه واتحد الجيشان فى العمل وانضمت اليهما قوة المثنى ففعلوا الاعاجيب ، وحل المثنى محل خالد حينما رحل الى الشام ومات متأثرا بجراحه قبل افتتاح الدور الثانى تاركا وصية لسعد عمل بها . وكان من القواد المبرزين فى الفنون الحربية كما كان من اشجع الشجعان ويجعله بعضهم وخالد بن الوليد فى درجة واحدة

وكان الدور الثانى اقصر من الاول ، فقد حارب المسلمون الفرس حربا نظامية وجاءوهم بقوى كبيرة ونازلوهم فى القادسية فى معركة ميدان كبيرة ختمت بانتصارهم وقتل قائد الفرس الاكبر ، ولم يطل سعد الاقامة هنا بل واصل تقدمه الى المداين فدخلها واجلى الفرس عنها

ولقد بحثنا فى كل ماوقع بأيدينا من كتب العرب والفرنجة لمعرفة اليوم والشهر الذى وقعت فيه معركة القادسية فلم نجد من عنى بتحديدها او ذكر اسم الشهر

الذى دارت فيه كما ان كل واحد منهم ذكر السنة خلاف ماذكرها غيره ، فبعضهم يرى انها كانت فى سنة ١٣ وآخرون فى ١٤ وغيرهم فى ١٥ و ١٦ و ١٧ ويرى طه الهاشمي وهو آخر من كتب فى هذا الباب انها كانت فى شهر اكتوبر « تشرين الاول » سنة ٦٣٥ وهو يوافق شهر شعبان سنة ١٥

والذى نرجحه ان القادسية كانت فى شهر شعبان سنة ١٤ وهذه هى الاعتبارات التى نستند اليها فى هذا الترجيح :

١ ـ مات ابو بكر فى شهر جمادى الاولى سنة ١٣ والمعارك دائرة فى ميدان الشام فأوصى خليفته بان يعنى بفتح فارس وان يرسل اليها القوى فورا وان يعيد من بالشام من جند العراق اليه لانهم ادرى به فنفذ هذا وصيته وارسل النجدات كما اصدر امرا بارجاع هذا الجيش فعاد بعد ما اشترك فى فتح دمشق وقد فتحت بعد اليرموك بستة اشهر كما سيأتى معنا فى الكتاب الثانى

٢ ـ ما أجمع عليه المؤرخون الثقات وهو ان معركة اليرموك دارت فى شهر رجب سنة ١٣ الموافق لشهر سبتمبر « ايلول » سنة ٦٣٤ اى قبل القادسية بثلاثة عشر شهرا

٣ ـ ما اجمع عليه المؤرخون الثقات وهو ان جيش العراق العائد من الشام وصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وكان اشتراكه من العوامل التى ضمنت الفوز للسلمين

ولا ريب ان المدة المنقضية بين اليرموك والقادسية وهى ١٣ شهرا (رجب سنة ١٣ ـ شعبان سنة ١٤) كافية لوصول اوامر عمر الى ابى عبيدة بارسال هذا الجيش وسفره و وصوله . اما لو اعتبرنا ان المعركة دارت فى شهر شعبان سنة ١٥ فلا يبقى هنالك وجه للقول بوصول هذا الجند حين المعركة اذ لايعقل ان يتأخر سنتين فى الطريق . كما انه لا يبقى هنالك وجه لتسمية يوم القادسية الثالث باغواث والمجمع عليه انهم وضعوا له هذا الاسم لوصول « الغوث » اى المدد من الشام والمقصود بذلك الجيش الذى اشترك فى اليرموك

٤ ـ لان الروايات التى سردناها فى متن الكتاب عن شدة اهتمام عمر بقتال

الفرس وعقده الاجتماعات واختياره سعدا لمنصب القيادة لا تجعل مجالا للشك فى ان المعركة دارت فى المدة التى ذكرناها و بينها و بين ارتقائه منصب الخلافة ١٦ شهرا وهى مدة كافية لحشد الجيوش ووصول القوى ، مع تسليمنا بما يروونه وهو ان سعدا قضى ٤ اشهر بعد وصوله الى القادسية يعد معدات القتال فمدة ١٢ شهرا وقد انقضت بين بدء خلافة عمر و بين وصول سعد الى القادسية مدة كافية لاستقدام سعد وكان على صدقات هوازن (اى فى منطقة الطائف وهوازن هذه هى نفس قبيلة عتيبة وتنزل فى منازلها القديمة بين الحجاز ونجد)

٥ ـ لان المسافة بين المدينة والقادسية غير بعيدة كما هو الحال فى الميادين الاخرى كميدان الشام وفلسطين ومصر فلا تزيد عن ٨٠٠ كيلو متر تقطع عادة فى ٢٠ يوما . ولا ريب ان قرب المسافة من جهة وسهولة الاتصال من جهة تساعد على الاسراع فى حشد القوى وتؤيد ماذهبنا اليه

٦ ـ ما اجمع عليه المؤرخون وهو ان عتبه بن غزوان انشأ البصرة فى سنة ١٥ ولم تنشأ الا بعد القادسية وفوق كل ذى علم عليم

ولقد كانت معركة القادسية خاتمة دور عسكرى حافل امتد سنتين وخمسة أشهر . فقد ابتدأ بزحف خالد على جنوبى العراق فى شهر جمادى الاول سنة ١٢ اى بعد معركة عقرباء بشهرين وانتهى بوصول سعد الى المداين (عاصمة الامبراطورية) فى شهر شوال سنة ١٤ وافتتاحها وانتزاع شطر الامبراطورية الغربى من ايدى اصحابها

وابتدأ الدور الثالث بزحف العرب شرقا الى جلولاء (قزلرباط) . ويلوح لنا ان هذا الزحف كان فى السنة الخامسة عشرة اى بعد القادسية بسنة فقد كانت المعركة التى دارت فى هذه المنطقة من المعارك الخطيرة وساعد العرب انتصارهم فيها على توطيد اقدامهم فى المداين وفى جنوبى العراق ، كما ساعدهم على فتح شماله ، وعلى توطيد نفوذهم فى شرقى جبال حمرين ، واتخذها الفرس قاعدة لاعمالهم العسكرية فى هذه المرحلة ، وختم هذا الدور بمعركة نهاوند الكبرى (فتح الفتوح) فقد مزق العرب هنا كل مابقى للفرس من قوى عسكرية ، واستولوا على منطقة جبلية حصينة ، كان قادة

الفرس يعتقدون ان العرب سيقفون امامها عاجزين لانهم ما كانوا تمرنوا حتى ذلك الوقت على حروب الجبال والمرابطة حول الاسوار والخنادق ، وسهل انتصار نهاوند للعرب الاستيلاء على نصف الامبراطورية الشرقى وجعلهم يسيطرون عليه ، كما اضعف القوى الادبية فى صدور الفرس فجنح اكثرهم الى التسليم

والدور الرابع هو دور الاعمال العسكرية الختامية وقد اوغل فيه العرب وانبثوا فى انحاء فارس كلها واستولوا عليها قطرا بعد قطر ومقاطعة بعد مقاطعة، وظلوا يتقدمون حتى بلغوا نهر جيحون شرقا و بحر الخزر شمالا وقضوا على الامبراطورية وابادوها

اكتساح امبراطورية الفرس وما استغرقه

لقد استغرق فتح الامبراطورية الفارسية ١٣ سنة تقريبا اكتسحها المسلمون من اقصاها الى اقصاها وتغلبوا على الفرس وقد قاتلوا على كل شبر من اراضيهم تقريبا وظلوا يطاردونهم من نهر الفرات حتى نهر جيحون ـ وهو الحد الفاصل بين بلاد ايران الحاضرة و بين افغانستان وكان كذلك فى العهد القديم ـ فوقفوا عنده ، حتى استؤنفت الأعمال العسكرية فى العهد الاموى فاجتازوا النهر واحتلوا ما وراءه ونشروا الاسلام فى آسيا الوسطى

ونرى من الواجب ان نذكر أن نضال العرب لم يكن قاصرا على هذا الميدان وحده فقد كانوا ينازلون الروم فى الشام وفلسطين ومصر وطرابلس الغرب وتونس وكيليكية فى نفس الوقت الذى كانوا يحاربون فيه الفرس ، اى انهم كانوا يخوضون الحرب مع الروم والفرس فى وقت واحد وينازلونهم هنا وهنالك ، ولعل هذا هو السر فى طول زمن النضال فى الميدانين ، ولو تفرغ المسلمون لاحدى الدولتين وصبوا قواهم عليها لما قاومتهم كل هذه المدة الطويلة ، ولقصر امد الحرب

كفاءة القيادة العامة

ولا يسع الباحث الا ان يذكر بالثناء ما اظهرته القيادة العامة للعرب فى المدينة

من كفاءة زائدة فى ادارة الاعمال العسكرية الباهرة التى عملت فى هدين الميدانين ، فقد كانت تديرها بمهارة وكانت ترسم الخطط للقواد وتمدهم بالنجدات عند الحاجة وترقب اخبارهم ، ولعل ذلك كان من جملة العوامل التى ضمنت لهم التفوق والانتصار على جيشين عظيمين كانا من اعظم الجيوش فى عصرهما . ومن تحصيل الحاصل القول بان التاريخ العسكرى لم يسجل منذ بدأ الناس بتدوينه ، اخبار نصر يضاهى بعظمته النصر الذى ادركه العرب على الروم والفرس ، وسيظل معينا لاينضب للمشتغلين بالعلوم التاريخية والعسكرية يجدون فيه مادة غزيرة للبحث والدرس

اعمال العرب فى ربع قرن

لقد تم للعرب فى مدة لا تزيد عن ربع قرن ما لم يتم لغيرهم من الامم التى عرفها التاريخ سواء من تأخر عنهم ومن تقدم فقد عملوا فى هذه الفترة الصغيرة الاعمال الآتية :

١ ـ جاءوا بشريعة من اعظم الشرائع التى عرفها التاريخ وا كملها واتقنها

٢ ـ انشأوا دولة لا عهد للعرب بمثلها فى تاريخهم : فتحت الجزيرة وحاربت الروم فى الشمال وانتزعت منهم نحو نصف ممتلكاتهم فى آسيا وافريقية ، وحاربت الفرس ودكت دولتهم وورثتها

٣ ـ انشأوا حكومة تدرجت تدرجا طبيعيا ، فبعد ما كانت فى اول الامر تتألف من رئيس وسكرتيرين وعمال اصبحت بعد انقضاء سنوات على تأسيسها تملك دواوين ومصالح وصارت ذات نظام ثابت راسخ

٤ ـ انشأوا جيشا قويا منظما قهروا به الفرس والروم ، واستولوا على معظم الاجزاء المعروفة من العالم التمدن فى ذلك الوقت ، ووضعوا لهذا الجيش نظما جديدة يسير عليها فى تعبئته وسوقه وقيادته

٥ ـ انشأوا هيئة اجتماعية جديدة متضامنة متماسكة بعد ما كانوا قبائل يقاتل بعضها بعضا ، و بعد ما كان الجار يفتك بجاره والاخ يفتك باخيه

٦ ـ قضوا على تقاليد الجاهلية وعاداتها فلا تفاخر بالآباء ولا تنابز بالالقاب ، بل الكل سواء امام الشرع والقانون

٧ ـ نشروا الامن فى انحاء جزيرة العرب وفى البلاد التى خضعت لهم ، ووزعوا العدل ، وضمنوا المساواة ، ومنعوا الاعتداءات فانقاد الناس اليهم واقبلوا عليهم ، ورأوا فيهم محررين ينقذونهم من ظلم الحكومات التى كانت تسيطر عليهم وتذيقهم الوان النكال والعذاب

الفتنة الداخلية وحركة الفتح

هذا بعض مايرد على ذهن الباحث وهو يحاول تلخيص الاعمال التى عملها العرب فى خلال ربع قرن لانتشار الاسلام بينهم وظهور دولتهم الجديدة فى المدينة اى منذ وصول النبي مهاجرا اليها حتى ابتدأ عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، فقد اوقفت الاضطرابات الداخلية التى ظهرت فى اواخر عهده حركة الفتح وعطلتها تعطيلا موقتا لاشتغال قواد الجيش بها ، واشتراك بعضهم فيها ، على انها ما لبثت ان عادت فى العهد الاموى الى ما كانت عليه ، حينما استقرت قواعد الدولة الاموية الجديدة فافتتح المسلمون المغرب الاقصى ودخلوا الاندلس واستولوا على اسبانيا وواصلوا تقدمهم فى اواسط آسيا فاستولوا على افغانستان وتركستان واوغلوا فى الشرق حتى اخضعوا معظم ممالكه ، كما بلغوا اسوار القسطنطينية فى زحفهم من سورية وأنشأوا اسطولا كبيرا ساد البحر الابيض وسيطر عليه

حروب الاسلام والامبراطورية الرومية

وقد خصصنا الكتاب الثانى للكلام عن حروب الاسلام والامبراطورية الرومية (الرومانية) فاستوفينا البحث عن فتح الشام ومصر وطرابلس الغرب وتونس واوردنا معلومات قيمة طريفة عن حالة تلك البلاد الاجتماعية والسياسية حين مهاجمة العرب لها وعن قوة الدولة الرومية ونظامها السياسى والعسكرى وعن حصونها ومعداتها على منوال جديد

نظام الحكم فى دولة الخلفاء الراشدين

وخصصنا الكتاب الثالث للبحث عن نظام الحكم فى دولة الخلفاء الراشدين وعن تحوله واوضاعه وعن الفتنة الداخلية واسبابها وعواملها ، وتبسطنا فى الكلام عن التنافس بين الامويين والهاشميين فى الجاهلية والاسلام معتمدين فى ذلك على اوثق المصادر من عربية واوربية متجردين عن كل اعتبار حزبى ، وغير راغبين الا فى خدمة التاريخ العربى الاسلامى خدمة خالصة ، لاعتقادنا ان عهد التشيع والتحزب قد انقضى وانه يجدر بالعرب والمسلمين ان يتدبروا تاريخهم ويستوعبوه فقد يبث فيهم روحا تقيل عثارهم وتعيد عصر مفاخرهم

الدولة الاموية

والكتاب الرابع خاص بالدولة الاموية واعمالها العسكرية ، وفتوحاتها فى الشرق والغرب واستيلائها على الاندلس وغرب اوربا والكتاب الخامس خاص بالكلام على نظام الحكم وتحوله فى العهد الاموى وعن الاضطرابات الداخلية وعن العوامل التى ادت الى سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية . وسنواصل اصدار الكتب حتى نصل الى عهدنا الحاضر ان شاء الله فنتم ما شرعنا فيه من تدوين هذا التاريخ ، ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون والتوفيق

القاهرة فى ١٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٣ و ٢٢ ديسمبر سنه ١٩٣٤

ايضاح

ذكرنا فى الصفحة الثانية أن الوهابيين هدموا القبة التى أقيمت فوق المكان الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ولم نذكر السبب الذى بعثهم على هدمها ، وهو رغبتهم فى القضاء على بدعة زيارتها وقد فشت كثيرا

تقويم الكتاب

ص

ص

ص